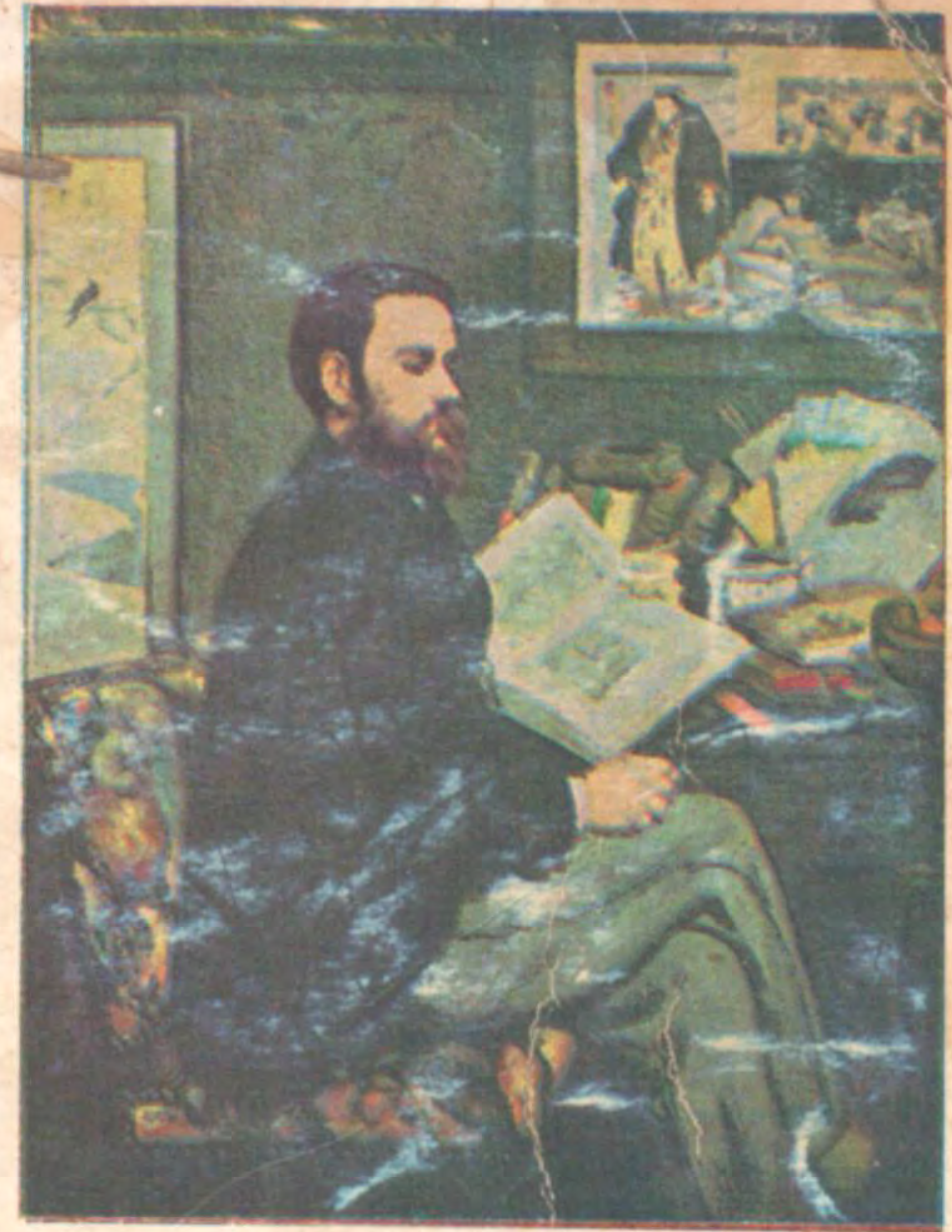


اميـل زولا

الوحش فى الانسان

ترجمة : محمود مسعود



اميـل زولا .. بريشة مانيـن

الوحش فى الانســان

هام بها حبا ، ولكن ما أن يرى جسدها ، حتى تستبد به رغبة جنونية فى أن يغمد خنجره فى أحشائها ، فهناك بعيدا ، بعيدا فى أعماقه يكمن الوحش الجبار .

وترامت بين ذراعيه وطفت عليه شهوة الدم فخرج يركض الى الطريق ينشد امرأة أخرى ليقتلها ، بيد أنه أخيرا عاد اليها — فى يوم ما — وقتلها ، ووقف يتلذذ ويستمتع بدمها المراق ، كما استمتع من قبل بما نال منها من قبلات .

١٠ قروش
ف ج.ع.م

طارق محمد

الوحش فى الإنسان

تأليف : اميل زولا
ترجمة : محمود مسعود

الفصل الأول

كانت الغرفة خانقة الحرارة ، فلابد أن فكتوار العجوز قد وضعت فحما كثيرا فى المدفأة قبل خروجها للعمل هذا الصباح · وما أن دخل روبو الى الغرفة حتى وضع الخبز والفطيرة والنبيذ الابيض فوق المائدة ، ثم أسرع الى النافذة ففتحها وأطل منها ·

كان المنزل فى أحد شوارع باريس الصغيرة ، وقد خصصته شركة السكك الحديدية لايواء موظفيها · وكانت الغرفة علوية تحت السطح فى الطابق الخامس ، ومن نافذتها وقف روبو يطل مبهورا على محطة سان لازار الكبيرة التى تقتطع مساحة طيبة من قلب باريس ولا تهدأ فيها حركة القطارات الذاهبة والآيبة ،ويقارن بينها وبين محطة الهافر المتواضعة التى يعمل فيها مساعد ناظر محطة · وكان ذلك شأنه دائما كلما جاء الى باريس لقضاء يوم فى غرفة الام فكتوار ، اذ يستهويه مشهد العمل وحركته الضخمة الدائبة ·

وبينما هو يهم بترك النافذة اذ سمع صوتا يناديه ، فأطل مرة أخرى ·· كان المتكلم فى شرفة الغرفة التى تحته مباشرة هو هنرى دوفرن ، حارس القطارات الذى يناهز الثلاثين ، وكان يقيم فى الغرفة مع أبيه وشقيقتيه الفاتنتين المرحتين · وقد قال له هنرى :

ـ أنت فى باريس يا مسيو روبو ؟ آه ، تذكرت ·

بالطبع حضرت من أجل تلك المشكلة الصغيرة بناء على طلب نائب المدير ٠

فقال روبو وهو متكىء على حافة النافذة أنه اضطر الى السفر من الهافر فى الصباح المبكر امتثالا لاستدعاء نائب المدير لكى يتلقى التأنيب القاسى الذى كان ينتظره، ومن حسن الحظ ان المسألة انتهت دون ان يفقد وظيفته ٠

فسأله هنرى : ـ وكيف حال زوجتك ؟

انها اصرت على مرافقته فى هذه الرحلة لكى تشترى أشياء لها من باريس ، وهو الان ينتظر عودتها ٠٠ ان فكتوار العجوز كانت تسمح لهما دائما بمفتاح هذه الغرفة عند حضورهما الى باريس ، وكان يطيب لهما ان يتناولا فيها طعام الغداء فى هدوء بينما تقوم هى بعملها فى المحطة ٠ والان قد جاوزت الساعة الثالثة ، وهو يكاد يموت جوعا ٠

وسأله هنرى عرضا اذا كان فى نيتهما قضاء الليلة فى باريس ، فرد روبو سلبا ، وأبدى أنهما سيركبان قطار السادسة والنصف عائدين الى الهافر ٠ وفجأة قطع حديث الزميلين فى العمل نغمات بيانو انبعثت من حجرة الشقيقتين المرحتين مصحوبة بضحكاتهما المفعمة بخفة الشباب ولهوه فانبسطت أسارير هنرى ، ولوح بيده مودعا ، وارتد الى الداخل للمشاركة فى المرح ٠

وعاد روبو بدوره الى داخل الغرفة ، ولم يتمالك أن قطب وجهه حين نظر الى الساعة ٠ كانت الثالثة والثلث ، فما الذى اخر سيفرين الى هذا الوقت ؟ لاشك انها كالعادة نسيت نفسها وهى تتنقى وتشترى ٠ ولكى ينسى روبو جوعه الشتد تشاغل باعداد المائدة ، فأخرج من الدرج الاطباق والفوط والشوك والسكاكين والاكواب ، ونسقها فوق المائدة ، فوضع الفطيرة فى طبق وزجاجة

النبيذ جانبها ، وفتح اللفافة التى جاء بها وأخرج منها علبة السردين وقطعة الجبن ووضعهما فى مكانهما المناسب ٠٠ لاشك أن سيفرين ستضحك طربا حين تفتح الباب وتبصر هذا المشهد .. أنها تعلم أنه يتلذذ بهذا العمل ٠

ودقت الساعة النصف بعد الثالثة ، فأخذ روبو يذرع الغرفة جيئة وذهابا وهو يتلفت الى ناحية الباب كلما سمع أقل صوت على السلم ٠ وفى مروره بالمرآة وقف يتأمل نفسه برهة ٠ لا بأس به فى هذه السن ٠ كان يناهز الاربعين ، ولكن لا أثر للشيب فى شعره الاحمر المتموج ٠ وكان متوسط الطول ، قوى البنية . لقد سر بما طالعه فى المرآة : جبين منخفض ، وعنق غليظ ، وجه مترع بالدم ، وعينان كبيرتان لامعتان ٠٠ انه تزوج امرأة تصغره بخمسة عشر عاما ، وكانت هذه النظرات فى المرآة بين فينة وأخرى تطمئن نفسه ٠

وشرد نظره الى علبة من الصدف كانت موضوعة فوق دولاب الاوانى ٠٠ انه يعرفها جيدا ، انها كانت هدية من سيفرين الى فكتوار التى كانت مرضعتها ٠ وذكرته العلبة بقصة زواجه ، الذى مضى عليه الان زهاء ثلاث سنوات ٠ لقد نشأ فى اقليم ميدى ابنا لسائق عربة نقل ، وبعد أن سرح من الجيش برتبة وكيل باشجاويش اشتغل حمالا للطرود فى محطة سكة حديد مانت ، ثم رقى على الاثر الى رئيس حمالين فى محطة بارنتان ٠ وفى هذه المحطة التقى بزوجته ، التى اعتادت أن تأتى وتستقل القطار مع الانسة بيرت ، ابنة القاضى جرانموران ٠ وكانت سيفرين أوبرى الابنة الوحيدة لبستانى كان يعمل فى خدمة آل جرانموران ، ولكن القاضى ، اشبينها وراعيها ، دللها الى حد أنه جعل منها رفيقة لكريمته ، وأرسلهما معا الى

مدرسة واحدة فى روان ، وكانت سيفرين ذاتها تبدو على حظ وافر من التربية الفطرية حتى لقد كان روبو يصبو اليها على البعد ، بذلك الحنين الذى يخامر عاملا عاديا الى جوهرة يعلم انها نفيسة وانها بعيدة عن متناول يده· كان ذلك هو الحب الوحيد فى حياته · وما كان يتردد فى الزواج بها حتى ولو كانت فقيرة مدقعة ، فى سبيل أن ينعم بامتلاكها · وعندما استجمع شجاعته فى النهاية ، كان الواقع يفوق كل أحلامه ، فان سيفرين لم تمهر فقط بدوطة تقدرها عشرة آلاف فرنك ، بل ان القاضى جرانموران ، الذى اعتزل الان العمل وعين عضوا فى مجلس ادارة شركة السكك الحديدية ، أخذ روبو تحت جناحه هو أيضا · فبعد الزواج مباشرة عين روبو مساعد ناظر محطة فى الهافر · نعم كانت هناك تقارير تشهد بصفاته الحميدة كالامانة وامكان الاعتماد عليه (وان وصف بأنه محدود الذكاء) ، وكانت هذه التزكيات كافية لتفسير ترقيته السريعة ، ولكن روبو كان يفضل أن يعزو هذا كله الى زوجته ، التى كان يعبدها ·

أما الآن ، وهو لا يزال ينتظر عودتها ، فانه فتح علبة السردين وقد تزايد ضيقه الى حد الغضب ·· كان المفروض أن تعود فى حدود الساعة الثالثة ، فأين ياترى هى الان ؟ ليس من الممكن أن تمضى النهار كله فى شراء حذاء وبعض الملابس الداخلية ، وعندما مر بالمرآة مرة أخرى ألفى نفسه مقطبا الى أبعد حد ·· فى الهافر لم يعهد نفسه قط مرتابا متشككا ، أما فى باريس فله أن يتصور كل شىء ، كالخطر ، والخداع ، والمكر · واندفع الدم الى رأسه وأطبق قبضتيه ، كشأنه فى الايام الخوالى حينما كان يدفع عربات النقل الثقيلة . وفى مثل هـــذا المزاج النفسى كان أشبه بحيوان لا يستشعر قواه ·· كان

بوسعه أن يسحقها بسهولة حتى المــوت ·· فى سورة حنق أعمى ·

وفتح الباب ، واذا هى واقفة أمامه ، كلها نضارة ومرح · وقالت :

ـ ها أنا أخيرا ! هل ظننت أنى تهت ياحبيبى ؟

كان قوامها وهى فى ازدهار الخامسة والعشرين ، نحيلا ، لدنا ، وافر الاستدارة · وعند النظرة الاولى اليها لم تكن جميلة ، فان محياها كان متطاولا وفمها فى الجانب الاكبر ، ولكن أسنانها كانت منضدة ، وكلما أمعنت النظر اليها تجلى لك سحر عينيها الواسعتين الزرقاوين وشعرها الكثيف الفاحم ·

ولما رأت زوجها يدمن النظر اليها صامتا وفى ملامحه تعبير القلق والتردد الذى تعهده فيه جيدا ، قالت له :

ـ المسألة انى لم أجد الاتوبيس ، ولم أرد أن أضيع النقود فى ركوب مركبة ، وهكذا جئت الى هنا وأنا أجرى ·· بامكانك أن ترى أنى أشعر بالحر الى درجة كبيرة ·

ـ نعم ، أرى هذا ، وانك ستقولين انك جئت من محلات بون مارشيه رأسا !

فجرت نحوه وطوقت عنقه بذراعيها فى صراحة أخاذة لطفلة ، وأقفلت فمه بيدها البضة الجميلة قائلة :

ـ اسكت أيها الرجل الشنيع ! أنت تعرف كم أحبك !

ان كيانها كله كان ينم عن أبلغ الاخلاص حتى أنه ضمها اليه بعنف ·· ان شكوكه المبهمة كانت تنتهى دائما على هذه الصورة ·· انها كانت تحب أن يدللها ويلاطفها ، ولم تلبث الان أن أسلمت نفسها لعناقه ، وتركته يكتم أنفاسها بقبلات لم تبادله اياها رغم ذلك ، وكان هذا أحد أسباب هواجسه وظنونه · كانت مثل طفلة

كبيرة ، مليئة بالمحبة البذوية ، أما العاشقة المشبوبة العاطفة فان صورتها بدت الان هاجعة فى سباتها ٠

قال لها : ـ لا بأس ٠ اذن فقد اشتريت محلات بون مارشيه بأكملها ؟

ـ طبعا ! انتظر حتى أقول لك ! لكن دعنى آكل أولا ، فاننى فى شدة الجوع ٠ أنظر ، لقد أحضرت لك هدية صغيرة ٠ أسرع ٠ قل (أين هديتى الصغيرة) !

وأدنت محياها من وجهه وضحكت ٠٠ كانت ممسكة بشىء فى جيبها ، ولما استحثته مرة أخرى أن يطلب منها (هديته الصغيرة) ، ضحك تفكها وارتياحا وردد كلماتها ٠

لقد تذكرت أنه أضاع مطواة جيبه الكبيرة منذ اسبوعين وأنه افتقدها كثيرا ، فاشترت له مطواة أخرى جديدة ٠ ولم يتمالك أن هتف مبتهجا حين رأى مقبضها العاجى ونصلها اللامع ، وأراد أن يستخدمها من فوره ٠ وابتهجت هى بدورها لرؤيته مغتبطا هكذا ، وجعلته يعطيها قطعة من ذات الخمسة سنتيمات من ثمنها حتى لا تنفصم عرى الحب بينهما أبدا ٠ وقالت له :

ـ والان ، هيا بنا نأكل ٠

وجلست تلتهم السردين بشراهة ٠٠ ان هذه الرحلات الباريسية كانت كخمر مسكرة بالنسبة اليها ، انها كانت تحب واجهات المتاجر ولذة الشراء من محلات بون مارشيه ، وكان ذلك شأنها كل ربيع : تنفق كل مدخرات الشتاء فى رحلة واحدة ٠ وجعلت تملأ فمها بالطعام وهى لا تكف عن الحديث ، وفى النهاية اعترفت وهى موردة الوجه بما أنفقته ، وهو أكثر من ثلاثمائة فرنك ، حتى قال روبو :

ـ سحقا لهذا ! ياله من اسراف بالنسبة لزوجة مساعد ناظر محطة !

فراحت تحدثه باسهاب عن اغراء المعروضات ورخص أسعارها بمقارنتها بماهو موجود فى الهافر ، وقالت انه سيعجب بها عندما يرسلونها الى عنوانهما ٠

وبدت له وافرة الملاحة بتورد محياها ومعاذيرها التى تذهب الغضب حتى لم يتمالك أن ضحك ٠ ان هذه الاكلة اللطيفة وهما وحدهما فى هذه الغرفة الواسعة بعيدا عن جو المطعم كانت شيئا طريفا شائقا ٠ ولم تتمالك سيفرين ، التى ألفت أن تشرب الماء ، أن أطلقت لنفسها للعنان وتناولت كأسا من النبيذ أتت عليه عن آخره ، وبعد السردين عمدا الى الفطيرة وفيها قامت المطواة الجديدة بدور رائع ٠ ثم سألته سيفرين :

ـ لكن ماذا عن موضوعك ؟ بدل أن تتركنى أتكلم طول الوقت ، حدثنى عن نائب المدير ٠

فحدثها تفصيلا عن مقابلته مع نائب مدير الشركة ، وكيف أنه دافع عن نفسه وشرح ما حدث بصدق عندما منع الراكب من ركوب عربة الدرجة الاولى فى القطار مع كلبه دون عربة الدرجة الثانية المخصصة لذلك ، وماتلا هذا من تبادل الكلمات الغاضبة . . ان نائب المدير قال له انه كان على حق فى تنفيذ لوائح الشركة ، ولكنه عنفه لقوله للراكب : « ان أمثالك لن يظلوا دائما هم الرؤساء ! » ٠ ان هذه الكلمات جعلتهم يرتابون فى أنه ذو ميول جمهورية ، والواقع أن المناقشات فى مستهل الدورة البرلمانية لعام ١٨٦٩ وظلال القلق المخيمة لقرب الانتخابات القادمة ، قد جعلت الحكومة على درجة من الحساسية ٠ ولولا الكلمة الطيبة التى قالها القاضى جرانموران فى حقه لعوقب بانزال درجته ، وكان عليه مع

ذلك أن يحرر خطاب اعتذار سطره له القاضى • فقالت سيفرين عندما فرغ :

ــ بديع اذن . . ألم يكن جميلا أنى كتبت له وذهبت اليه معك صباح اليوم وقابلناه قبل ذهابك الى نائب المدير ؟ كنت أعلم أنه سوف يخرجنا من هذه الورطة •

فأجاب روبو : ــ نعم • انه فعلا يحبك كثيرا ، وله نفوذ فى الشركة • ولكن أين مكان الاخلاص فى العمل ؟ صحيح أنهم أقروا بأنى معروف بالنظام والشجاعة وحسن الخلق ، لكن لو لم تكونى زوجتى ياحبيبتى ، ولو لم يتكلم جرانموران لمصلحتى من أجلك ، لذهبت ضحية الواقعة • ربما كانوا طوحوا بى الى محطة صغيرة نائية •

وساد الصمت برهة . . ان سيفرين كفت عن الاكل وبدت مستغرقة فى التفكير ، فهل كانت تفكر فى طفولتها التى قضتها فى (قصر دوانفيل) على بعد عشرة أميال من روان « انها لم تتذكر قط أمها ، وعندما توفى أبوها البستانى كانت فى نحو الثالثة عشرة ، وهنا قرر القاضى ، وهو ذاته أرمل ، أن يستبقيها كرفيقة لكريمته بيرت ، تحت اشراف شقيقته مدام بونون ، أرملة صاحب مصانع • وبعد ستة أشهر من زواج سيفرين وروبو ، تزوجت بيرت التى تكبر سيفرين بعامين محاميا ناحلا من روان يدعى لاشيناى ، وقبل ذلك بسنة اعتزل جرانموران رئيس نفس المحكمة العمل بعد خدمة ممتازة •• كان مليونيرا وعضوا فى مجلس الدولة ، وقد أنعم عليه بوسام الشرف يوم احالته الى المعاش • وفيما تتذكر سيفرين من صورته الماضية ،فانه بدا دائماكما هو الان ، متين البنية موفور القوة ، دب اليه المشيب ، ولكن شعره مازال محتفظا بآثار لونه السالف ، ووجهه الصلب العريض ذو

العينين الزرقاوين والانف البارز يسبغ عليه مسحة من الرهبة كانت تجعل الناس يخافونه •

وقال روبو مكررا سؤاله بصوت أعلى :

ــ ما الذى تفكرين فيه ؟

فارتعدت ، كما لو أن شيئا روعها ، وقالت :

ــ آه • لا شىء فى الواقع •

ــ أراك لا تأكلين • ألست جائعة بعد هذا ؟

ــ بل جائعة • أنظر وراقبنى !

وتناولت سيفرين رشفة من النبيذ ، وانقضت على الشريحة الباقية من الفطيرة • وبرغم النافذة المفتوحة فان الطقس مازال حارا ، ولم تستطع سيفرين وظهرها الى المدفأة أن تشعر بترطيب ، بل ان محياها زاد توردا وبدا وبه مسحة اضطراب ، وكأن شيئا غير مرغوب قد تسلل الى حديثهما أثناء غدائهما المرح •

وما لبث أن ذهب عنهما الجوع ، وأخذا يتشاغلان باقتطاع شرائح من قرص الجبن لكى يطيلا الاكلة ما استطاعا ، وكانت كلماتهما تخرج كذلك وانية بطيئة •

وقال لها روبو :

ــ نسيت أن اسألك بالمناسبة •• لماذا قلت لجرانموران أنك لا تريدين الذهاب الى قصر دوانفيل للاقامة يوما أو يومين عندما طلب ذلك منك ؟

وفى الاسترخاء المقترن بأكلة طيبة ، سرح بأفكاره الى الزيارة التى قاما بها صباح اليوم الى المنزل الكبير بشارع دى روشيه ، وتذكر نفسه فى غرفة المكتب الواسعة ، وسمع القاضى وهو يقول انه عائد الى دوانفيل فى اليوم التالى • ولكنه ما لبث وكأنما حفزه دافع مفاجىء أن اقترح أن ينضم اليهما فى نفس المساء فى قطار السادسة والنصف ، ويأخذ سيفرين معه لزيارة

شقيقته ، التى ارادت أن تراها منذ فترة طويلة · ولكن سيفرين أبدت كل أنواع المعاذير للتخلص من الذهاب ·
وقال روبو يسألها مرة ثانية :
ــ لماذا أردت الا تذهبى ؟
ــ الحقيقة أنى لم أرد أن اتركك وحدك ·
ــ ليس هذا سببا ! منذ زواجنا ذهبت الى هناك مرتين · فما الذى يمنعك من الذهاب مرة أخرى ؟
فأجابت دون أن تنظر اليه :
ــ كل ما هنالك أنى لم أشعر بميل الى الذهاب ·· يجب ألا تحاول حملى على فعل شىء لا أود أن أفعله ·
ــ هل السبب أنك لا تحبينه ؟ أذكر بأنك قلت أنك كنت ترتعبين منه وأنت طفلة .
ــ ارتعب ! أراك تبالغ كعادتك ·· نعم انه اعتاد الا يضحك كثيرا ، انه يحدق فيك بعينيه الواسعتين الى حد أنك تضطر أن تحول نظرك عنه · انى رأيت أناسا بلغ من فزعهم منه أنهم كانوا لا ينطقون بكلمة واحدة · ولكنه لم يوجه الى شخصيا أى تأنيب ، وكنت أشعر دائما أن هناك نقطة ضعف فيه تجاهى ···
وانحاز صوتها الى الهدوء ولاحت فى عينيها نظــرة بعيدة ، وأردفت تقول :
ــ وأتذكر أنى وأنا طفلة صغيرة كنت ألعب مع أصحابى فى الحديقة ، وكانوا اذا شاهدوه قادما يجرون ويختبئون ، حتى بيرت ، كريمته · أما أنا فكنت أقف مكانى ، وعندما كان يرانى أرفع اليه رأسى مبتسمة ، كان يربت على خدى ···
واغمضت عينيها وآخلدت الى الصمت ، ومر ظل على محياها المتورد حين تذكرت أشياء حدثت منذ زمن بعيد ، أشياء لم تقلها الان ·

واشعل روبو غليونه ، وقال :
ــ لابأس . انه كان فى الحقيقة طيبا نحوك . انه لم يكتف بتربيتك كسيدة ، بل أشرف على مضاعفة نقودك حتى كان المبلغ الاجمالى كبيرا عند زواجنا ·· ثم انه لابد ان يترك لك شيئا فى وصيته ·· لقد قال هذا امامى ذات مرة ·
فقالت سيفرين : نعم ·· ذلك المنزل المجاور لشريط السكة الحديد فى (كروا دى موفرا) .. أننا اعتدنا أن نذهب للاقامة فيه أسبوعا أو أسبوعين ، لكنى لا اطمئن الى هذا التفكير ، فان بيرت وزوجها سوف يبذلان كل ما فى وسعهما للحصول على المنزل لنفسيهما ، وسوف ترى · وعلى اية حال فانى افضل الا يترك لى شيئا فى الوصية ·
وخفت نبراتها عن الحدة حتى رفع الغليون من فمه وحدق فيها قائلا :
ــ يالك من بنت مضحكة ! كل انسان يقول انه مليونير ، واذن فلماذا لايترك شيئا لربيبته ؟ مامن احد يستغرب هذا ، ومن المؤكد انه سيفيدنا فائدة طيبة ·
فقالت سيفرين : ــ انظر ·· الساعة الان الرابعــة والربع ، وامامى اشياء اقوم بها ، ويجب الا ننسى موعد قطارنا ·
وفى هذه اللحظة كانا واقفين لدى النافذة ، فاخذها روبو بين ذراعيه برقة وهى مديرة اليه ظهرها ، ومالبث ان وضع ذقنه على منكبها وضم رأسه الى رأسها ، وراحا يتطلعان من النافذة ·
وسرى اليه دفء جسدها الغض فأذكى حواسه ، فشدد عناقه لها ، ولما حاولت ان تتخلص منه برفق وهى تبدى ان الزمان والمكان غير ملائمين جذبها بعيدا عن النافذة

وأوصدها ، وأخذ يغمرها بقبلاته ، ولكنها الان اخذت تقاومه بكل قواها ، حتى جن جنونه ٠٠ ما بالها اليوم مختلفة عما عهده فيها ؟ ماذا دهاها وما كانت تفعل مثل هذا من قبل ؟

وفى هذا الدفع والتمنع طوحت بهما الحركة الى جلسة على حافة الفراش ، فمر بيده على وجهه وكأنما يريد ان يهدئى من سورة عاطفته ، ولما رأته يبذل مجهودا نفسيا الى التمالك والتعقل ، انحنت تقبل خده لكى تريه أنها مازالت تحبه رغم ذلك ، ولبث لحظات لا يبديان حراكا وهما يستعيدان هدوءهما صامتين ٠ وتناول يدها اليسرى وجعل يعبث بخاتمها الذهبى القديم ، وكان على شكل حية ذات رأس مطعم باحجار الياقوت ، وكانت تضعه دائما فى نفس الاصبع مع خاتم الزواج ٠

وخيل اليها انه ينظر الى الخاتم القديم ، واذا شىء يدفعها الى الكلام ، فتقول وكأنما تغمغم لنفسها :

ـ نعم ٠ حيتى الصغيرة ٠ انه اعطانى الخـاتم فى (كروا دى موفرا) هدية فى عيد ميلادى السادس عشر ٠

فتطلع اليها روبو بحدة وقال :

ـ من أعطاك اياه ؟ جرانموران ؟

وأحست به ينظر اليها ، وثابت الى نفسها منتفضة ٠٠ لقـد مست وجنتيها رعدة باردة مفاجئة ، وحاولت أن تجيب ولكن الكلمات استعصت عليهـا ، واستعصت عليها الحركة .

قال : ـ كنت تقولين لى دائما ان امك تركت لك هذا الخاتم ٠

وحتى هذه اللحظة كان بوسعها ان تنفى هذه الكلمات التى تفوهت بها فى لحظة نسيان ٠٠ كان بوسعها ان

تنفيها بضحكة وتتظاهر بأنها كانت متبلدة الذهن ، ولكن بدلا من ذلك فانها فقدت صوابها وحاولت المكابرة قائلة:

ـ لكن ياحبيبى ، انا لم اقل لك أبدا ان أمى تركت لى هذا الخاتم ٠

فجعل روبو يحدق فيها ، وقددب الشحوب الى وجهه هو الاخر ٠ وقال :

ـ ماذا ؟ ٠٠ تقولين انك لمتتذكرى لى ابدا ؟ ياللعجب ، لابد انك اخبرتنى بهذا عشرات المرات ٠ وعلى أية حال فماذا يمنع القاضى ان يهديك خاتما ؟ انه اعطاك اشياء كثيرة ، لكن لماذا تخفين هذا عنى ؟ لماذا تقولين انه من أمك ؟

ـ لكنك مخطىء ياحبيبى ٠٠ اننى لم أذكر امى أبدا ٠

كان هذا الاصرار بلاهة منها ٠٠ لقد رأت انها تفضح نفسها تماما ، وان بوسعه ان يقرأ أفكارها ٠٠ الا ليتها تستطيع ان تسترجع خطواتها ، وتبتلع كلماتها ! لكن فات الاوان ٠٠٠ لقد شعرت بالذنب يتجلى فى وجهها ، ولم تملك ان تفعل شيئا حيال هذا ، واختلجت شفتاها بحركة عصبية ٠ اما هو فقد اربد وجهه غضبا وكأن الدم يوشك ان يتفجر من عروقه ومالبث أن أمسك بمعصميهـــاودفع بوجهه الى وجهها لكى يقرأ فى عينيها المروعتين مالم تجسر على أن تبوح به بصوت مسموع وهو يقول :

ـ ياالهى ! ياالهى !

وبدا لها انه سيلطمها ، فحاولت ان تحمى وجهها بذراعها هاهو ذا فى ومضة ، وبحقيقة صغيرة تعسة تافهة ، وكذبة منسية ، قد سطع امامه كل شىء ، واذا هو يقذف بها فى الفراش وينهال عليهابقبضتيه الضخمتين ، وهو الذى لم يضربها طيلة زواجهما ثلاث سنوات حتى باصبعه ! واخذ يقول :

ــ يافاجرة! يافاجرة! انك نمت معه! انك نمت معه !

وانهال عليها بقبضتيه وكأنه يريد أن يدق الكلمات فى لحمها • واشتد اختناق صوته الى حد عجز معه عن التنفس او كاد • وعند ذلك فقط سمع كلمة (لا) تصدر عن جسدها المنهك • كانت الدفاع الوحيد الذى استطاعت ان تفكر فيه •• لقد لجأت الى الانكار خوفا من أن يقتلها • لكن تشبثها بكذبتها لم يكن من شأنه الا ان يضاعف من جنونه ، فراح يقول :

ــ اعترفى انك نمت معه !

ــ لا ! • لا ! ••

فرفعها من الفراش واكرهها على ان تنظر اليه • فتملصت من قبضته وجرت الى الباب • ولكنه انقض عليها بوثبة واحدة ، وبضربة وحشية طرحها ارضا وسقط معها • ثم امسك بشعرها وسمرها الى الارض • وظلا برهة متواجهين دون حراك • وفى السكون المخيف سرى من اسفل صوت الضحك والغناء منبعثا من حجرة شقيقتى هنرى دوفرن على نغمات البيانو ــ ذلك وهو يقول لها :

ــ اعترفى انك نمت معه !

واذ لم تجسر على الانكار مرة أخرى ، فانها لم تحر جوابا . فكرر قوله :

ــ اعترفى يافاجرة ، والا انتزعت احشاءك !

كان على استعداد لقتلها •• انها قرأت هذا فى وجهه • وفى سقطتها لمحت المطواة الكبيرة المفتوحة فوق المائدة • وفى اية لحظة الان يمكنه ان يمديده لاخذها ، لكنها اضحت الآن لا تحفل بشىء • • كل ما كانت تريده هو أن تنتهى من المسألة كلها ، فقالت :

ــ لا بأس • • نعم ، هذا صحيح •• الان دعنى •

ان الاعتراف الذى انتزعه منها بمثل هذه القسوة الشديدة ، عندما جاء ، كان بمثابة لطمة فى وجهه ، وكأنه شىء رهيب ، مستحيل • انه مازال غير مستطيع ان يصدق أن شيئا كهذا وقع حقا . لقد امسك برأسها وقرعه فى أحد أرجل المائدة ، وعندما قاومت سحبها فى الغرفة من شعرها مرتطما بالمقاعد . وكلما حاولت النهوض ضرب بها الارض من جديد ، حتى خضب الدم والشعر ركنا من أركان دولاب الاوانى ، ذلك ومازالت الموسيقى وضحكات الفتاتين تنساب من اسفل

واسندها الى طرف الفراش ، وبدلا من أن يلطمها ركع فوقها وراح يعذبها بالاسئلة •• لابد ان يعرف •• لابد ان يعرف •• يجب ان يعرف كل شىء •

ــ كم كان عمرك وقتها ؟ صغيرة جدا ، اليس كذلك ؟ صغيرة جدا ؟ لم تبلغى حتى العاشرة ، عندما اسلمت نفسك للخنزير ؟ من اجل هذا رباك كأبنته ، حتى يمكنه ان ينغمس فى هذا النوع من القذرات معك ، اليس هذا ، حصل ؟ تكلمى ، والا حطمتك من جديد •

كانت عاجزة عن التفوه بكلمة واحدة من خلال دموعها ، وهكذا رفع ذراعه ولطمها قائلا :

ــ هيا تكلمى ! كم كان عمرك وقتها ؟

لم تعد تستطيع المقاومة •• ان حياتها ذاتها بدت وكأنها تنزف منها وتنضب ، ولكن الاستجواب مضى بغير هوادة ، وفى بطء راحت تسرد كل شىء ، تسرده فى اشد عار وفزع حتى كانت كلماتها لا تكاد تسمع ، وما كانت كل صورة اتبعتها الا لتزيد من عذابه وكربه وتضاعف كل غضبه الحيوانى ، ومع ذلك فانه لم يسمع مافيه الكفاية ولابد له ان ينتزع منها كل تفصيل بشع •

ــ كم كان عمرك

— ستة عشر عاما ونصف

— انت تكذبين !

رباه ، ما الذى يدعوها الى الكذب ؟ لقد هزت منكبيها فى اعياء مطبق ·

— والمرة الاولى ·· اين كانت ؟

— فى منزل (كروادى موفرا) ·

هزته انتحابة · كيف يمكنه ان يمضى فى حياته وهذه الصورة المروعة دائما امام عينيه ؟

— رباه · هذا مستحيل · هذا مستحيل !

وهزها مرة أخرى وهو يقول :

— لماذا بحق الاله تزوجتنى اذن !؟ الا ترين انها كانت حيلة قذرة عندما خدعتنى على هذه الصورة ؟ هناك فى السجون لصوص اخف منك جرما ··· هل كنت تحتقريننى ؟ الم تكونى تحبيننى ؟ لماذا تزوجتنى ؟

فابدت اشارة مبهمة ·· هل كانت هى تعرف ؟ لقد سرها ان تتزوجه ، بأمل ان تستطيع التخلص من الاخر ·· هناك اشياء كثيرة جدا لا يريد الانسان حقا ان يفعلها ، ولكنه يفعلها كأخف الضررين ·· كلا ·· انها لم تكن تحبه ، وفى ظروف غير هذه ما كانت لتتزوجه قط ، ولكن ذلك السر ماكانت تستطيع ان تكاشفه به ·

راح يقول : — انه اراد ان يجد مغفلا اعمى مسكينا ·· انه اراد ان يسوى المسألة لكى تتمكنا من الاستمرار رغم كل شىء ·· وقد وجد المغفل ، وتمكنتما من الاستمرار ··· تلك المرات التى ذهبت فيها الى هناك معه · كلامى صحيح ؟

فاومأت برأسها ايجابا · فاستطرد :

وهذا هو السبب فى انه طلب منك اليوم ان تبقى معه مرة أخرى ··· ان تتمرغى معه فى القذارة مرة

أخرى ·· وسوف تفعلين هذا ايضا ، مالم اخنقك ·

وامتدت يداه للاطباق على حلقها ، ولكنها فى هذه المرة واجهته قائلة :

— كلا · انت غير منصف ·· اننى انا التى رفضت الذهاب ·. انك حاولت ان تجعلنى اذهب وانا التى أظهرت الاستياء فعلا · هل تتذكر ؟ لقد انتهت هذه المسألة . لن يكون لى شأن معه بعد ذلك أبدا ..

ادرك انها تتكلم الحقيقة وان كان ذلك لم يجلب له اقل العزاء ·· ان ماحدث لا سبيل قط الى نقضه ، والالم الملهب الممزق لهذه المعرفة سوف يلازمه على الدوام ·

وراح يغمغم : — فى (كروادى موفرا) ··· فى الغرفة الحمراء ·. اننى اتذكرها جيدا: ان نافذتها تطل على شريط السكة الحديد ، والسرير فى الجانب الاخر ·· كان هناك ، فى تلك الغرفة ·· لا عجب اذا كان يفكر فى ان يترك لك ذلك المنزل ·· لا شك انك تستحقينه بجدارة ! لا غرابة انه تولى رعايتك واعطاك دوطة كبيرة ·· لابد انها تساوى ماكان ! وقاض ذو ملايين ، ومتعلم جدا ، ومحترم جدا ، وكبير المقام والنفوذ الى أبعد حد ! كم يصاب الانسان بالغثيان عندما يفكر فى هذا ! وضرب صدغيه بقبضتيه وغمغم مرة أخرى :

— ماذا انا فاعل ؟ ماذا أنا فاعل ؟

لماذا لم يقتلها ؟ اهو خائف من قتلها ؟ كلا · انما العلة انه ما يزال يحب هذه الفاجرة · واذن فليطردها ولا يراها بعد ذلك .. لكن كلا .. لقد اجتاحه غثيان عندما ادرك انه لا يقوى على ان يفعل حتى هذا ·

كانت سيفرين ما تزال جالسة فى الفراش ، تراقبه ·· ان المودة الحقيقية التى كانت تكنها له دائما جعلتها ترثى

له الان فى عنفوان كربه ٠٠ لقد كانت على استعداد للصفح عن الكلمات النابية ، بل حتى الضربات لو تأتى لهـا أن تفهم ٠ ما الـذى فعلته انهـا ، وهى البنت الصغيرة ، الطيعة المنقادة ، قد خضعت لرغبات رجل كهل ، رتب فيما بعد زواجا معقولا كى يعمل علـى استقرارها بصورة طيبة ، وكان ذلك كله منذ عهد بعيد ، فلماذا هو غيور على هذا النحو الجنونى ؟ لقد راحت تراقب زوجها وهو يخطو جيئة وذهابا كما تراقب حيوانا فى قفص ، او ربما ذئبا ٠٠ ان روعها هو ان هذا الوحش الذى كانت تسمع زمجرته المكتومة بين وقت وآخر منذ زواجهما ، كان الان طليقا ، متأهبا كى يضرب ٠ فما الذى تستطيع ان تفعله كى تتفادى الضربة !؟

وعندما مر بطرف الفراش مرة أخرى حيث كانت ، استجمعت شجاعتها للكلام وقالت :

ــ لكن أنصت يا حبيبى .. أنت تعرف أننى أنا التى رفضت الذهاب اليه مرة أخرى . لم يكن فى نيتى أن اذهب ابدا ٠٠ انك انت الذى احبه ٠

وتشبثت بمعصميه، وشف صوتها عن ملاطفة وتحبب ورفعت اليه شفتيها لكى يقبلها ، ولكنه دفعها عنـه اشمئزازا وقال :

ــ عندما اردتك منذ قليل ، انصرفت عنى ، ولكنك الان تريديننى تفعلين هذا لاستعادتى اليك ٠ تظنين ان هذه هى الطريقة التى يمكنك بها امتلاك الرجل واستبقاءه ٠ لو انى استجبت لك الان ، فان ملمسك سوف يحـرقنى كالحمض الكاوى ٠

وارتعد ٠٠ وأومضت فى مخيلته صورتهما وهما فى الفراش معا ، ثم فجأة سطعت فى ذهنه صورة أخرى أتم وضوحا تبدد هذا الكابوس العقلى والجسدى كانت أوكد

وأرسخ ٠٠ لابد ان يموت احد ٠ وهو قد عرف من ذا الذى لابد ان يموت .

قال : ــ لكى استجيب لك من جديد فان هذا يقتلنى ٠٠ اللهم الا اذا قتلته أو . . . لابد لى أن أقتله . . اقتله !.

وعندئذ اخلد الى الصمت ، وكأن هذا العزم قد رد اليه تمالك نفسه ، ثم يمم شطر المائدة متباطئا ، ونظر الى المطواة ذات النصل اللامع ، وبحركة آلية طواها ووضعها فى جيبه. ثم وقف مقطبا تائها فى تفكير عميق وقد تدلى ذراعاه الى جانبيه ٠ ومالبث ان فتح النافذة وكأنما يريد ان يستهدى فى تفكيره بهواء الشفق الرطيب ونظر الى الخارج ، ووقفت سيفرين من خلفه ، محاولة ان تستشف اتجاه افكاره دون ان تجسر على سؤاله ٠

بدأ الليل يرخى سدوله ، والغى حركة القطارات فى المحطة الكبيرة على عهده بها دائما ، دائبة لاتنقطع ٠ وسقطت بضع قطرات من المطر من سماء داكنة .. انها ستكون ليلة مبتلة ٠

وعندما استدار روبو فى مكانه ، كان عاقدا العزم: لقد اعد خطته ونظر الى الساعة ، وقال :

ــ الخامسة والثلث ٠٠ امامنا وقت كاف ٠

ذلك ومازالت سيفرين لا تجسر على سؤاله ، ولكن عينيها القلقتين الملهوفتين لم تفارقاه لحظة ٠ ورأته يتجه الى الدولاب ويخرج قلما وورقا وحبرا وقال لها : سوف تكتبين شيئا ٠٠

ــ لمن ؟

ــ له ٠ اجلسى ٠

فتراجعت عن المائدة بحركة غريزية ومازالت تجهل نواياه ، ولكنه دفعها الى الجلوس بقوة غلابة حتى لم

تحاول ان تتحرك • وقال لها :

– الان اكتبى هذا : « اركب قطار السادسة والنصف هذا المساء ، ولا تظهر نفسك حتى تصل الى روان » .

فتناولت القلم ، بيد ان يدها ارتعشت خوفا مما قد تعنيه هذه الكلمات اليسيرة • وعالجت ان ترفع عينيها وتتطلع اليه مبتهلة قائلة :

– أرجوك يا حبيبى .. قل لى ماذا أنت فاعل .. قل لى أرجوك !

فقال بفظاظة : – أكتبى .. هيا ..

ونظر الى عينيها •• لم يعد ثمة غضب الان ، ولا كلمات قاسية ، وانما تصميم مرعب صارم حتى ليكاد يعتصر حياتها ، ويسحق كيانها •

– سوف ترين قريبا ما انا فاعل ، ولابد ان تفعليه معى •• بهذه الطريقة سوف نستمر معا ، وسوف يكون بيننا رباط حقيقى •

فمالت الى الخلف متخوفة وهى تقول :

– لا •• لابد ان تقول لى •• لابد ان اعرف قبل ان اكتب •

فامسك بيدها الصغيرة وعصرها عصرا حتى صرخت الما وانهارت كل مقاومة لديها • فتناولت القلم مرة أخرى وسطرت ماطلب بيدها الموجعة • ولما فرغت قال :

– هذا حسن •• الان نظفى المكان قليلا واستعدى •• سوف اعود اليك لاصحبك •

كان الآن على تمام الهدوء ، وقد سوى ربطة عنقه فى المرآة ولبس قبعته وخرج • وسمعته يوصد الباب بالمفتاح ويخرجه من الباب • فجلست برهة ساكنة فى الظلام ، محاولة ان تتسمع الاصوات المنبعثة من الخارج •• من الغرفة المجاورة التى يسكنها بائع الورق العجوز ،

جاء صوت نباح منتظم ، لعله كلب صغير حبسه صاحبه ، ومن مسكن هنرى دوفرن اسفل منها ، حل محل صوت البيانو رنين الاوانى والاطباق • وفى ضعفها الشديد الذى عجزت معه سيفرين عن الحركة ، جلست مكانها تنصت الى ضحكات الاسرة فى وحشة الليل الذى كان يطبق عليها ويحتويها بلا رحمة •

وكانت الساعة السادسة والثلث عندما دلف روبو وسيفرين الى المحطة ، وفى طريقهما عرجت سيفرين على فكتوار العجوز فى مكان عملها فى استراحة السيدات بالمحطة وردت اليها مفتاح الغرفة • وشقا طريقهما فى زحام المسافرين على رصيف القطار المتأهب يبحثان عن مقصورة خالية فى الدرجة الاولى . ووجد روبو المقصورة الخالية وهم بدفع زوجته الى داخلها ، حين شاهده ناظر المحطة مسيو – فاندروب وهو يمر متفقدا ومعه دوفرن الاب الذى كان يباشر الحاق ركبة اضافية بمقصورة واحدة بالقطار طلب اعدادها فى اخر وقت • فتبودلت التحيات واضطر روبو الى التوقف للتحدث معهما • وقد سألاه اولا عما انتهى اليه موضوع استدعائه امام نائب المدير ، ثم اخبراه بعد ذلك بحادث وقع فى محطة الهافر صباح اليوم • فقد تحطم العمود الموصل فى القاطرة ، وتقرر منح أجازة اضطرارية مدتها يومان لسائق القاطرة جاك لانتييه والوقاد بيكيه الذى يعمل معه ، وهو زوج فكتوار .. ووقفت سيفرين بباب المقصورة تراقب زوجها وهو يتبادل الحديث ويضحك ، وفى هذه اللحظة تحرك القطار الى الخلف بضع ياردات ، فجاء هنرى دوفرن الابن ، وكان حارس القطار وشرح لها ان احد اعضاء مجلس الادارة قد طلب الحاق مركبة خاصة قبل نصف ساعة فقط من موعد قيام القطار •

بلغت الساعة السادسة وسبعا وعشرين دقيقة ، وبقى على قيام القطار ثلاث دقائق • ولم يلبث روبو الذى ظل طول هذه الفترة يراقب الاستراحة أن دفـع بزوجته مسرعا الى داخل المقصورة الخالية وحانت منها التفاتة الى الخلف ، فلمحت قادما متأخرا يقترب على الرصيف وهو لايحمل سوى سجادة سفر صغيرة • وكانت ياقة معطفه الازرق مرفوعة الى وجهه وحافة قبعته مسدلة الى ما فوق عينيه حتى لم يبد من ملامح وجهه فى ضوء غاز الاستصباح المتراقص سوى طرف لحية بيضاء . بالرغم من رغبة المسافر الواضحة فى السير دون أن يلاحظه احد ، فان فاندورب ناظر المحطة ودوفرن الاب تقدما للقائه • اما هو فقد اسرع مارا بهما بايماءة يسيرة جدا واتجه الى المقصورة المحجـوزة بعد ثلاث عربات من مكان سيفرين ودلف اليها مسرعا •• نعم هو جرانموران ولاشك .. وهكذا غاصت سيفرين فى مقعدها مرتعدة.

واخذ موظفو المحطة يقفلون ابواب المركبات •• وقد دهش روبو وتضايق عندما وجد ان المقصورة التى كان يظنها خالية كانت بها فى الواقع امرأة متشحة بالسواد منزوية فى احد اركانها • وفى نفس اللحظة التى اوشك القطار ان يتحرك فيها ، فتح باب المقصورة ودفع المفتش برجل بدين وامرأة ارتميا فوق المقعد يلهثان •

لقد عاد المطر الى الانهمار بعد انقطاع،مغرقا الظلمة التى كانت القطارات تتحرك فى اطوائها رائحة غادية بلا انقطاع ، لا يرى فيها سوى صفوف اضواء النوافذ المتحركة • ثم اعطيت الاشارة وصفر القطار عـاليا مرتين ، ثم اخذ ينساب فى ثنايا الظلام •

• • •

الفصل الثانى

عند تقاطع الخطوط الحديدية فى (كروا دى موفرا) يقوم المنزل ملاصقا للشريط حتى ليهتز كلما مر به قطار • والمسافرون المارون بهذا المكان لاول مرة يتذكرونه فيما بعد ، أما المسافرون المتكررو الاسفار فانهم يعدون المنزل من معالم الطريق ، وان كل ما يعرفونه عنه هو مظهره الرث العتيق الموحش ، ونوافذه الموصدة على الدوام ، فما فيه الا ما يدل على الوحدة والاهمال •

والمنزل الوحيد الاخر فى هذه المنطقة الجرداء الموحشة التى تحف بها التلال ، هو كوخ عامل الاشارةحيثيقطع طريق دوانفيل شريط سكةالحديد،وهوكوخ متهدمتحوطه حديقة صغيرة لزراعة الخضر ، وسياج نباتى ، والمنطقة كلها منعزلة لا تمر بها سوى القطارات ، ونادرا ما يطرقها المارة من الاغراب •

ولكن فى هذا المساء نزل مسافر من قطار فى محطة بارنتان على بعد نحو ميلين ، وأخذ يسير بنشاط فى ظل الشفق الداكن متجها الى (كروادى موفرا) • وكان المسافر ، وهو شاب قوى البنية ، يستحث خطاهوكأنما يريد أن يفلت من وحشة المكان فى عتمة المساء •

وفى حديقة عامل الاشارة كان ثمة فتاة ترفع الماء من بئر • كانت طويلة ضخمة فى الثامنة عشرة ، شقراء الشعر ، غليظة الشفتين ، عسلية العينين • وكانت بعيدة عن الجمال بذراعيها القويتين ، وجذعها الثابت كجذع

فتى • وما أن وقع بصرها على الرجل القادم فى الدرب الموصل الى الكوخ حتى تركت الدلو يسقط ، وركضت الى البوابة منادية :

ــ جاك !

ورفع راسه الى ناحيتها •• كان فى السادسة والعشرين ، طويلا، وسيما ، أسود الشعر ، لا ينال من ملامحه المنتظمة سوى فكه القوى . وكان محياه الحليق وبشرته الرقيقة يسبغان عليه مسحة السيد ، لولا تلك العلائم الثابتة الدالة على مهنته ، وهى بقع الشحم المتخلفة على يديه اللتين تقودان القطار •

ورد عليها قائلا : ــ أهلا يا فلور !

كانت تعلوه مسحة حياء يؤلم ، وعيناه الواسعتان تنصجان بتعبير غريب مبهم • وقد ارتد عن البوابة بحركة لا ارادية •

أما هى فقد وقفت شامخة ، تنظر اليه مواجهة •• كانت تعرف هذه الرجفة التى تعتريه كلما اقترب من امرأة ، وكانت تحيرها وتحزنها • وسألها ان كانت أمها فى الداخل ، مع انه يعرف انها مريضة ولا تخرج قط ، فأومأت الفتاة ايجابا ، وأفسحت له مسافة يمر دون أن يلمسها ، ثم عادت الى البئر وهى شامخة برأسها •

وأسرع جاك يجتاز الحديقة الصغيرة ودخل المنزل •• كانت العمة فازى فى المطبخ الكبير الذى يمضون فيه نهارهم ويأكلون ، جالسة وحدها فى مقعد الخيزران المخصص لهاقرب المائدة ، وقد لفت ساقيها بشال عتيق • كانت بنت عم أبيه ، ووالدته بالتبنى ايضا ، وقد كفلته وهو فى سن السادسة ، عندما تركه ابواه الى باريس• وفى الوقت الملائم أرسلته الى الكلية الفنية ، وهو مدين لها بهذا ، حتى كان يقول لكل انسان انه اذا كان قد نجح

وتقدم فى حياته ، فانما ذلك بفضلها • وقد عمل سنتين فى خط سكة حديد باريس اورليان ، ثم أصبح سائقا من الدرجة الاولى فى هذا الخط الغربى • والان وقد عاد لزيارة العمة فازى ، فقد ألفاها متزوجة مرة ثانية من عامل اشارة يدعى ميزار ، ومعهما ابنتاها من زوجها الاول • بل لقد وجد العمة فازى ، التى كانت فى سن الخامسة والاربعين ضخمة وقوية ، وقد بدت وكأنها فى سن الستين ، ظاهرة النحول والشحوب ، مضعضعة البنية بتأثير نوبات الشلل الارتجافى التى تعاودها باستمرار •

وما أن رأته حتى هتفت سرورا :

ــ جاك ، هذا أنت حقا ، يا بنى الجميل ! ؟ لكن يالها من مفاجأة سعيدة ! فقبل وجنتيها ، وذكر لها انه نال أجازة اضطرارية مدتها يومان بسبب كسر عمود التوصيل فى قاطرته صباح اليوم وهى تدخل محطة الهافر ، وانه لن يعود الى العمل الا فى موعد قطار السادسة والاربعين مساء اليوم التالى . ولهذا فقد فكر فى المجىء لرؤيتها ، وقضاء الليل فى المنزل ، ثم يغادر محطة بارنتان بقطار السابعة وخمس وعشرين صباحا • وتناول يديها الهزيلتين وأخبرها انه تكدر كثيرا لما جاء برسالتها الاخيرة اليه •

شكرته العمة ، وراحت تبثه شكواها المريرة •

قالت انها ندمت لزواجها من ميزار ، ذلك الرجل الهادىء المظهر ، السىء الطوية ، وما كان يجب أن تتزوجه ومعها ابنتاها •

قالت انه بخيل الى أقصى حد ، ولو اقتصر الامر على هذا لهان الخطب ، ولكنه طامع فى الالف فرنك التى نالتها من أبيها ، وهو لايكف عن البحث عنها فى كل مكان ، رغم

انها خبأتها فى موضع لا يمكن أن تصل اليه يده ، مهما طال به البحث والتنقيب ·

واختتمت العمة فازى شكواها قائلة بلهجة مؤثرة :

ــ اندرى ياجاك ماذا فعل أخيرا؟انه يدس لى السم·

فأجفل جاك ، ولما حانت منه التفاتة الى النافذة حيث شاهد فى كشك الاشارات القريب ميزار وهو منهمك فى عمله ، لم يتمالك أن اعترت وجهه تلك النظرة الغريبة المبهمة التى ظللته كسحابة · على انه قال يسرى عنها :

ــ يالها من فكرة يا عمتى ! ان مظهره يدل على انه شخص مسالم لا يؤذى ·

على ان هذه العبارة زادتها حدة ، واسترسلت فى شكواها المريرة ، فلم يقطعها الا سؤال من جاك حين رأى من النافذة فلور وهى تفتح بوابة المزلقان لمرور عربة نقل بها كتل حجرية ضخمة من المحجر المجاور ، اذ قال :

ــ هل كابوش مريض ؟ انى أرى ابن عمه يقود العربة هذه الليلة ·· مسكين كابوش ·· هل تشاهدينه كثيرا هذه الايام يا عمتى ؟

فرفعت العمة فازى ذراعيها وتنهدت ــ لقد حدث شىء مروع فى الخريف الفائت ، زاد من سوء حالتها ، فان ابنتها الصغرى لويزيت كانت تعمل خادمة لدى مدام بونون أخت القاضى جرانموران فى دوانفيل ، وذات ليلة هربت وبها رضوض شديدة وفزع جنونى ، والتجأت الى كوخ صديقها القديم كابوش فى قلب الغابة ، وفى ذلك المكان توفيت · وانتشرت اشاعات فيما حولهم تقول ان جرانموران حاول افساد الفتاة ، ولكن ما من أحد تجاسر على ترديدها علانية ، والعمة فازى نفسها ، وان كانت لديها فكرة قوية عما حدث ، فانها كانت تفضل اجتناب الموضوع ، اما الان فقد قالت :

ــ لا ·· ان كابوش لا يأتى الى هنا أبدا الان ·· انه تحول الى ناسك ·· مسكينة لويزيت ــ انها كانت طفلة حلوة ، وكانت تحبنى جدا ، وكانت ترعانى ، أما فلور أنى لا أشــكو ، لكننى أحيانا أظن أنها ليست سليمة العقل ·· انها تختفى أحيانا ساعات طويلة ، وهى شديدة العناد ، سيئة الطبع . وهذا يحزننى كثيرا .

وبينما كان جاك ينصت اليها ، راح يتابع بنظراته سائق عربة النقل الذى كان الان يعبر شريط سكة الحديد · وما لبثت العمة فازى ان عادت الى الكلام فى موضوعها المفضل ، الصحة ·· صحتها ، وصحة الاخرين ايضا، فقالت له :

ــ هل أنت بخير هذه الايام يا جاك؟ هل تتذكر تلك الاعراض التى كانت تلم بك عندما كنت معنا ، والتى لم يستطع الطبيب أن يعرف كنهها ·· ؟

فعادت تلك الومضة الغريبة العصبية الى يمينه، وقال:

ــ انى بكل خير يا عمتى·

ــ هل ذهبت عنك تلك الالام المخيفة فى رأسك من الخلف، ودورات الحمى المفاجئة، ونوبات الانقباض التى كانت تجعلك تهرب وتختفى؟

وبينما كانت تتكلم كان يزيد قلقا ، حتى قاطعها قائلا :

ــ أؤكد لك يا عمتى اننى بكل خير ·· لا شىء عندى الان ·· لا شىء بتاتا ·

ــ الحمد لله يا بنى جميل منك أن تزورنى ·· وسوف تتناول العشاء معنا ، أليس كذلك ؟ ثم تنام فى غرفة السطح ، بجانب غرفة فلور ·

وقبل أن يجيب ، سمعا صوت ميزار وهو يتحدث الى رجل فى الخارج · لقد حل الظلام الان ، ودقت الساعة

السادسة ، وكان ميزار يسلم عمله الى عامل الاشارة الليلى ، فعاد الخوف الى العمة فازى ، وهمست :

ـ انه سيدخل بعد دقيقة ..

ـ ولكن فلور دخلت قبله : أضاءت مصباح الزيت ، وأخذت تعد المائدة وهى ترسل نظرة جانبية الى جاك الذى كان واقفا قرب النافذة . وكان فوق الموقد أناء به حساء الكرنب يسخن منذ فترة وبينما كانت فلور تنقله الى الاطباق أقبل ميزار ، فلم يبد عليه الدهش حين شاهد الشاب ، وقد أخبره جاك عن الخلل فى القاطرة فأومأ برأسه وكأنه فعل خيرا بحضوره . وجلسوا الى المائدة وأخذوا يأكلون فى تراخ وصمت ، وقبلت العمة فازى التى لم ترفع نظرها طول النهار عن اناء الكرنب طبقا من الحساء . ولكن عندما نهض زوجها لكى يناولها دواء ماء الحديد الذى نسيت فلور أن تقدمه لها ، لم تشأ أن تلمس قطرة منه . وبدا ان ميزار الضعيف الخجول الذى يسعل على الدوام لا يهتم بها فى مراقبتها لكل حركاته ، ولم ير جاك فى الرجل الضئيل شيئا يوجب الاشتباه ، وقدر أن عمته لابد تتصور أوهاما فى مخيلتها . ثم نفخ البوق فى كشك الاشارة وخرجت فلور للمساعدة ، وجلست أمها والرجلان الى المائدة وأمامهما زجاجة من الشراب . وأخيرا نهض ميزار ووضع قلنسوته على رأسه وخرج هو أيضا ليتفقد خيوط الصيد فى جداول الماء المجاورة : وهى هوايته المفضلة . وما أن غاب من الغرفة حتى التفتت العمة فازى الى جاك وقالت مرتعدة والعرق يتفصد فوق جبينها :

ـ أؤكد لك انه يدس لى السم ، ولذلك لم أقبل شيئا من يده .. انى احتملت هذه الليلة ما فيه الكفاية ، وأظن أن الوقت حان لنومى . ولهذا فانى أقول لك مع السلامة يا

جاك ما دمت ستذهب مبكرا . .. تعال زرنا مرة أخرى ، وأرجو أن ترانى وأنا ما زلت هنا .

وكان عليه أن يساعدها حتى غرفتها ، حيث دلفت الى الفراش ونامت على الاثر وقد برح بها الاعياء والجهد . وعندما بقى جاك وحده خطر له أن يأوى الى مضجعه فى غرفة السطح بين التبن ، لكن الساعة كانت تناهز الثامنة فقط ، ولهذا قرر أن يخرج بعض الوقت ، وترك المصباح مضاء فوق المائدة .

لقد أدهشه أن يجد الطقس مازال على اعتداله ، ولكن المطر لا يلبث أن يسقط مرة أخرى فى أغلب الاحتمالات ، فان السحب البيضاء كانت تكسو أديم السماء وتحجب البدر فى تمامه ، ولكن ضياءه الذهبى كان يتسرب وينتشر حتى بدت التلال والاشجار ذات أشكال غريبة خفية . ودار جاك حول حديقة الخضر ، وعندئذ لاح له المنزل المهجور قائما فى الجانب الاخر من شريط سكة الحديد .. كان يعرفه جيدا ، وطالما شاهده من مكانه فى قاطرته ليزون، ولسبب ما كان المنزل يبهره دائما وكأن له معنى خاصا بالنسبة اليه . انه لم يشهد قط بابا أو نافذة مفتوحين فيه ، وكل ما كان يعرفه عنه هو انه ملك للقاضى جرانموران . وهذه الليلة هى ولاشك فرصته لمشاهدته عن كثب .

اجتاز الخط ووقف برهة أمام البوابة الحديدية متطلعا محاولا أن يعرف ما وراءها . ان مرور الخط الحديدى أمام المنزل قد يخلف جانبا من حديقته الامامية فلم يترك سوى رقعة أزهار ضيقة يحدها سور مبنى ، ولكن من خلف المنزل امتدت رقعة أرض فسيحة يحف بها سور نباتى . لقد بدا المنزل فى ضوء القمر المعتم موحشا مقبضا ، حتى لقد سرت فى جسده رعدة وهم أن يعود

أدراجه ، عندما لاحت منه التفاتة الى فتحة فى السياج النباتى . ان تخوفه من الدخول بث الشجاعة فى نفسه ، وهكذا اندفع يجتاز الفتحة وقلبه يدق عنيفا . وفجأة، بينما هو يخطو بحذر قرب كشك نباتات صغير مهجور، اذ سمره فى مكانه مشهد شبح جالس القرفصاء قرب الباب ، ولم يلبث ان عرف فيه شبح فلور .

قال لها :

ــ عجبا هذا أنت ؟ ماذا تفعلين هنا ؟

انها مثله قد أجفلت برهة ، بيد انها قالت بهدوء :

ــ يمكنك أن ترى أننى آخذ هذا الحبل . انهم تركوا كوما كبيرا منه هنا ، وسوف يبلى اذا لم يستعمله احد ، ثم اننى أحتاج دائما اليه ، ولهذا أجىء وأقتطع جزءا .

كانت جالسة على الارض وبيدها مقص كبير ، وكانت تفك الحبل وتقص العقد أحيانا .

فقال جاك : ــ آلا يأتى المالك الى هنا ؟

فضحكت ، وقالت : ــ بعد مسألة لويزيت، لا خطر من أن يظهر القاضى وجهه لاحد فى (كروادى موفرا) .

فصمت عندما تذكر تلك المسألة المروعة ، ثم قال :

ــ هل تصدقين ما قيل على لسان لويزيت ، من انه حاول أن ينالها ، فأصيبت فى اثناء المقاومة ؟

ــ طبعا أصدق .. ان لويزيت لم تكذب ، وكذلك كابوش .. انه صديق لى .

ــ ربما كان يحبك ؟

ــ لا .. انه مجرد صديق ، فليس لى عشاق ، ولا أريد أن يكون لى .

ثم قالت ونظراتها مركزة فيما بين يديها :

ــ وانت ؟ ما هو موقفك ؟

هنا جاء دور جاك فى أن يبدو جادا ، فقد أخفى عينيه

وبدا كأنه يفكر فى شىء بعيد جدا ، وما عتم أن قال :

ــ لا .. لا حبيب لى .

ــ سمعت دائما انك تكره النساء .. انى عرفتك زمنا طويلا جدا ، ولم أسمع منك كلمة واحدة طيبة عن أية امرأة منا ، ولست أعرف السبب .

ولما لم يجب ، تركت العقدة التى كانت بيدها وتطلعت اليه قائلة :

ــ هل صحيح ما يقولون ، من انك لا تحب سوى قاطرتك ؟ يقولون انك تمضى كل وقتك فى تلميعها ، حتى تبدو براقة جميلة .. انى أتكلم بهذه الكيفية لاننا أصدقاء .

ولم يلبث أن تطلع اليها .. لقد تذكرها وهى طفلة : كانت سريعة الغضب قوية الارادة ، ولكن عندما كانت تشاهده كانت تندفع نحوه وتطوق عنقه بذراعيها متحببة ، وفيما بعد ذلك كان يغيب عنها فترات طويلة ، وكلما عاد كانت تبدو أكثر نموا ، ولكنها كانت دائما تحييه بنفس الكيفية ، حتى كان بريق عينيها يثير ارتباكه . أما الان فقدأصبحت امرأة ، كالثمرة الناضجة المشتهاة ، ولا ريب انها مازالت تحبه بنفس أسلوب الشباب الذى عهده منها ، وفى هذه اللحظة أدرك فجأة انها تنتظره الان، وانها تريده ، فشعر بقلبه يخفق بسرعة كبيرة ، واندفع الدم الى رأسه .. كان حافزه الاول هو أن يجرى ، ان الرغبة العاطفية كانت دائما تثير جنونه الى حد يفقده كل سيطرة على نفسه، والان قد استحوذ عليه غضب عنيف .

قالت له : ــ لماذا تقف ؟ تعال واجلس مرة ثانية .

تردد ، وشعر بركبتيه ترتجفان، ثم تهالك بجانبها، وشعر بتيبس شديد فى حلقه حتى انه لم يقو على الكلام.

والان كانت هى ، تلك التى عهدها دائما ذات كبرياء وصمت ، قد أخذت تسترسل فى الكلام ،

ـ لابد أن تعرف أن الغلطة الكبرى التى ارتكبتها أمى كانت زواجها من ميزار . ان هذا الزواج لن يكون منه خير أبدا .. اننى سئمت متاعبها .. وكلما سمعتنى اقول شيئا تقول لى: اذهبى الى الفراش .. ليكن . عليها ان تباشر امرها بنفسها .. اننى أمضى معظم وقتى فى الخلاء ، أفكر فيما سيحدث بعد ذلك . ولقد رأيتك هذا الصباح وأنت تمر فى داخل قاطرتك .. كنت جالسة خلف تلك الشجيرات هناك ، لكنك لاتنظر الى أبدا .. سوف يأتى يوم أقول لك فيه الاشياء التى أفكر فيها ـ فيما بعد ، عندما نصبح أصدقاء حقيقيين من جديد .

وتركت المقص يسقط فى حجرها وهى تتكلم ، فتناول يدها بين يديه دون أن ينطق ، ولكنه عندما رفعهما الى شفتيه المضطربتين ، جذبتهما بعيدا برد الفعل الغريزى لعذراء . وقالت :

ـ لا .. ليس هذا .. لنتكلم بهدوء .. اننى أعرف أن هذا هو ما يفكر فيه جميع الرجال .. كان يجب أن تسمع ما قالته لى لويزيت يوم وفاتها .. وفى الحقيقة فانى كنت قد سمعت أشياء عن ذلك القاضى العجوز البهيمى . كانت هناك أفعال كثيرة قذرة عندما اعتاد أن يأتى الى هنا بالفتيات الصغيرات . هناك واحدة على الخصوص لم يشك فيها أحد ، وقد عمل على تزويجها .

ولكن جاك لم يكد ينصت لما كانت تقوله: لقد ضمها اليه فى عناقة عنيفة ، وراح يسحق شفتيها بشفتيه ، فأرسلت صرخة احتجاج خافتة دلت فجأة على مدى ما كانت تكنه له من حب طوال ذلك الوقت . ورغم هذا فان غريزة ما أبت عليها أن تستسلم . وظل الاثنان برهة

يتسارعان ، وكلاهما يحاول أن يقهر الاخر ، وبدا لحظة كأنه يضعف ، وأنها ستفوز فى الصراع . الى أن أمسك بحلقها وطرحها .

لكنه الان تراجع وهو يشهق طلبا للتنفس، ووقف ينظر اليها وقد ملاه غضب جذونى .. لابد له أن يقتلها . وفى نوبة المس الجنونية التى سيطرت عليه، تلفت حوله التماسا لسلاح ، لحجر ، لاى شىء .. ثم حانت منه التفاتة الى المقص يبرق بين كوم الحبال، فاختطفه، وكاد يغمده فى صدرها العارى ، لولا ومضة عقل فجائية كالفولاذ البارد أمسكت يده، فقذف بالمقص مرتاعا، واندفع بعيدا عنها وهى ماتزال ممددة مغمضة العينين، تظنه صد عنها بسبب مقاومتها له .

أنشأ يركض بعنف فى ظلمة الليل ووحشته ، مرتقيا دروب التلال حينا ، وهابطا متخبطا فى وهادها حينا آخر ، هائما على وجهه هنا وهناك بين الشجيرات والنباتات البرية ، حتى ألفى نفسه أخيرا فى بقعة مكشوفة مسطحة . ومن هذه البقعة أخذ يهبط سفح التل حتى أتى فجأة الى السور الممتد على طول شريط سكة الحديد . وفى هذه اللحظة مر به قطار يدوى ويتوهج، حاملا تلك الكتل البشرية التى لانهاية لها ، بينما انكمش على نفسه مكانه فى تعاسة بالغة . وبعد برهة رأى انه لا يبتعد كثيرا عن نفق السكة الحديد الفاغر فاه المظلم .

لقد نزفت كل قوة فيه، وانطرح بجانب الشريط وقد دفن وجهه فى الاعشاب، ينتحب تشنجا، أواه يا الهى! اذن فقد عاد اليه ذلك العارض السيىء الذى حسب أنه شفى منـــه ! انه منـــذ لحظات أراد أن يقتل فلـــور . ان كلمات (اقتل امرأة) كانت تدوى فى أذنيه يتردد صداها من أحلام المراهقة المظلمة . وكما أن الفتيان الاخرين

حينما يبلغون الحلم ، يحلمون بامتلاك امرأة ، فانه هو قد استحوذت عليه رغبة ملهوفة لقتل امرأة ٠٠ انـه لا يستطيع الان أن يخدع نفسه ٠٠ انه التقط المقص بغرض صريح هو اغماده فى لحمها ، بعد أن رأى صدرها الابيض الدافىء . . انه أراد أن يقتلها ، لا لانها قاومته ولكن ببساطة لانه أراد القتل ، اراد القتل باشد استماتة الى حد انه لو لم يطبق يديه الان على خصلات الحشائش الطويلة ، لعاد اليها وشق حلقها ٠٠ نعم ، فلور ، التى راقبها وهى تكبر وتترعرع ، والتى صارحته الان بأنها تحبه ! لم يتمالك أن غرس أصابعه فى الارض ، منتحبا فى يأس مروع ٠

ولم يلبث أن حمل نفسه على الهدوء ٠٠ محاولا أن يفهم ٠ ما ذلك الذى جعله مختلفا عن غيره من الرجال ؟ ما كنه ذلك الوحش الهائج فى أعماقه ؟

انه يتذكر المرة الاولى التى حدث فيها هذا ٠٠ كان وهو يناهز السادسة عشرة يلعب مع فتاة صغيرة عندما وقعت على الارض ، وجعله مشهد ساقيها يندفع مهتاجا نحوها ٠ وفى اليوم التالى ، يتذكر انه شحذ مدية بقصد اغمادها فى عنق فتاة شقراء صغيرة كانت تمر بباب منزله صباح كل يوم ٠ ومنذ ذلك الحين كانت هناك كثيرات غيرها ، كأنهن موكب فى دياجير كابوس ٠٠ نساء تصادف أن كان يلتقى بهن فى الشارع ٠٠ نساء يقفن بجواره مصادفة . . وذات مرة اضطر الى مغادرة مسرح فى أثناء تمثيل أحد الفصول ، لكى يمنع نفسه من قتل المرأة الجالسة بجواره التى كانت تضحك عاليا ٠ كلهن كن غريبات عنه ، واذن فما هو وجه الشكوى منهن ؟ كل مرة كان ما يعتريه أشبه بنوبة غضب أعمى مفاجئة ، حاجة معاودة ملحة للانتقام من مظالم منسية . . أيمكن

أن يمت هذا بصلة الى مظلمة قديمة ، ارتكبتها امرأة فى حق رجل ، منذ قرون ماضية ؟ لقد شعر برأسه يكاد ينفجر من فرط الجهد الذى يبذله لكى يفهم هذا كله ٠

ومرق قطار آخر بجانبه كالشهاب وابتلعه النفق فوثب جاك على قدميه وخنق عبراته ، وكان جحافل المسافرين المجهولين يمكن أن يسمعوه ٠ أنه كثيرا ما كان عقب كل نوبة تعتريه ينقض كالجانى لدى اقل صوت ٠٠ انه لا يشعر بالسكينة الا فى قاطرته مستغرقا فى عمله ، منعزلا عن الدنيا كلها ، ولهذا كان يحب القاطرة كانها العشيقة المواسية الملاطفة التى تجلب وحدها السكينة الى نفسه ٠ لقد آثرمهنة سائق القطار على غيرها لانها تهيىء له العزلة والنسيان ٠ أنه لن يتزوج قط فان مستقبله الوحيد فى القاطرة ٠٠ أنه لا يشرب الخمر ، ولا يجرى وراء النساء ــ وهو نموذج للسائق المثالى ، وأحيانا كان زملاؤه يتهكمون عليه لفرط صلاحه ، واحيانا أخرى كان يساورهم القلق عليه عندما تنتابه تلك الحالات النفسية الغريبة . وفى غرفته الصغيرة فى باريس المطلة على حظيرة قاطرات باتينول ، كان يغلق الباب على نفسه ويعتكف كأنه ناسك فى صومعته ، ساعيا الى اغراق نوازعه الخفية بين جدرانها .

لقد حاول الان أن يتمالك ويسيطر على نفسه ٠٠ ماالذى يفعله الان هنا ، طريحا بين الحشائش فى هذه الليلة الرطبة ؟ لابد أن الساعة تقارب التاسعة ، ومن الخير له أن يعود ليأوى الى فراشه ٠ وعند ذلكتخيل نفسه وقد عاد الى بيت ميزار ، وصعد الى السطح واستلقى بين التبن مجاورا لغرفة فلور ، لا يفصلها عنه سوى قاطع خشبى رقيق . انها ستكون هناك . ويمكنه أن يسمع تنفسها ٠٠ أنه يعرف انها لاتوصد بابها قط،ما

من شيء يمكن أن يمنعه من الدخول اليها ، أو يحول دون قتلها ، .. لا .. لا .. خير من هذا أن يمضى ليله هائما على وجهه بين التلال ، على أن يعود الى هناك ! وهكذا وثب قائما وجعل يسير مسرعا فى الظلام . لابد له أن يمضى فى تجواله الى مالا نهاية لكى ينسلخ عن نفسه ، ولكى يبتعد عن الوحش المجنون الذى بين جنبيه . ولكن اينما ولى وجهه ، فان الوحش ما كان يفارقه أبدا .

وافاق لنفسه وهو عند مدخل النفق ، وعندئذ سمع دمدمة بعيدة ، كانت تتعالى كل ثانية .. أنه قطار السادسة والنصف السريع المتجه من باريس الى الهافر ، القطار الذى يمر فى هذه المنطقة فى التاسعة والخامسة والعشرين ، والذى يقوده هو شخصيا مرتين فى الاسبوع .

والان لم يلبث حلق النفق ان توهج كأنه فوهة فرن ضخم . ثم قصفت القاطرة بصوتها المدوى كالرعد ، ومرقت خارجه كالشهاب العظيم ، وأضواؤها الكاشفة تشق حجاب الظلام وتحيل القضبان الى خط مزدوج من لهب . واندفع خط المركبات الطويل بما فيها من مسافرين كانت أشكالهم بادية فى نوافذ المقصورات الباهرة الضوء .

وعندئذ رأى جاك .. رأى فى طرفة عين وفى وضوح ، رجلا مطبقا على رجل آخر فى مقعد ، وهو يغمد مدية فى رقبته .. وكانت ساقا الرجل المطعون المتخبطتان — يحجبهما جسم قاتم ممكن أن يكون شخصا آخر او قطعة كبيرة من الامتعة سقطت من الرف .. ثم مالبث القطار أن ذهب مندفعا فى اتجاه (كروا دى موفرا) .

وقف جاك مسمرا فى مكانه يراقب المصابيح الثلاثة

الحمراء الخلفية وهى تختفى فى الظلام ، وهدير القطار يخفت شيئا فشيئا حتى تلاشى فى أطواء السكون المطبق .. ترى هل أبصر حقا ذلك الذى ظن أنه أبصره ؟ ان المشهد قد جاء وذهب فى طرفة عين ، فكيف يمكن أن يتأكد أنه كان شيئا واقعا ؟ لم يكن لديه انطباع واضح عن بطلى هذه الدراما .. ان الجسم القاتم يمكن ببساطة أن يكون سجادة سفر سقطت فوق ساقى الرجل الممدد .. وبداله لحظة انه لمح وجها شاحبا من تحت كتلة من الشعر الاسود .. ان الصورة جعلت تطالع مخيلته برهة وهى واضحة ، ثم تغيب برهة أخرى وهى مطموسة ، ثم لا تلبث أن تختفى كأنها حلم .. لا بد أنه تخيل المشهد كله .. لابد أنه نوع من الهذيان تولد عنده بتأثير التجربة المروعة التى مر هو بها وكابدها .

ومضت ساعة أخرى وهو يهيم على وجهه مشدوها . ان التأزم قد فارقه الان — وجاءت بعد الحمى قشعريرة قارسة البرد ، ودون أن يفكر فى أى طريق كان يسلك ، ألفى نفسه فجأة لدى كوخ عامل الاشارة .. كان خيط رفيع من الضوء ينبعث من أسفل الباب ، وعندما دخل فوجىء برؤية ميزار جالسا القرفصاء على الارض وبجانبه مصباح . كان قد أراح جانبا برميل الزبد الكبير وراح ينقر على الجدار بمفاصل أصابعه ، ولما سمع صوت فتح الباب رفع رأسه ، دون أن يشعر بأدنى ارتباك ، بل اعاد البرميل الى مكانه ، وقال بصوت هادىء عادل :

— ان الكبريت سقط منى عندما جئت لاخذ المصباح ، فقد رأيت منذ لحظات وانا آت الى هنا ، شخصا ملقى على الشريط .. أظن أنه ميت

أدرك جاك أنه فاجأ ميزار وهو يفتش عن نقود العمة

فازى ٠٠ اذن فانها كانت على حق ، ولكن ما ذكره ميزار من الجثة طرد كل أفكار أخرى من ذهنه ، وتذكر ما شاهده فى القطار ٠ وقال وهو ممتقع الوجه :

ـ جثة على الشريط : أين ؟

ـ على مسافة نحو خمسمائة ياردة من هنا لابد أن ناخذ ضوءا اذا أردنا أن نعرف ماذا حدث ٠

ـ سأذهب معك ٠٠ هل تظن انها حادثة ؟

ـ فى الغالب ٠٠ شخص مسكين دهمه القطار ٠ أو ربما سقط احد من القطار ٠

راح جاك يرتعد ، وقال :

ـ هيا بنا اذن ٠٠ أسرع ٠٠ عجل !

لم يشعر قط فى حياته بمثل هذه الحاجة الملحة للنظر ٠٠ لكى يشاهد اذا ٠٠ لقد جعل يسير وكأنه فى سباق ، بينما تبعه ميزار على مهل دون ادنى انفعال ، والمصباح يهتز فى يده .. ان جاك كان مرتاعا ممايمكن أن يجده ، ومع ذلك فقد راح يجرى بكل قواه لملاقاته ، وفجأة تعثر أو كاد فى جسم أسود ملقى بجانب الخط ٠ فوقف مكانه وكأنما انتابته صدفة شلت حركاته ٠٠ لكنلم يستطع أن يبصر بوضوح وبدأ يلعن ولم يتمالك أن استدار خلفه يسب ميزار الذى كان يسير الهوينا على مسافة نحو ثلاثين خطوة خلفه .

ـ بالله تحرك يارجل ! اذا كان على قيد الحياة ، فقد يمكننا أن نساعده !

فجاء ميزار متباطئا وارسل ضوء مصباحه الى الجثة ٠٠٠ كان رجلا ، وقد سقط ووجهه الى الارض على مسافة لا تبعد أكثر من قدمين من الشريط وقد انفرج ساقاه ٠ ٠٠ وكان ذراعه الايمن مدلى وكأنه نزع نزعا من مفصله ، بينما كان ذراعه الايسر مسمرا تحت صدره ٠٠

وكل ما كان باديا من رأسه هو دائرة من شعر أبيض فى بركة من الدم ٠

قال ميزار بعد أن حدق فى الجثة صامتا :

ـ انه شخص جاءه قدره المقسوم ٠٠ يجب الا نلمسه ٠٠ هذا ممنوع ابق انت هنا معه وسأذهب لابلاغ ناظر المحطة فى بارنتان ٠

ووضع المصباح بجانب الجثة وذهب بخطواته المتمهلة ٠

وعندما بقى جاك وحده ، ذهب يحدق فى الجثة الهامدة ٠٠ اذن فان الرجل الذى أبصره الرجل الذى كانت بيده المدية ، كان حقيقة واقعة ، وقد فعل فعلته ٠

احس جاك برغبة جامحة لتقليب الجثة والنظر الى الجرح الذى أحدثته الطعنة ، حين شعر بصوت قربه جعله ينتفض .. كانت فلور واقفة فوق رأسه تنظر الى الجثة .. كانت تستهويها دائما مشاهد الحوادث ، تسمع بمداهمة أى قطار لحيوان او انسان حتى تهرول للمشاهدة والتحرى ٠٠ ولم تلبث أن رفعت المصباح وانحنت فوق الجثة وادارت رأسها ٠

فقال لها جاك : ـ احترمى مما تفعلين ! يجب عدم اللمس حتى يصل البوليس ٠

فهزت منكبيها ٠٠٠ لقد سقط ضوء المصباح المصفر على وجه رجل عجوز ذى أنف كبير ، وكانت العينان مفتوحتين على سعتهما ، ومن أسفل الذقن انفتح جرح مخيف ، وكان جانب الصدر الايمن كله مخضبا بالدم ، وفى الجانب الاخر بدت شارة وسام جوقة الشرف ، وكأنها هى الاخرى قطعة دم انسكبت حول العروة .

قالت فلور :

ـ ياللعجب ! انه الرجل العجوز !

فانحنى جاك لكى يدقق النظر ، واختلط شعره

بشعرها . ولم يتمالك أن شهق مصعوقا بالمنظر الذى أمامه ، وردد كلماتها بطريقة آلية قائلا :

ــ الرجل العجوز ... الرجل العجوز !

ــ جرانموران العجوز ... القاضى !..

ووقفت برهة تنظر الى الوجه المكفهر، ذى الفم الملتوى والعينين المتسعتين المروعتين . ومالبثت أن تركت الرأس يسقط .. أن تيبس الموت بدأ يحل بالجثة ، وقد سقط الرأس على الارض مغلقا فتحة الجرح .

قالت الفتاة : ــ لا بأس .. لن يكون هناك عبث مع الفتيات الصغيرات بعد الان .. اراهن أن هذا له صلة بموضوع فتاة أيضا .. عندما أفكر فى لويزيت المسكينة .. ياللخنزير ! .. انه نال ما كان يستحقه !

خيم صمت طويل . . ووضعت فلور المصباح على الارض ووقفت تراقب جاك .. كانت الجثة بينهما، ووقف هو مشدوها بما شاهده ، وبعد الذى حدث فى مستهل المساء لم يرغب فى أن يتكلم اولا . ولكن أصوات ميزار وناظر المحطة بدأت تنبعث فى هذه اللحظة . وقالت فلور وهى لا تريد أن يراها أحد :

ــ الا تعود لكى تنام ؟

فنظر اليها ، غير متأكد مما يجيب به . ثم وماعتم أن ابتعد عنها وقال :

ــ لا ... لا ... لن أعود .

فلم تبد حركة ولكن كتفيها المهدلين شفا عن خيبة أملها . ثم قالت وكأنما تلتمس لنفسها العذر لانها استعصمت عليه فى أول الليل :

ــ الن تعود الينا نهائيا اذن ؟ الن اراك بعد الان ؟

ــ كلا .

وزادت الاصوات اقترابا . ولما كان قد بدا وكان جاك

جعل الجثة حائلا بينهما فانها لم تحاول ان تصافحه ولا حتى أن تودعه بطريقتها الصبيانية المعهودة وانما استدارت واختفت فى الظلام .

ووصل ناظر المحطة مع ميزار واثنين آخرين من رجال السكك الحديدية . وتعرفهو ايضا على الجثة .. كان هذا هو القاضى جرانموران ، مافى ذلك شك . انه كثيرا ماشاهده ينزل من القطار فى محطته فى طريقة لزيارة شقيقته فى دوانفيل. وقد غطى الجثة بحرملة جاءبهاأحد الرجال ، وأمر بتركها حيث هى . وكان قد أوفد رجلا الى روان لابلاغ المحقق ولكن ليس من المحتمل أن يصل قبل الخامسة أو السادسة صباح غد ، اذ لابد له من استقدام موظفين آخرين وطبيب . وهكذا رتب ناظر المحطة أن يتولى أحد الرجال حراسة الجثة طول الليل .

ذلك ومازال جاك واقفا يراقب مايجرى . ولما فكر بعد ذلك فى أن رجال القانون قادمون أقلقته مشاعر مبهمة قوامها التأثم والشعور بالتبعة ... هل ينبغى عليه أن يخبرهم بماشاهده عندما مر القطار أمامه ؟ كانت خواطره الاولى هى أن هذا واجب عليه . ومهما يكن فليس له ، ما يخشاه من هذا ، وهو على أية حال واجب محتم .. ومالبث أن ساءل نفسه أى جدوى من الكلام .. ؟ أنه لن يستطيع ابراز حقيقة واحدة محددة ، ولن يستطيع أن يقدم تفصيلا دقيقا عن القاتل ، ومن الغباء أن يورط نفسه فى الامر ، فيفقد ساعات عمل ، ويستهدف بشتى الانفعالات ، ولا يخدم أحدا .. كلا .. من الخير أن يمسك لسانه .

وأخيرا سار مبتعدا بخطى وانية ، ومرتين نظر خلفه الى مكان الجثة المكومة على الارض فى دائرة ضوء المصباح المصفر . وفى هذه الاثناء كان هواء بارد يسرى

فى الاقليم الموحش تحت سماء كساها الضباب • وكانت القطارات تمر غادية رائحة وهى تدرج بركابها الى وجهاتهم البعيدة مدفوعة بقواها الغلابة الدائبة ، لا يثنيها ولا يعنيها فى شيء أن تمددت قرب طريقها جثة رجل نصف مفصول الرأس قتله رجل آخر •



الفصل الثالث

فى صباح اليوم التالى ـ يوم الاحد ـ دقت ساعات الهاتف معلنة الخامسة عندما هبط روبو من مسكنه فوق استراحة المحطة لكى يباشر عمله • كان الوقت لا يزال مظلما وفى المحطة كانت أضواء غاز الاستصباح تلوح خافتة فى هواء بكرة الصباح البارد الرطب وكان القطار الاول المتجه الى مونتفييه يجرى اعداده تحت اشراف مولان ، زميل روبو فى الوردية الاخرى . وكانت أبواب المحطة لم تفتح بعد ، والارصفة خلو من الحركة •

وفيما كان روبو يخرج من غرفة لمح مدام لوبليه زوجة الصراف فى المشى الرئيسى الذى تطل عليه مساكن موظفى المحطة •• لقد ظلت مدام لوبليه مدى أسابيع وهى تستيقظ ليلا للتجسس على مدموازيل جيشون الموظفة فى المكتب اذ كانت ترتاب فى أنها على علاقة بناظر المحطة مسيو دباديه ، وان لم يتوافر لديها أقل دليل على ذلك • وفى هذا الصباح استطاعت مدام لوبليه فى غضون الثوانى الثلاث التى استغرقها روبو فى فتح باب غرفته واغلاقه خلفه ، استطاعت وهى فى دهشة أن تلمح سيفرين زوجة روبو مستيقظة ، بل مرتدية ملابسها أيضا ، مع أنه كان من عاداتها الا تستيقظ قبل الساعة التاسعة . وجدت مدام لوبليه فى هذه الظاهرة شيئا هاما يبرر أيقاظ زوجها . وكانا ملهوفين لمعرفة نتيجة استدعاء روبو أمام نائب مدير الشركة ظلا ساهرين ينتظران حتى موعد وصول قطار باريس السريع فى الساعة

الحادية عشرة وخمس دقائق ، بيد أنهما لم يعرفا شيئا ، فقد جاء روبو وزوجته وهما فى حالتهما العادية . وحتى منتصف الليل كانا يرهفان سمعهما دون طائل ، اذ لم ينفذ اليهما صوت من خلال الحائط الفاصل ولابد أن الزوجين أويا الى مضجعهما على الاثر .. ومع ذلك فقد بدا وكأن هناك شيئا ما ، بوجود مدام روبو مستيقظة ومرتدية ملابسها فى هذه الساعة غير المعتادة .. لا بأس .. لعل الساعات القادمة تكشف لهما عما هناك ..

وفى المحطة ذهب روبو لكى يخلف مولان فى الوردية ، فحدثه زميله عن مجريات العمل ، وجعل روبو ينصت اليه صامتا — وان بدا شاحب الوجه متثاقل العينين ، بتأثير احداث أمسه الطويل ولاشك .

وسار الرجلان معا على رصيف المحطة حتى وصلا الى المنطقة المكشوفة . وكان هناك الى اليمين حظيرة تودع فيها المركبات ليلا . وفى ضوء أحد المصابيح الغازية جعل روبو يحدق فى مركبة درجة أولى رقمها ٢٩٣ ، عندما قال له مولان فجأة :

— نسيت أن أقول لك أن هذه المركبة يجب الا تستخدم .. لا تلحقها بقطار السادسة والاربعين هذا الصباح .

فلم يستطع روبو أن يسيطر على حركة فجائية بدرت منه ، ولكنه سأل بصوت طبيعى :

— صحيح ؟ ولم لا ؟

— لانه مطلوب حجز مركبة كوبية مقفلة بقطار المساء ، ونظرا لاننا لا يمكن أن نتأكد من وصول مركبات أخرى اليوم ، فلابد لنا من الاحتفاظ بهذه المركبة .

فنظر روبيه الى مولان بهدوء واكتفى بأن قال: مفهوم.

وعمد روبو الى تغيير موضوع الحديث تماما ، فقال مهتاجا :

— انه لشىء يثير الاشمئزاز أن يهمل هؤلاء الاوغاد نظافة المركبات .. ان هذه المركبة تبدو وكأنها لم تنظف منذ أسبوع .

فقال مولان : — نعم .. فعندما تصل القطارات بعد الحادية عشرة مساء ، لا توجد فرصة لتنظيفها ، وانها لمكرمة اذا تفضل عمال النظافة بالتعطف عليها بنظرة . ومنذ ليلتين فقط استغرق أحد المسافرين فى النوم ، ولم يلاحظه أحد ولم يستيقظ الا فى الصباح !

وتثاءب مولان ثم قال :

— لا بأس .. أنا ذاهب للنوم .. الى اللقاء .

ولما صار روبو وحده على الرصيف اتجه الى قطار مونتفييه . فى هذا الوقت كانت الاستراحة قد فتحت ، وأخذ المسافرون يتوافدون . وانهمك روبو ساعة كاملةفى الاشراف على قيام القطار الاول ، والقطارات التى تتابعت بعد ذلك ، فلم يجد وقتا للتفكير فى شىء آخر حتى كانت الساعة السادسة ، حين هدأت الحركة، وخرج فترة الى الشارع يستنشق الهواء النقى ملء رئتيه .

لقد بدأ النهار يطلع ، وأخذت مداخن المصانع تنفث دخانها ، وسرى دبيب الحركة والنشاط آتيا من ناحية أرصفة الميناء . ولكن سرعان ما فارقه هدوؤه عندما عاد الى داخل المحطة ووجدهم يحركون المركبة رقم ٢٩٣ ، فصاح فى العمال غاضبا :

— دعوا هذه المركبة بالله ! دعوها وشأنها .. انها لن تسافر الا فى المساء !

فبين له رئيس العمال أنهم يحركونها فقط للوصول الى المركبة التى خلفها ، ولكنه لم يستمع لهم فى نوبة السخط

التى انتابته ، اذ صاح :

ــ يامغفلين ، ألم يقل لكم أحد ألا تلمسوها ؟

وعندما استطاعوا أن يفهموا الموقف أخيرا ، نقل سخطه الى نظام العمل وتخبط الموظفون ، حتى لقد عجبوا من تغير حالته اليوم ، وهم الذين لم يعهدوه من قبل بمثل هذا الاهتياج ·

على أنه عاد بعد ذلك الى السيطرة على أعصابه ، وانهمك مرة أخرى فى الاشراف على حركة القطارات حتى كانت الساعة الثانية ، وجاء مسيو دباديه ناظر المحطة فى موعده المعتاد ، فأطلعه روبو على حركة العمل ·

كان دباديه شابا وسيما أنيق الملبس ، وهو فى مظهره أقرب الى رجال الاعمال · وكان يحب أن يكل شئون المسافرين الى مساعديه الاثنين ، لكى يتفرغ هو الى حركة نقل البضائع الضخمة من أرضية الميناء ، لما يهيىء له هذا العمل من توثيق الصلات بعالم التجارة العليا ·

واسترعى نظر روبو برقية على مكتب الناظر فيما بين أوراق العمل ، فلم يتكلم حتى يتيح له فرصة فتحها والاطلاع على مضمونها · لكنه لم يكن متعجلا ، ولبث برهة يتحدث مع روبو فى مودة مطمئنا منه على ما انتهى اليه موضوع استدعائه بالامس أمام نائب المدير ، بينما كان روبو فى خلال ذلك يجاهد للسيطرة على اختلاجة عصبية فى فمه ، وقال له دباديه :

ــ أنت تعرف أنه يسرنا أن تبقى دائما معنا هنا ·

ــ وأنا مسرور أكثر ببقائى معك ياسيدى ·

وعندما قرأ ناظر المحطة البرقية كان هناك عرق يسير على وجه روبو . ولكن رد الفعل الحاد الذى كان ينتظره لم يحدث . فان الناظر بعد أن قرأ البرقية تركها جانبا ، والظاهر انها لم تكن بذات أهمية ، ومضى روبو فى اطلاع

الناظر على حركة العمل حتى صرفه فى النهاية ·

كانت الساعة الآن الثامنة وخمسا وثلاثين دقيقة ، ولم يكن أمام روبو من عمل حتى موعد وصول قطار الساعة التاسعة والخمسين . فأخذ يتجول هنا وهناك وهو شارد الفكر ، لايدرى على وجه التحديد أين يذهب ولا ماذا يفعل ، عندما القى نفسه فجأة أمام المركبة رقم ٢٩٣ مرة أخرى · فتحول عنها من فوره الى حظيرة القاطرات ، وان لم يكن ثمة عمل يعنيه هناك ·· كانت الشمس تبزغ فى السماء ، وامتلأ الهواء بغبار ذهبى دقيق ، لكن بهاء الصباح لم يعد يطيب له ، فاستحث خطواته محاولا ملء فترة الانتظار بالعمل ، أو التظاهر بالعمل ·

وفجأة ناداه صوت :

ــ صباح الخير يامسيو روبو ! هل رأيت زوجتى ؟

كان بيكيه الوقاد ، زوج فكتوار العجوز ، وهو رجل متين البنية فى الثالثة والاربعين ، أحمر الوجه يخالطه غبار الفحم ، له ضحكة رجل يستمتع بدنياه ·

قال له روبو : ــ هذا أنت يا بيكيه ! نعم ، طبعا ، نسيت ان قاطرتك وقع لها حادث ، أليس كذلك ؟ واجازة اربع وعشرين ساعة .. فرصة طيبة !

فقال الرجل ومازالت به بقية من سكرة الليلة الماضية ·

ــ الحقيقة أنى تمتعت بوقتى ·

كان بيكيه يهدف فى حياته الى أن يرتقى من وقاد الى سائق قطار ، ولكن فوضى معيشته وادمان السكر والجرى وراء النساء حالت جميعا دون تحقيق هدفه · بل كان يمكن أن يفقد عمله لولا رعاية القاضى جرانموران له ، واعتياد الجميع لمساوئه التى عوضها بروح المودة وطول خبرته فى العمل . وهو لم يكن بغيضا الا عندما يكون

سكرانا ، وفى هذه الحالة كان يميل الى العنف ٠
وسأل مرة ثانية ووجهه ينبسط بابتسامة عريضة :
ــ وزوجتى ؟ هل رأيتها ؟
فأجاب روبو : ــ نعم ، ووجدناها على ما يرام ٠ بل اننا تناولنا الغداء فى حجرتكم هناك ٠٠ انها كريمة طيبة القلب يا بيكيه ! ٠٠ وقد حان الوقت لكى تصبح زوجا مخلصا لها !
فقال بيكيه ضاحكا : ــ ربما كنت على حق ٠٠ لكن الفتاة المجوز هى التى تريد منى أن أفعل ما أفعل !
وكان هذا صحيحا . فان فكتوار البدينة الطيبة التى كانت تكبره بعامين ، كانت تتحفه بالنقود لكى يمتع نفسه حيثما يشاء ٠ والان قد أصبحت حياته مرتبة أتم ترتيب ، بعد ان صارت له امرأة عند نهايتى الخط ٠ وكانت فكتوار التى تدخر ولا تنفق على نفسها الا القليل ، تعرف كل شيء ، وتعامله كأم ، وتقول انها لا تريد أن تضايقه عندما يذهب الى امرأته الثانية ٠ بل كانت عند ذهابه تحرص على أن تعطيه قميصا نظيفا ، اذ كان يحزنها أن تتهمها المرأة الاخرى فى الهافر بأنها لاتعنى (برجلهما) كمـــا يجب ٠
قال روبو ردا على كلامه :
ــ واذا صح أنها تفعل هذا ، فانه ليس من الصواب ٠ أنت تعرف أن زوجتى تحب فكتوار جدا وهى ساخطة عليك من أجلها !
وصمت روبو عندما رأى فيلومين ، المرأة المعنية ، خارجة من المخزن ٠٠ كانت طويلة مسطحة الصدر ، ذات وجه مستطيل وصوت كصهيل الفرس ٠ وكان يقال انها تعاقر الشراب ٠ وكانت حجرتها الصغيرة قرب حظيرة القاطرات معروفة لكل موظفى المحطة . وقد تشاجرت

معها سيفرين من باب المجاملة لفكتوار ، وكانت تتجاهلها عندما التقت بها ٠
ولم تلبث أن قالت فى قحة :
ــ أراك فيما بعد يا بيكيه . سأتركك مع مسيو روبو ، لان عند زوجته الكثير من النصائح والمواعظ لك ٠
قال بيكيه وهو يضحك ضحكته القلبية :
ــ لا ٠٠ لاتذهبى ٠٠ انه يمزح فقط
ــ لا يمكن أن أنتظر ٠٠ معى بيضتان سأعطيهما لمدام لوبليه ٠
انها تعرف العداء المستحكم بين سيفرين ومــدام لوبليه ، وقد ذكرت اسم هذه الاخيرة عمدا ، وكانت تجاهر دائما بعلاقتها الودية مع مدام لوبليه زوجة الصراف لكى تغيظ سيفرين ٠
على انه بعد ذهابها غير روبو موضوع الحديث قائلا:
ــ اذن لن تسافر قبل هذا المساء ؟
ــ نعم ٠٠ ان القاطرة ليزون لن يتم اصلاحها قبل ذلك . انهم يعملون الان فى عمود الربط ، وأنا فى انتظار سائقى الذى سافر فتــرة الاجازة ٠٠ هل تعــرف جاك لانتييه ؟
كان روبو يفكر فى شيء آخر ، لكنه تمالك فجــأة وأجاب :
ــ جاك لانتييه السائق ؟ نعم أعرفه ، ولكن عن طريق التحية فقط ٠٠ يقولون أنه ماهر فى عمله ٠٠ والان الى اللقاء يابيكيه اذ لابد لى من الاشراف على أشياء كثيرة ٠
كانت الساعة تدق مؤذنة بالتاسعة وهو يعود الى داخل المحطة ، وسار حتى مكتب البضائع وهو يتلفت حوله طول الوقت وكأنه يبحث عن شيء ، على انه ما لبث أن عاد أدراجه وراح يسير فى الاتجاه المضاء وهو يتطلع

الى جميع الاتجاهات . في هذه الساعة كانت المحطة ساكنة هادئة ، والناس من حوله قليلون ،والشيءالوحيد الذي لم يكن ساكنا ولا هادئا هو نفسه .. ان هذا الهدوء غير العادي كان يثقل على أعصابه ، واذا كان«الكشف عن الاوراق» مقدرا أن يأتي فليأت بالله سريعا .. انه لا يستطيع أن يسيطر على أعصابه .. ان عينيه لم تفارقا ساعة المحطة قط . وكان من عادته أن ينتظر حتى قطار التاسعة والخمسين قبلما يصعد الى مسكنه لتناول وجبته الاولى ، ولكنه اليوم وهو يعلم أن سيفرين أيضا جالسة على الجمر ، فقد اعتزم أن يصعد اليها مباشرة .

في نفس هذه اللحظة بلا تقديم ولاتأخير،كانتمدام لوبليه تفتح باب غرفتها عند حضور فيلومين بالبيضتين . وقد مر بهما روبو مسرعا والمفتاح في يده وهما تحملقان به صامتتين . وفيما هو ينسل بسرعة من باب مسكنه لمحتا سيفرين جالسة في مقعدها وهي تبدو شاحبة، ويداها مشبكتان في حجرها .

كانت الخصومة المتزايدة بين أسرتي لوبليه وروبو عن المساكن . فان الطابق الاول كله فوق استراحة المحطة كان مخصصا لسكنى الموظفين . كان في وسطه ممشى واسع مدهون باللون الاصفر كما في الفنادق . تفتح على جانبيه أبواب بنية اللون . وكان الفارق الكبير هو أن الغرف التي على الجانب الايمن ذات نوافذ تطل على أشجار الدردار العتيقة في حوش المحطة ، ومن خلال الاشجار يبدو مشهد جميل للطبيعة فيما وراء تلال أنجوفيل . أما الغرف التي على الجانب الايسر فكانت نوافذها المقبوة تطل على سقف المحطة ذي الحديد المجلفن والزجاج المتسخ ، الذي يحجب الرؤية تماما . وما من

شيء كان يبدو مبهجا أكثر من الجانب الاول ذي الحركة المتصلة في فناء المحطة ، والاشجار المخضرة ، والريف الطلق . وبنفس القدر ما من شيء كان يبدو مقبضامميتا أكثر من الجانب الثاني ، حيث لا يكاد ينفذ ضوء النهار، ولا يبين من السماء سوى رقعة صغيرة ، وكأنه سجن . كانت أسرة لوبليه تشغل الجانب المبهج ، حيث كانت أسرة روبو أولى بهذا الحق ، وقد ظلت الامور حينا تسير هينة رفيقة ، ولم تنفس سيفرين على جارتها أن تستأثربالجانب المبهج وأن تكون لها الاولوية ، من كانت تكبرها بعشرين عاما ، وكانتمعتلة الصحة . وما كانتالحرب لتعلن بين الاسرتين الا نتيجة لثرثرة فيلومين ، وكانت في هذه اللحظة بالذات تقول لمدام لوبليه :

ـ هل تعرفين أنه كان من السهل جدا عليهم أن يحاولوا القاءك من مسكنك عندما كانوا في باريس ؟ قيل لي أنهم كتبوا رسالة طويلة الى المدير متمسكين بحقهم .

فقالت مدام لوبليه وهي تكاد تختنق :

ـ أولاد الشياطين ! أنا متأكدة أنهم يفعلون كل ما في وسعهم لضم فتاة المكتب جيشون الى صفهم ايضا.انها لا تكلف خاطرها للسلام على هذه الايام الاخيرة .. هذا شيء جميل في الحقيقة ، أليس كذلك ؟ لكنني أراقبها .. وسوف ترين .

ثم خفضت صوتها لتقول لفيلومين أنها متأكدة أن ناظر المحطة يزور جيشون كل ليلة .. ان مسيو دباديه الارمل الذي له ابنة بعيدة في المدرسة الداخلية هو الذي جاء بهذه المرأة الشقراء ذات الثلاثين ربيعا للعمل هنا . ومهما يكن من حقيقة أمرها فان من المستحيل ضبطها لانها رواغة متملصة كسمكة . ولو كانت وحدها لما كانت لها أهمية تذكر.ولكن بعلاقتها مع ناظر المحطة فانها تكتسب طابع

الاهمية ، والشىء الاساسى هو ضبطها متلبسة ·· وعندئذ تصبح تحت رحمتهم ·

وقالت مدام لوبليه تؤكد عزمها :

ـ سوف أكشف سرها فى النهاية ، وسوف ترين · اننى لن أسكت على الضيم أمام أى انسان ·· نحن هنا ، وسنظل هنا ·· ان جميع الاشخاص الذين لهم وزن هم فى صفنا ، أليس كذلك يا عزيزتى ؟

والواقع أن كافة العاملين فى المحطة كانوا يجدون طرافة كبرى فى هذه الخصومة الحادة المزمنة حول موضوع السكن ، وكانوا ينقسمون منحازين ، وخاصة اولئك الذين يقيمون فى نفس الممشى · وكان الاستثناء الوحيد فى هذا هو مولان المساعد الثانى لناظر المحطة ، الذى كان متزوجا امرأة منطوية على نفسها تنجب له مولودا كل عشرين شهرا أو نحو ذلك · وعلى أية حال قد كانت غرفته فى الجانب المبهج ، وهكذا كان سعيدا خلى البال .

وقالت فيلومين فى الختام :

ـ لكن تذكرى هذا ·· ان روبو وزوجته لهما أصدقاء ذوو نفوذ ، كما نعلم جميعا ، أليس كذلك يا عزيزتى ؟

وشفعت هذا بأن قدمت البيضتين الى مدام لوبليه، قائلة أن الدجاج باضهما هذا الصباح فقط ، فشكرتها العجوز بسخاء ، واختتمت هى الاخرى قائلة :

ـ لماذا لا تأتين أوقاتا أكثر لكى نتبادل الحديث ؟ أنت تعرفين أن زوجى يبقى طويلا فى مكتبه ، وأنا لا أستطيع التنقل بسبب حالة ساقى · يعلم الله ماذا يكون حالى اذا انتزع أولئك الملاعين هذا المنظر منى !

وفى الساعة التاسعة والعشرين هبط روبو الى المحطة مرة أخرى للاشراف على حركة القطار التالى · ورغم

تصميمه على تمالك أعصابه قد ألفى نفسه يلوح بيديه كثيرا ، ويروح ويغدو ويتلفت على الدوام محدقا هنا وهناك على الرصيف . لكن مادام لا يحدث شىء ·· ثم فجأة حدث شىء .. فمن خلفه ، سمع صوت أحد عامل التلغراف يقول لاهثا :

مسيو روبو هل رأيت الناظر أو الملاخظ فى أى مكان معى برقيتان لهما وانى أبحث عنهما منذ عشر دقائق .

فالتفت روبو وهو متصلب الى حد انه لم تختلج عضلة واحدة فى وجهه ورأى البرقيتين فى يد عامل التلغراف ومن ملامح الرجل عرف أن الازفة أزفت أخيرا والقدر وقع على أنه قال بهدوء :

آه مسيو دباديه .. نعم انه كان هنا منذ بضع دقائق .

الان وقد جاءته الازمة فانه لم يكن فى وقت ما أصفى ذهنا ولا أوفر ثقة .

ـ أنظر ها هو ذا مسيو داباديه قادم !

واقترب ناظر المحطة ، وقرأ البرقية الموجهة اليه ثم هتف :

ـ انها من المفتش فى روان ·· هناك جريمة قتل على الخط

فقال روبو : ـ لعله ليس واحدا من رجالنا ؟

ـ لا ·· انه احد المسافرين ·· ان الجثة القى بها من على شريط عند نفق ماهونى · انه احد اعضاء مجلس ادارة شركتنا ، واكثر من هذا وهو القاضى جرانموران ·

فقال روبو : ـ القاضى ! رحماك يا الهى ! ·· ان زوجتى سوف تنزعج بصورة شنيعة عندما تسمع الخبر ··

لقد بدا شديد الانشغال الى حد أن دباديه نظر اليه ثم قال :

ـ نعم · بالطبع ·· انتم تعرفونه · · انه شخص طيب جدا ، اليس كذلك ؟

والتفت الى البرقية التى كانت موجهة الى ملاحظ بوليس سكة الحديد ، وقال :

ـ لابد ان هذه البرقية مرسلة من المحقق ، بشأن الاجراءات المعتادة ولا شك · ولما كانت الساعة هى التاسعة والنصف فقط ، فان مسيو كوش ليس هنا بالطبع ·· ارسلوا احدا الى اكافيه دى كويرس لكى يستدعيه · · انه موجود هناك مؤكدا ·

ووصل مسيو كوش بعد خمس دقائق ، كان ضابطا سابقا فى الجيش ، وكان يعد وظيفته الحالية من قبيل وظائف المعاش ·· ولم يكن يظهر فى المحطة قبل العاشرة ، وعندما يحضر كان يتجول فيما حوله قليلا ثم يعود الى المقهى· ولكن هذا الاستدعاء الذى جاءه بين دورين من لعب الورق ، كان مفاجأة شديدة له ، لان اكثر الحالات التى كان يباشرها كانت موضوعات تافهة ·

اجل ·· كانت البرقية من قاضى التحقيق لاشك فى ذلك · وفى الحال ذهب عنه الاستياء الذى انتابه اول الامر لاقلاقه على هذه الصورة ، وحل محله اهتمام بالغ يليق بما للقضية من خطورة غير عادية · ثم تملكته فكرة مخيفة فجأة : ان المركبة موضوع التحقيق لابد انها غادرت الهافر قبل الان ، واذن فان التحقيق سوف يفلت من يديه اخر الامر ·

لكن روبو طمأنه قائلا :

ـ لا · انها لا تزال موجودة فى المخزن · ان عربة كوبيه خاصة قد طلب حجزها لهذا المساء · وهى هناك ·

وتقدم والباقون يتبعونه ، وكان النبأ قد انتشر الان واخذ موظفو السكة الحديدية ينسلون من اعمالهم لكى

يشاهدوا ما يحدث ، وسرعان ما احتشد جمع كبير ·

وعندما وصلوا الى المركبة قال مسيو دباديه :

ـ المفروض انها فحصت فى الليلة الماضية ، ولو كانت توجد بها آثار لابلغوا عنها

فقال كوش : ـ سوف نرى فى الحال

وفتح باب المركبة وصعد اليها . وما لبث أن هتف مجفلا :

ـ يا الهى ! يكاد الانسان يظن أن خنزيرا قتل هنا !

فسرت موجة من الهلع فى المشاهدين واستطالت الاعناق لكى تبصر ، وارتقى مسيو دباديه سلم المركبة بينما دفع روبو رأسه الى الامام ليبدو مثل الباقين .

وفى داخل المقصورة لم يتغير شىء : كانت النوافذ مغلقة ، وبدا كل شىء فى موضعه الملائم · ولكن رائحة مخيفة كانت تنبعث من الباب المفتوح ، وفوق احدى وسائد المقعد تجمدت بركة من الدماء . كانت غزيرة الى حد أن جانبا منها انسكب فوق البساط :

قال ناظر المحطة غاضبا :

ـ اين الرجال الذين قاموا بالفحص فى الليلة الماضية ؟ احضروهم الى هنا فى الحال !

ولكنهم كانوا بين الموجودين ·· وقد تقدموا نحوه وهم يغمغمون معاذيرهم ·· لا يستطيع احد ان يرى جيدا فى الليل ·· انهم تحسسوا الوسائد وفتشوا فى كل مكان ، وبوسعهم ان يقسموا انه لم تكن ثمة رائحة هنا فى الليلة الماضية ·

وكان كوش فى داخل المقصورة يدون مذكراته . وما لبث أن نادى روبو الذى كثيرا ما دخن معه سيجارة على رصيف المحطة عندما لم يكونا مشغولين .

ـ هل تأتى الى هنا لحظة يا مسيو روبو ؟

فخطا روبوفوق البساط حتى لا يسير فوق بركة الدم ، بينما قال له كوش :

ـ يا مسيو روبو .. ألم يكن هذا هو القطار الذى عدت فيه من باريس ؟ ربما كان بامكانك أن تخبرنا شيئا عن الموضوع ؟

فلم يجب روبو بضع ثوان .. انحنى لكى ينظر الى البساط مرة اخرى . ثم اعتدل وقال بصوته الطبيعى ، الاجش النبرات :

ـ نعم . سأقول لك .. كانت زوجتى معى . واذا كان ما أقوله سوف يظهر فى التقرير الرسمى ، فأظن أن الافضل ان تحضر معنا لكى نراجع انطباعاتنا معا ،

بدأ هذا الطلب معقولا فى نظر مسيو كوش،وقد تطوع بيكيه ، الذى وصل منذ هنيهة ، بأن يذهب لاستدعاء مدام روبـو .

وجاءت سيفرين تبدو عليها أمارات الهدوء .. وكان عليها ان تتقدم مسافة فوق الرصيف والانظار تراقبها ، بيد أنها لم تضطرب .. كانت ممسكة بمنديلها الى عينيها ، لتبدى عميق حزنها على المتوفى الذى كان بالغ الكرم حيالها . وكان شعرها الاسود يلمع فى ضوء الشمس ، اذ انها رغم البرد لم تنتظر لوضع قبعة على رأسها .. وكانت صورتها مؤثرة حين بدت وعيناها الزرقاوان الرقيقتان مفعمتان حزنا والدموع تتـلالا فيهما .

وهنا همست فيلومين فى أذن مدام لوبليه :

ـ لاغرابة انها تبكى ! ان ورطتها ستكون كبيرةبموت راعيهما المحسن !

ووقفت سيفرين فى وسط الحشد تواجه باب المقصورة المفتوح ، فخرج كوش مع روبو الذى بدأ يذكر مايعرفه:

ـ حالما وصلنا الى باريس صباح امس ذهبنا لمقابلة مسيو جرانموران . اليس كذلك ، يا عزيزتى ؟ حوالى الحادية عشرة والربع ، ألم يكن كذلك

ونظر اليها بامعان فراحت تكرر بهدوء :

ـ نعم . الساعة الحادية عشرة والربع .

ولكنها لمحت الوسادة المخضبة بالدم ، فـارتجف صوتها ، وانفجرت باكية . وقد تأثر ناظر المحطـة ببكائها ، فسارع بالتدخل قائلا :

ـ سـيدتى اذا كان كل هذا كثيرا عليك .. اننـا فى الواقع نقدر عظيم حزنك

فقال ملاحظ البوليس : ـ اننى اود ان اسمع من السيدة بضع كلمات اذا امكن ، ثم نوصلها بعد ذلك الى حجرتها

واسترع روبو يروى قصته ، قائلا :

ـ اننا تحدثنا فى هذا الموضوع او ذاك ، ثم اخبرنا مسيو جرانموران انه سيسافر اليوم للاقامة عندشقيقته فى دوانفيل . وعندئذ سمع أننا سنغادر باريس مساء الامس ، وأبدى انه سيسافر معنا ويأخذ زوجتى للاقامة عند شقيقته فى دوانفيل بضعة أيام ، كما كانت تفعل من قبل، لكنها كانت مشغولة بجملة اشياء ، ولذلك قالت له انها لا تستطيع ذلك .. اليس هذا صحيحا يا عزيزتى ؟

ـ نعم . قلت له انى لا استطيع الذهاب

ـ وهكذا سافرنا مساء أمس ، وقبل ان اركب القطار تبادلت بعض الحديث مع مسيو فاندرب ناظر محطة سان لازار ، ، ولم اشاهد شيئا خارجا عن المألوف . وقد تضايقت لانى كنت اظن اننى وزوجتى وحدنا فى المقصورة

ثم وجدنا سيدة جالسة فى الركن . وبعد ذلك صعد فى آخر لحظة رجل وزوجته وفى محطة روان نزلنا لاراحة ارجلنا . فمن ذا الذى شاهدناه عندئذ ؟ انه لم يكن سوى مسيو جرانموران واقفا بباب مقصورة تبعد عن مكاننا بثلاث او أربع مركبات وتحدثتمعه وبدأ يقول لى أنه تلقى برقية عاجلة . لكن الصفارة انطلقت ، وكان علينا أن نعود الى مقصورتنا ، والواقع كنا وحدنا فى ذلك الوقت ، بعد ان نزل المسافرون الآخرون ، وهو ماطاب لنا .. هذا كل شيء ، اليس كذلك ياعزيزتى ؟

ـ نعم .. هو كل شيء .

ان هذه القصة الصريحة تركت اثرها فى المستمعين . وعندئذ قال ملاحظ البوليس :

ـ هل انت متاكد انه لم يكن هناك احد فى المركبة مع جرانموران ؟

ـ نعم . كل التاكد

سرى بين الحشد دبيب قلق .. ان هذا يبدو غريبا فى الواقع . اذا كان الرجل العجوز وحده ، فمن ذا الذى امكنه ان يقتلهويلقى جثته منالقطار بعد مسافة تبلغ نحو ثمانية أميال ؟

غمغم مسيو كوش قائلا : ـ شيء غير عادى .

وقال مسيو دباديه : ـ غير عادى جدا .

كان الجميع يتطلعون الى روبو .. كانوا يتوقعون بيانات اوفر .. بعض تفاصيل منسية يمكن ان تلقى الضوء على القضية .. لم يكن ثمة ادنى اتهام فى ملامح جميع هذه الوجوه ، ومع ذلك توهم وجود بوادر ارتياب غامض ، ذلك النوع من الارتياب الذى يتوقع ان تتحول به احيانا نقطة تافهة الى حقيقة مؤكدة .

واستطرد روبو يقول بعزم :

ـ وشيء آخر انا متاكد منه ، هو ان القطار السريع الذى لا يتوقف فيما بين روان وبارنتان كما تعلمون ، كان يسير بسرعته الطبيعية ، ولم الاحظ شيئا خارجا عن المعتاد .. ولما كنا وحدنا فانى انزلت النافذة وانا ادخن سيجارة .. وكنت أنظر منها طول الوقت. ولم أسمع شيئا غير عادى .. مجرد جلبة القطار .. وفى محطة بارنتان رأيت مسيو بسيير الذى حل محلى ناظرا للمحطة هناك ، وقد جاء الى ناحيتى وتبادل معنا بضع كلمات .. أليس كذلك يا عزيزتى ؟ انا واثق أن مسيو بسيير سوف يؤيد هذا اذا فكرت فى سؤاله .

فقالت سيفرين وهى شاحبة وجامدة :

ـ نعم . يمكن ان يقول ذلك .

لا بأس مادام هناك من شاهدهما فى المقصورة فى محطة بارنتان ، فمن المحتمل ان يرتاب فيهما احد .. ان ظلال الشك التى توهم روبو انه لمحها فى اعين الواقفين قد تلاشت ، ولكن حيرتهم زادت فان القضية يشتد غموضها . وعاد ملاحظ البوليس الى الكلام ، فقال :

ـ هل انت متاكد تماما من انه لا يمكن لاحد دخول مقصورته فى روان بعد ان تركته ؟

وهنا رأى روبو عينى زوجته تتسعان كانما من قبيل التحذير فراح يقول :

ـ حسنا .. لا يمكننى ان اجزم بهذا ، طبعا .. اظن انه كان بوسع احدهم ان يدخل .. ان مسافرين كثيرين كانوا فى القطار لحضور الاحتفال بتدشين الباخرة الجديدة هنا فى الهافر .. وكان ركاب الدرجتين الثانية والثالثة يحاولون الدخول الى مقصورتنا .. كان هناك صياح وزحام كثير والاضاءة فى محطة روان خافتة سيئة .. وانى الان عندما افكر فى الموضوع ، فاظن انه

من الممكن ان احدهم دخل فعلا فى آخر لحظة ٠٠ اظن ان هذا هو الذى لابد قد حدث .. أليس كذلك يا عزيزتى ؟

كانت سيفرين تكفكف عينيها بمنديلها ، وبدا أنها مقهورة حزنا وأسى ٠٠ فهمست :

ـ نعم ٠ لابد ان هذا هو الذى حدث ٠

لا بأس ٠٠انهم الان فى أثرشىء ملموس ٠٠ ان ملاحظ البوليس وناظر المحطة تبادلا نظرة معنوية ٠٠ وبدأ الجمع يتململ وقد رأى الاستجواب يصل الى نهايته ، وجرى تكوين الاراء ومناقشتها ، فكان لكل واحد نظريته الخاصة ، وبلغ من شدة استغراق موظفى المحطة فى هذه المأساة أنهم انصرفوا عن العمل حتى توقف تماما وعندما أقبل قطار التاسعة والنصف ينفث دخانه فاجأهم مفاجأة كبيرة ٠

وكان بيكيه الوقاد الواقف منتعشا بين مدام لوبليه وفيلومين هو اول من شاهد سائقه جاك لانتييه ينزل من القطار ٠ وقد وقف يراقب الجمع ، فلوح له بيكيه واومأ اليه ان يقترب فسأل :

ـ ماذا جرى ؟

كان بالطبع يعرف تمام المعرفة .. انه لم يكد ينصت الى قصة الجريمة والنظريات التى ذهبت تدور حولها ٠٠ ان ما ادهشه واقلقه هو ان يجد نفسه فى صميم التحقيق وان يرى مرة ثانية المركبة التى مرقت أمامه فى الليل لقد انحنى لكى يستجلى بنظرة ادق الدم المتجمد على الوسادة ٠ انه رأى مرة ثانية فى خياله الجريمة وقبل كل شىء الجثة ملقاة قرب الشريط الحديدى مطعونة الرقبة ٠ ثم استدار فى مكانه ولمح روبو وزوجته ، انه كان يعرف الزوج معرفة يسيرة ، اذ كانا يتلاقيان احيانا عندما يتولى قيادة القطار السريع ، وكان يشاهد الزوجة بين

وقت وآخر ويتجنبها ، لنفس السبب المروع الذى جعله يتجنب غيرها من النساء ٠ والان لم يتمالك ان فكر كم تبدو جميلة وهى فى حزنها ، بعينيها المروعتين اللتين اشتدت زرقتهما تحت شعرها الاسود ٠

وكان بيكيه ماضيا فى سرد قصة الجريمة له ، ولكن جاك لم يلبث ان قاطعه قائلا :

ـ انا اعرف ٠٠ ! انى كنت عند طرف النفق فى الليلة الماضية ، واعتقد انى شاهدت شيئا بينما كان القطار يمر

لدى هذا الكلام حدثت ضجة هائلة ، وتجمع الناس من حوله ، حتى لقد دهش ، بل انزعج مما ذكره لتوه .. لماذا تكلم بعد أن كان قد استقر عزمه على اغلاق فمه ؟ كان هناك كل سبب معقول لالتزام الصمت ، ومع ذلك فان الكلمات انفلتت منه وهو واقف يراقب تلك المرأة ٠٠ والان لم تلبث هى أن أبعدت المنديل والتقت عيناها الواسعتان بعينيه ٠

واسرع اليه ملاحظ البوليس وقال له :

ـ ما هذا كله ؟ ما الذى شاهدته ؟

فراح جاك ، وسيفرين تراقبه طول الوقت : يحكى ما ظن انه شاهده : المقصورة المضاءة تمر امامه كالسهم ، والرؤية الخاطفة لجانب وجهى الرجلين ، احدهما ملقى على ظهره ،والثانى ممسك بمدية ٠٠ ذلك وقد وقف روبو بجانب زوجته ، ينصتان ٠

قال ملاحظ البوليس :

ـ اذن فيمكنه أن يعرف القاتل ؟

ـ آه ، كلا ٠ انا لا ادرى فعلا كيف يمكننى هذا ٠

ـ حسنا ٠ ماذا كان يلبس ؟

ـ لم يمكننى أن أتأكد ، لابد أن القطار كان يسير بسرعة خمسين ميلا فى الساعة ،كما تعرف ٠

فتبادلت سيفرين نظرة سريعة مع روبو ، الذى عالج ان يقول :

ــ نعم • لابد انتكون لك عينان حادتان ليمكن ذلك !

وقال مسيو كوش : ــ لا بأس انها مسألة خارجة عن الارادة ومع ذلك فان هذه شهادة هامة • ان قاضى التحقيق سوفت يكون له ولا شك كلام أكثر فى هــذه النقطة هل لى يامسيو روبو ومسيو لانتيه أن أعــرف اسم كل منكما بالكامل •

• • •

الفصل الرابع

بدأ التحقيق الرسمى فى قضية جرانموران فى أوائل شهر مارس • وقد استدعى مسيو دنيزيه قاضى التحقيق الشهود الرئيسيين الى مكتبه فى محكمة روان •

ولقد أحدثت هذه القضية طيلة الاسابيع الثلاثة الماضية ضجة كبرى ، لا فى روان فحسب ، بل كذلك فى باريس • واستخدمت صحف المعارضة القضية وقودا فى الحملة التى كانت تشنها ضد الامبراطورية • وانتشرت قصص كثيرة ذات طابع غير عادى • وكانت الصحف تصدر كل صباح حافلة بالتعريض الضار بسمعة الحكومة • وكان من بينها التلميح بأن الضحية ــ وهو قاض سابق ، ومليونير ، وحامل وسام جوقة شرف ، ومن بين الذين يستقبلهم البلاط ــ كان منغمسا فى فجور شنيع مقزز • وأشارت صحف أخرى الى الرجل المجهول الذى لم يعثر له على أثر والمظنون بأنه مرتكب الجريمة ، وتساءلت ان كان حقيقة له وجود • واتهمت البوليس والقضاء بالقصور والتراخى • ومع أن كثيرا مما نشر كان له أساس من الحقيقة ، فان الامر لم يكن مما يسهل احتماله •

وأدرك مسيو دنيزيه ، وهو على تمام العلم بالموقف ، جسامة التبعة وعظم المسئولية اللتين يتعين عليه احتمالهما • وكان أكثر من ذلك تلهفا لمعالجة القضية بصورة موفقة فقد كان رجلا طموحا ، وهذه لا شك هى الفرصة التى ظل ينتظرها ــ الفرصة لاظهار أعلى قدر من النشاط وحدة الذهن اللذين يعتقد أنهما موفوران لديه •

وفى ذلك اليوم ، فى المحطة ، انفض جمع المشاهدين ، وتفرقوا عائدين الى أعمالهم،وكان على روبو أنيسرع، فان المسافرين كانوا يصعدون الى قطار التاسعة والخمسين، وقد صافح جاك بقوة أكثر من المعتاد ، وابتعدت مدام لوبليه وفيلو مين وبيكيه وهم يتهامسون فيما بينهم • ولما وجد جاك أنه أصبح وحده مع سيفرين ، شعر أن عليه أن يرافقها فى المحطة حتى سلم مسكنها ، ولم يستطع أن يفكر فى شيء يقوله لها ، ولكن بداالا ن أن هناك نوعا من الارتباط قام بينهما • وعندما ترك سيفرين فى النهاية ، التقت عيناه بعينيها مرة أخرى ، وقد وجد فيهما نفس نظرة الخوف والاستعطاف الرقيقة التى حركت قلبه من قبل •



وفى خلال ذلك تم القبض على بعض الاشخاص ، ولكن المشتبه فيهم أخلى سبيلهم لانعدام الدليل على الادانة •

ثم فتحت وصية جرانموران ، وفى الحال أثارت فى نفس قاضى التحقيق دنيزيه مرة أخرى ارتيابا قام لديه منذ البداية ، وهو احتمال ادانة روبو وزوجته • ان الوصية تضمنت بعض بنود طريفة ، ومن بينها بند بترك المنزل الذى فى (كروا دى بوفرا) لسيفرين • وقبل ذلك لم يكن ثمة دافع ظاهر للجريمة ، أما الان فهذا هو الدافع الجلى : أن روبو وزوجته قد يكونان عرفا بأمرالوصية، فقاما بقتل المحسن اليهما للتعجيل بالانتفاع بما أوصت به لهما ، ثم كان هناك أيضا بالطبع اتجاه آخر للتحقيق أشار اليه روبو ذاته ، وهو احتمال صعود أحد الى المقصورة فى اللحظة الاخيرة بين الهرج والسرعة فى محطة روان •

ومهما يكن فقد بدا أنه لا سبيل الى التقدم فى وجهة معينة ، ولكن عندما عرف دنيزيه فجأة وهو يستجوب ميزار عامل الاشارة بقصة كابوس ولويزيت ، الفتاة التى حاول القاضى النيل منها والتى توفيت فى كوخ كابوش هنا بزغ فجأة شعاع من الضوء •• ان كل شيء يوضع الان فى موضعه الصحيح : ان كابوش عامل المحاجر كان قد هدد بقتل جرانموران ، وكان من أرباب السوابق • واثبات مكان وجوده وقت ارتكاب الجريمة كان ضعيفا ، ولم يمكن اقامة الدليل عليه • وهكذا بادر مسيو دنيزيه الى العمل ، وتم القبض على كابوش سرا ، وفى كوخه المهجور فى صميم الغابة عثروا على بنطلون ملوث بالدم • ومع أن دنيزيه لم يكن بعد مستعدا للتخلى عن نظريته فى احتمال أن يكون روبو وزوجته هما القاتلان، فانه بدأ يهنيء نفسه لانه كان وحده من الزكاء بحيث تهيأ له أن يكتشف القاتل الحقيقى • ولكى يحول الارتياب الى حقيقة مؤكدة ، فقد استدعى الشهود الاساسيين للمثول أمامه فى مكتبه المعتم بمحكمة روان •

وقبل الموعد المحدد بنصف ساعة كان روبو وسيفرين ينتظران فى المحكمة • ذهبا اليها مرتدين ملابس الحداد كمن فقد قريبا عزيزا ، وجلست سيفرين فى الردهة فوق أحد المقاعد الخشبية ، بينما جعل روبو يروح ويغدو أمامها ويداه مشبكتان خلف ظهره • ولم يكونا يتكلمان ، ولكن أعينهما تلاقت وبان الخوف فى ملامح وجهيهما كطيف عابر • ولو كانت غير هذه الظروف لابهجهما أن يؤول اليهما المنزل (كروا دى موفرا) ، أما الان فانه ضاعف من قلقهما • ان بيرت ابنة القاضى ـ التى روعتها غرابة الهبات التى تضمنتها الوصية والتى بلغت نصف الثروة تقريبا ـ ذهبت تتكلم عن الطعن فى الوصية ، بل

أنها بتحريض من زوجها ، راحت تظهر عداء خاصا نحو صديقتها القديمة سيفرين ، وتتفوه بتعريضات ضارة وتلميحات شديدة عنها · ثم ان الخوف من أن تكشف الظروف عن دليل حاسم كان يؤرق سيفرين ـ وخاصة تلك الرسالة التى اضطرها روبو الى أن تكتبها للقاضى جرانموران · ومهما يكن ، فان الايام تتابعت ولم يحدث شيء ، وكان أى استدعاء جديد أمام قاضى التحقيق يثير خوفهما ويسيل عرقهما تحت هذا الهدوء الظاهرى بوصفهما شاهدين ومنتفعين ·

وكانت الساعة تدق الثمانية تماما عندما جاء جاك لانتييه قادما من باريس ، فبادر روبو الى تحيته بحرارة ، وبسط له يده قائلا :

ـ اذن فهم قد لفوا الحبل حولك أيضا ! يا لطول الاجراءات ! ·· كم أتمنى أن ينتهوا من هذه المسألة اللعينة بأقرب ما يمكن !

وفى هذه اللحظة وقع نظر جاك على سيفرين ، فوقفه مكانه جامدا ، كان كلما وجد نفسه فى الهافر هذه الايام ، يوما بعد الاخر ، فان روبو كان يدفعه الى لقائه والتودد اليه · بل أنه تناول الغداء مرة معهما ، على كره منه · وعندما جلس الى جانب الزوجة الشابة تملكه ذلك الخوف المعهود ، ولكن بصورة أسوأ هذه المرة ، أن مجرد رؤيته لرقبتها البيضاء من فوق حافة الثوب جعل يديه تسرى فيهما الحرارة وقلبه يدق بسرعة · لقد أدرك أنه لابد له منذ الان أن يبتعد عن طريقها بأى ثمن ·

قال له روبو :

ـ ماذا يقولون عن القضية فى باريس ؟ ما من جديد فيما أظن ؟ أنهم لا يعرفون شيئا ، ولا أعتقد أنهم سيعرفون قط · تعال كلم زوجتى ·

وأمسك بذراعه وقاده الى مكان سيفرين ، التى ابتسمت فى حياء كطفلة عصبية · ولكى يخفى جاك ارتباكه فانه راح يتكلم كيفما اتفق وفى خلال ذلك كله كان الزوجان يراقبانه بدقة وكأنما يحاولان أن يقرآ أفكاره ·· لماذا يبدو فاترا حيالهما ؟ لماذا يحاول أن يتجنبهما ؟ هل تذكر أخيرا بعض التفصيلات ؟ هل استدعى الى التحقيق خصيصا لمواجهتهما ؟ أنه كان الشاهد الوحيد الذى يخشيان جانبه ، وقد أدركا أنه لابد لهما من استخدام كل وسيلة فى طاقتهما لاسترضائه ·· لابد أن يورطاه معهما ·· لابد أن يضماه اليهما برباط وثيق محكم بحيث لا يجسر قط على أن يتكلم بسخاء ضدهما ·

وسمعت سيفرين وقع خطوات فى الردهة ، وهمست :

ـ ها هى بيرت وزوجها ·

كانا هما فعلا ، وقد مرا بهم دون أن تكلف بيرت خاطرها بتوجيه ولو نظرة الى ناحية صديقتها القديمة ، وأسوأ من هذا أنهما أدخلا فى الحال الى مكتب قاضى التحقيق :

وقال روبو : ـ لابد لنا من الانتظار ·· ربما نبقى هنا ساعتين على الاقل ؛ ولهذا لا مفر من الجلوس ·

وجلس الى يمين سيفرين واشار الى جاك بالجلوس الى يسارها ، وتردد جاك ، ولكنه عندما لمح نظرة الاستعطاف فى عينيها امتثل · أما هى فجلست شاحبة خافضة البصر بين الرجلين ، وشعر جاك بحرارة جسدها وهو جالس قربها ، وعندما طال بهم الجلوس انتابه شبه اغفاء ·

وفى مكتب مسيو دنيزيه قاضى التحقيق كانت الاستجوابات على وشك أن تبدأ ·· ان التحقيقات الاولية ملأت حتى الآن ملفا ضخما : انهم حاولوا أولا تتبع

خطوات القتيل منذ مغادرته باريس ، وشهد مسيو فاندورب ناظر المحطة هناك بأن عربة كوبيه اضافية قد ألحقت بالقطار فى اللحظة الاخيرة ، وانه تبادل بعض الحديث مع روبو ، وبعد ذلك وصل القاضى جرانموران ودلف الى مقصورته المحجوزة التى كان فيها وحده بكل تأكيد ، ولما جاء دور هنرى دوفرن حارس القطار سئل عن فترة التوقف مدة عشر دقائق فى محطة روان ، ولكنه لم يستطع أن يضيف بيانات كثيرة • انه شاهد روبو وزوجته على الرصيف ويعتقد أنهما عادا الى مقصورتهما ، ولكن مع وجود الزحام فى المحطة وضعف الضوء فانه لا يستطيع أن يجزم بشىء • اما عن احتمال وثوب انسان الى المقصورة لحظة تحرك القطار ، فكان من رأيه أن هذا غير ممكن ، وان لم يكن مستحيلا • ولم تكن أقوال باقى الموظفين فى هذه المحطة الا نوعا من التشويش ، اذ كانت تناقض بعضها بعضا • ولكن كان هناك شىء واحد ثبت بصورة محددة ، وهو أن روبو قد صافح ناظر محطة بارنتان ، وقد أيد الاخير هذه الحقيقة وأضاف اليها ان روبو كان وحده مع زوجته ، التى بدا أنها كانت نائمة •

هذا ، وعندما أدخل لاشيناى وزوجته بيرت كريمة القتيل الى مكتب قاضى التحقيق ، استقبلهما مسيو دنيزيه واقفا ، وكان منذ فترة يعيد قراءة بعض جوانب التحقيق •• كان قصيرا ، متين البنيان ، حليق الوجه وخط الشيب عارضيه وكان وجهه الشاحب جامد الملامح ، وأجفانه المتثاقلة تكاد تحجب عينيه الواسعتين الباهتتين ، وكانت الدلالة الوحيدة على حدة ادراكه والتى كان يطرى بها نفسه هى فمه المتحرك . كان له فم ممثل •• كان اذا أراد أن يبدو حاذقا بارعا يزم شفتيه الى داخل فمه حتى لا يكاد يبدو منهما سوى خط رفيع •

والواقع أن الحذق كان أحيانا يفسد عليه كل شىء ، وكانت براعته المبالغ فيها تضيع أمامه الحقيقة فى بساطتها •

أما الان فانه وقف يحتفى بمدام دى لاشيناى ويدعوها الى الجلوس ، فى حين أنه بدا اقل حفاوة بزوجها البادى الاعتلال ، ذلك الذى استطاع بفضل نفوذ صهره المتوفى أن يرقى الى مرتبة المستشار القضائى وهو فى السادسة والثلاثين ، فى حين أنه هو نفسه ظل يكافح حتى وصل بشق النفس الى وظيفته الحالية كقاض للتحقيق •• والواقع أنه لم يكن نادما قط على اظهار سلطته كاملة هنا ، فى حرم مكتبه ••

قال دينزيه : ـ أرجو المعذرة يا سيدتى لازعاجك مرة أخرى بشأن هذه القضية الاليمة ، ولكنى أعلم أنك متلهفة مثلنا للوصول الى العدالة •

وما كاد يبدأ فى سؤال بيرت لاشيناى حتى قاطعه زوجها بسيل من الشكوى والاحتجاج على ما جاء فى وصية صهره القتيل التى بعثر فيها من أمواله ما كاد يصل الى نصف التركة ، ووزعها على اناس لا يكادون يعرفونهم ، على نساء من جميع الطبقات ، بل حتى بائعة الورد بجوار منزله .. ان هذا شىء لا يطاق ! .. ولاشك أنه لا ينتظر الا انتهاء التحقيق لكى يبادر باتخاذ اجراءات الطعن فى الوصية لالغائها .

وظل مسيو دنيزيه يراقب ببرود هذا اللون من الضعة من خلال عينيه نصف المغمضتين ، وقد شف فمه الرقيق عن الحسد والاحتقار معا لهذا المخلوق التعس الذى لم يقنع بوراثة مليونين ، والذى بفضل هذه الثروة سوف يرقى ولا شك الى أعلى المناصب .

وقال ردا عليه : ـ انى لا أكاد أنصحك بأن تلجأ الى هذا يا سيدى • ان الوصية لا يمكن الطعن فيها الا اذا

جاوزت الهبات نصف التركة ، وهذا ما لم يحدث هنا .
فقال لاشيناى وقد زادت ملامحه ضيقا وسخطا :
ـ هل تظن انى سأترك روبو وزوجته يستحوزان على منزل (كروا دى موفرا) دون اعتراض ؟ هل أترك ملكية شيء كهذا لابنة خادم .. ؟ كيف يمكن تبرير هذا العمل ؟ وفضلا عن ذلك ، اذا امكن اثبات أنهما انحدرا الى الجريمة ..
ـ هل تظن أنهما فعلا هذا ؟
ـ ياللسماء ! اذا عرفا بأمر الوصية ، فان اهتمامهما بموت والدنا المسكين يمكن اثباته .. ثم لا تنسى أنهما كانا آخر من تكلما معه .. ان هذا كله يبدو مثيرا للشبهات ولا شك ..
ـ وأنت يا سيدتى .. هل تعتبرين صديقتك القديمة قادرة على ارتكاب مثل هذه الجريمة ؟
نظرت الى زوجها قبل أن تجيب .. انهما بعد شهور قليلة من الزواج ، وجدا توافقا كبيرا فى أسوأ الطباع والخصائص ، ولا سيما التحجر والغطرسة ، التى نمت فيهما وتزايدت :
قالت : حسنا يا سيدى ، ان المخلوقة التى نتحدث عنها ، كانت لها ولا شك غرائزها القبيحة جدا وهى فتاة صغيرة .
ـ هل تتهمينها بأن مسلكها كان سيئا فى دوانفيل ؟
ـ آه لا .. ليس هناك .. ان والدى ما كان ليسمح ببقائها هناك لو انها كانت كذلك .
لقد شفت كلماتها عن تكلف الاحتشام ، وان كل ما يعنيها هو أن تحافظ على سمعتها الخاصة دون أن يعلق بها شيء بين اكابر الناس فى روان .. وقد استطردت تقول :

ـ لكن عندما يكون الناس متصفين بغرائز خلقية فان .. فى الحقيقة يا سيدى أن كثيرا من الاشياء التى كنت استبعدها وقتئذ ، تبدو لى الان مؤكدة .
فابدى مسيو دنيزيه اشارة تنم عن التبرم . ان تشعب التحقيق على هذه الصورة لا يعنيه فى شيء ، ومن شأن السير فيه ان يعطل اجراءاته .
وفى هذه اللحظة أطل الحاجب برأسه ، ولكن قبل ان يقول شيئا دفعت الباب يد مكسوة بقفاز ، ودلفت امرأة شقراء فى ملابس حداد انيقة . كانت فوق الخمسين ، ولكن كان لها جمالها البادى
ـ هذا انا ياعزيزى القاضى . اننى تأخرت لكنك سوف تعذرنى ، اليس كذلك ؟ ان الطرق فى حالة مروعة ، ومسافة الاميال الثمانية من دوانفيل الى هنا تبدو وكأنها ستة عشر !
فاستوى مسيو دنيزيه قائما وقال لها :
ـ ارجو ان تكونى بخير ياسيدتى ، منذ ان تلاقينا يوم الاحد الماضى .
ـ بكل خير ، شكرا لك . وانت ياعزيزى القاضى ، هل افقت من الصدمة التى سببها لك سائق مركبتى ؟ لقد اخبرنى أن المركبة كادت تنقلب بك وهو يوصلك الى المنزل .
آه . انها كانت مجرد هزة .. اؤكد لك ياسيدتى انها لم تكن شيئا يذكر .. أرجو أن تجلسى . وكما قلت الان لمدام لاشيناى ارجو المعذرة لاضطرارى الى اعادة اثارة هذه المسألة المحزنة .
ـ لا بأس .. اذا لم يكن بد من هذا .. وطبعا آه .. بيرت ! كيف حالك ؟ وانت يالاشيناى ؟
كانت القادمة هى مدام بونون ، شقيقة القتيل التى

مالبثت ان قبلت ابنة شقيقها وصافحت زوجها ٠٠ كانت متزوجة من احد كبار رجال الصناعة الذى توفى وهى فى الثلاثين من عمرها تاركا لها ثروة كبيرة ، وان كانت غنية بحكم الوراثة ، بعدأن ورثت ضيعة دوانفيل عن والدها . وهناك فى هذه الضيعة كانت تحيا حياة مبهجة ، وقيل أنه كانت لها مغامرات عاطفية كثيرة ، ولكن سلوكها الظاهرى كان مثاليا الى حد أنها ظلت أمدا طويلا وهى نجم المجتمع فى روان ٠ كان لها ولع بدنيا القضاء ، وكانت مركباتها المطهمة فى حركة دائبة لنقل اعضاء الاسرة القضائية من والى ندواتها الاجتماعية المبهجة المحدودة فى بيتها ٠

وراح مسيو دنيزيه يقول لها :

ـ اذا سمحت لى يا سيدتى ، فانى أود أن أوجه اليك سؤالا أو سؤالين ٠

ورغم انه فرغ من مساءلة الزوجين ، فانه لم يصرفهما وهكذا تحول مكتبه المتجهم القارس البرد فى هذه الفترة الى صالون من صالونات المجتمع ٠

ـ ان احد الشهود ياسيدتى ذكر ان شقيقك القاضى تلقى برقية تدعوه الى الذهاب الى دوانفيل فى الحال ٠ فهل كانت هذه البرقية منك ؟

كانت مدام بونون تجلس باسمة مسترخية ، وقد اجابت بعذوبة من يدردش ، لا من يرد على استجواب :

ـ كلا ٠٠ اننى كنت انتظره حوالى ذلك الوقت ، لكنه لم يحدد موعدا لحضوره ٠ انه كان عادة يحضر مباشرة ، وعادة بقطار المساء . ولما كان له منزل صغير خاص فى حدود الضيعة ، فاننا لم نكن نعرف بوصوله ٠ كان يستقل مركبة من محطة بارنتان ، ولا يظهر لنا الا فى وقت متأخر فى اليوم التالى ، وكأنه جار يقوم بزيارة اننى كنت انتظره هذه المدة لانه كان مفروضا ان ياتينى بمبلغ عشرة آلاف

فرنك كان مدينا به لى ، ولابد انه كان يحمل هذا المبلغ معه ، ولهذا فانى كنت اظن دائما ان السرقة كانت هى الدافع الى الجريمة ٠

اخلد قاضى التحقيق الى الصمت برهة ، ثم ومالبث ان تطلع اليها مواجهة وسألها :

ـ مارأيك فى مدام روبو وزوجها ؟

فأبدت اشارة سريعة تنم عن الاعتراض قائلة :

ـ آه ، يا عزيزى المسيو دنيزيه من المؤكد أنك لن تضيع وقتك حـول هـذين الشخصين الطيبين ؟ ان سيفرين كانت مخلوقة حسنة المسلك ، وجميلة أيضا ، وليس فى هذا جريمة أليس كذلك ؟ اننى سأقول ما قلته من قبل .. اننى لا أظن أنها هى أو زوجها أهل لاقتراف مثل هذا الفعل الشرير ٠

فاومأ برأسه ٠ ان هذا هو ماكان يريد ان يسمعه ونظر الى مدام لاشيناى التى اضطرت ان تقول :

ـ احيانا ياعمتى تكونين متسامحة اكثر من اللازم ٠

ـ هل أنا كذلك ؟ لابأس يابيرت ، اننا لن نتفق أبدا فى هذا الشأن ان سيفرين كانت دائما سعيدة ومستبشرة ، وكانت مستقيمة تماما ايضا ٠ اننى اعرف جيدا ماتفكرين فيه انت وزوجك ٠ انكما ساخطان لان والدك ترك منزل (كروادى موفرا) الى سيفرين ،لكن ٠٠ ليس هذا جشعا منكما ؟ مهما يكن فانه رباها وأعطاها دوطة كما تعرفين ، ولم يكن سوى شىء طبيعى أن يترك لها شيئا فى وصيته ، فقد كانت بمثابة ابنة ثانية له ٠٠ ان السعادة لا علاقة لها بالمـال يا عزيزتى ٠

والحق انها ، بسبب غناها الدائم ، لم تكن تهتم بشئون المال ٠ وبسبب كونها جميلة ومحبوبة جدا ، فانها كانت

تنادى دائما بان الحب والجمال هما الشيئان الهامان فى الحياة ٠

وقالت مدام لاشيناى بلهجة جافة :

ـ لكن روبو هو اول من ذكر مسالة البرقية واذا لم تكن هناك برقية ، فان والدى ما كان ليقول انه تلقى برقية ٠ فلماذا كذب روبو ؟

فقال مسيو دنيزيه بحدة :

ـ لكن القاضى ربما اخترع البرقية لتفسير سفره المفاجىء ٠ وطبقا لما جاء فى اقوال الزوجين روبو فان نيته الاصلية كانت السفر فى اليوم التالى ٠ ولما وجد نفسه فى نفس القطار ، فقد اضطر ان يقول شيئا ما دام لا يريد ان يخبرهما بالسبب الحقيقى ، وهو الذى مازلنا لا نعرفه نحن فعلا ٠ ان مسالة البرقية هذه لا اهمية لها ٠

وساد الصمت مرة أخرى ، وعندما عاد قاضى التحقيق الى الكلام كان صوته هادئا ومليئا بالقلق والاشفاق :

ـ والآن ياسيدتى ، اصل الى موضوع دقيق بصفة خاصة ، وارجو ان تتجاوزى عن طبيعة اسئلتى ٠٠ ما من احد يكن اعظم احترام لذكرى شقيقك اكثر منى ٠٠ لكن كانت هناك اشاعات ٠٠ قالوا انه كانت له خليلات ٠٠

فعادت مدام بونون الى الابتسام مرة أخرى بمنتهى التسامح ، واجابت :

ـ آه ٠٠ فى سنه ، ياسيدى العزيز ! ٠٠ طبعا اصبح شقيقى ارمل وهو فى اوج الشباب ٠٠ اننى لم اشعر قط بان من حقى ان ادين اى عمل كان يعمله ٠٠ انه عاش حياته الخاصة وأنا لم أتدخل قط . ان الذى اعرفه تماما هو انه كان يقدر مركزه فى المجتمع ، وكان يستقبل من اكابر الناس الى النهاية ٠

والواقع ان بيرت التى غضبت لسماع كلام عن خليلات

ابيها يناقش فى حضورها ، غضت بصرها ، بينا يمم زوجها الذى ارتبكمثل ارتباكها شطر النافذة ووقف موليا ظهره اليهم ٠

قال مسيو دنيزيه : ـ لابد ان تسامحينى اذا اصررت ٠ لكن الم تكن هناك قصة عن خادمة صغيرة فى الضيعة ؟

ـ آه ، نعم ، لويزيت ٠٠ لكنها كانت فتاة صغيرة شريرة ٠٠ ومن العجيب أنها كانت على علاقة برجل من أرباب السوابق عندما كانت فى الرابعة عشرة ٠٠ انهم حاولوا استغلال موتها لتسوىء اسم شقيقى ٠٠ انه كان شيئا فاضحا ٠٠ دعنى أحدثك عن القصة ٠

ورغم أن عادة القاضى لم تكن سرا بالنسبة اليها وموته المفاجىء لم يدهشها ، فقد شعرت ان من واجبها ان تحافظ على سمعة الاسرة ومكانتها ٠ اما بصدد قصة لويزيت المؤسفة ، فكان من رأيها انه كان اهلا للطمع فى الفتاة ولكنها كانت بنفس القدر مقتنعة بان الفتاة التى كانت مبكرة النضج ومنحرفة ، قد شجعته على ذلك ٠

راحت تقول :

ـ انها كانت فتاة لطيفة ، وافرة الملاحة وبراءة المظهر حتى لا يظن احد انها تبطن شيئا تحت مظهرها البرىء ، ومع ذلك فانها لم تكن تجاوز الرابعة عشرة عندما اصبحت خليلة لرجل ضخم متوحش يعمل فى قطع الاحجار امضى منذ فترة خمس سنوات فى السجن لقتل رجل فى شجار فى احدى الحانات ٠ وكان يعيش فى كوخ حقير فى غابة بيكور ، يعمل فى تلك المحاجر المهجورة التى يظن ان نصف مبانى روان شيدت منها ٠ فى هذا المكان اعتادت الفتاة أن تلتقى بهذا ٠٠ بهذا الوحش ٠ وكان كل انسان يخافه الى حد ان الجميع كانوا يتجنبونه كما يتجنبون الطاعون ٠ وكان بوسع الناس ان

يشاهدوهما وهما يسيران فى الغابة متشابكى الايدى ، هى صغيرة ضئيلة وهو كوحش ضخم هائل ، ثم الافعال التى كانت تصدر عنهما .. طبيعى انى سمعت بهذا فيما بعد .. انى قبلتها عندى من باب الشفقة والخير .. وكنت اعرف ان عائلتها عائلة ميزار ، فقيرة جدا ، وقد حرصوا على الا يذكروا لى انهم كانوا يضربونها مرارا لمنعها من الذهاب الى كابوش كلما وجدت الباب مفتوحا .. وكان شقيقى ليس له خدم مخصصون لمفى دوانفيل .. فكانت لويزيت وامرأة أخرى تنظفان له المنزل . وذات صباح ، عندما كانت وحدها فى المنزل ، اختفت عن الانظار واذا سألتنى قلت لك انها كانت تدبر هذا الامر منذ وقت طويل . وربما جاء عشيقها وأخذها . ولكن الشىء المخيف هو انه بعد خمسة أيام ، بدأت اشاعات عن موتها تنتشر مع كلام كثير عن شقيقى بانه حاول الاعتداء عليها فى ظروف مروعة حتى ان الفتاة فقدت صوابها وهربت والتجأت الى كابوش فى كوخه ، حيث توفيت بحمى فى المخ . كم اتمنى ان اعرف حقيقة ماحدث .. ان هناك روايات كثيرة حتى ليصعب التأكد من شىء .. ان لوزيت ماتت فعلا بنوع من الحمى ، كما قرر أحد الاطباء ، ولكنى أعتقد أن هذا كان نتيجة تجولها فى المستنقعات والنوم فى الخلاء .. اننى لا أظنك تعتقد أن شقيقى يمكن أن يسىء الى هذه الطفلة المسكينة ، أليس كذلك يا سيدى ؟ ان فكرة كهذه مستحيلة .. شنيعة ..

وفى خلال هذا كله راح مسيو دنيزيه ينصت باهتمام دون ان تبدر منه علامة تدل على التأييد او الانكار . وفى ختام القصة ابدت مدام بونون شيئا من الارتباك اذ جعلت تقول :

ـ أنا .. أنا لا أقول أن شقيقى لم يرد أن يلاعبها الى حد ما . انه كان يحب الشباب انه كان مرحا خلف مظهره البارد . لنقل انه قبلها مثلا .

عند هذا الحد احتجت بيرت حياء قائلة :

ـ آه ياعمتى ! ياعمتى ! كيف تقولين شيئا كهذا ؟ ..

فهزت منكبيها ما الفائدة من الكذب امام قاضى التحقيق واستطردت تقول :

ـ اقول انه قبلها وربما داعبها لا شىء من الشر فى هذا .. لابد ان لويزيت جسمت الموقف ، ربما لكى تستبقى كابوش عاشقا لها ، وبهذا اعتقد هو فى النهاية ان شقيقى قتلها .. انه كان غاضبا الى حد الجنون .. انه تردد على جميع الحانات يقول لكل انسان انه اذا تمكن من وضع يده على شقيقى لقتله كخنزير .

فقاطعها القاضى قائلا :

ـ هل قال هذا ؟ هل هناك شهود يمكن ان يؤيدوا ذلك ؟

ـ شهود كثيرون بعدد ما تريد يا عزيزى المسيو دنيزيه لكنها كانت مسألة محزنة ، وقد نتجت عنها متاعب كثيرة لنا .. من حسن الحظ أن مركز شقيقى وضعه فوق الشبهات .

ادركت مدام بونون فى اى اتجاه يسير التحقيق ، وفضلت الا تورط نفسها بان تسأل القاضى بدورها ، اما هو فقد نهض قائلا انه لا يرغب ان يتجاوز حدود اللياقة أكثر من هذا فى حين أنها والاسرة فى حزنهم المعروف . وامر الكاتب بقراءة الاقوال قبل التوقيع ، وكان تلخيص الكاتب آية فى الدقة والبعد عن الحشو وكلمات التوريط الى حد ان مدام بونون امسكت القلم بيدها وقبل ان توقع وجهت الى الكاتب الشاب المعروف الشاحب ابتسامة الرضاء .

وعند الباب صافحت القاضى وهى تقول :

ـ سوف اراك قريبا ، اليس كذلك ؟ انت تعرف انك دائما محل الترحاب فى دوانفيل · انت واحد من الاصدقاء القليلين الباقين لى ·

وكانت ابتسامتها مشوبة بالكآبة ، ولكن ابنة اخيها بيرت اكتفت باحناء رأسها بفتور وهى تخرج من الغرفة ·

وعندما اصبح مسيو دنيزيه وحده تنفس عميقا ، ووقف برهة مستغرقا فى التفكير · لقد شعر ان القضية باتت الان واضحة امامه · من المؤكد ان جرانموران كان مدانا بعمل عنيف وشهرته كانت معروفة للجميع وفى هذا يجعل موقف الاتهام دقيقا ، حتى اعتزم ان يتمسك باتم الحكمة . وفى نفس الوقت تشعر بالانتصار ، فهو واثق أنه وضع يده على الجانى .

ـ ليدخل جاك لانتييه !

كان الزوجان روبو ما زالا ينتظران فوق المقعد الخشبى فى الردهة ، ومالبث صوت الحاجب وهو ينادى جاك ان ايقظهما من خدرهما بشبه انتفاضة ، فراقباه وهو يدخل ومازالا على صمتهما وما بهما من شحوب ·

لقد ظل جاك منذ تلك الليلة الرهيبة يطالعه موضوع جرانموران وكأنما سوف يرتد الموضوع ضده على نحو ما · وكان يرى انه غير محق فى هذا الاحساس ، اذ ليس له فيه جريمة ولا ذنب · ومع ذلك فما من مرة دخل فيها مكتب قاضى التحقيق الا خامره الفزع كمجرم وراء سر يوشك ان يماط عنه اللثام ، وقد أحكم شد اعصابه خوفا من ان يقول اكثر مما ينبغى · وعلى اى حال فهو نفسه قد يقتل انسانا ما ؛ وعندئذ يقرأون السر فى عينيه ؟ شد ما أصبح يمقت ويخشى تلك الاستدعاءات الى مكتب قاضى التحقيق !

ومهما يكن من شىء ، فان ما كان يعنى مسيو دنيزيه اليوم هو وصف القاتل وجاك هو الانسان الوحيد الذى لمحه ، وهو وحده يستطيع ان يدلى بأوصافه · بيد انه تمسك بقصته الاصلية مكررا انه لم يلمح المشهد سوى لمحة عابرة وان الانطباع الذى علق بذهنه كان انطباعا غائما ، شبح رجل بدا أنه يذبح رجلا آخر · وظل المحقق يضغط عليه بالحاح مدى نصف ساعة مكررا السؤال فى كل صورة ممكنة ، ولكن دون جدوى ·· كانت اجاباته دائما هى نفسها : كيف يمكن أن يتوقع منه احد أن يعرف القاتل بوضوح بينما كان القطار يسير بسرعة خمسين ميلا فى الساعة ؟

وفى النهاية طلب قاضى التحقيق من جاك الجلوس ، واستدعى الحاجب :

ـ ادخل مسيو ومدام روبو ·

وما كادا يدخلان الحجرة ويبصران أن جاك كان يجرى استجوابه حتى أومض الخوف فى أعينهما ·· ترى هل قال شيئا ؟

هل يعمدون الى اجراء مواجهة بينه وبينهما ؟

لقد تبخرت ثقتهما ، وأجابا على الاسئلة الاولى بمجهود .. ولكن حتى هذه اللحظة فان قاضى التحقيق لم يزد عن تكرار استجوابه السابق ·· ولم يكن أمامهما سوى أن يكررا أجاباتهما السالفة ؛ بينما جلس هو ينصت حتى دون أن ينظر اليهما .

وفجأة التفت الى سيفرين :

ـ يا مدام ، قلتما أنه خطر لكما انه ربما دخل رجل الى مقصورة القاضى جرانموران فى محطة روان لحظة أن بدأ القطار يتحرك ؟

فوجئت بالسؤال · لماذا أثار هذه النقطة مرة أخرى ؟

أهو يحاول الايقاع بها ؟ ونظرت الى زوجها مترددة ، وتولى هو الجواب قائلا :

ـ لست أظن ان زوجتى كانت دقيقة الى هذا الحد .

ـ عفوا . ولكن عندما أقررتما باحتمال هذا الامر قالت زوجتك : (أنا متأكدة ان هذا هو لابد ما حدث) .. انئى أريد أن أعرف يا مدام هل كان لديك سبب معين لهذا القول ؟

ملكت أعصابها بقوة ، مدركة انها اذا لم تلزم الحذر ، فقد يقودها الى الاعتراف بكل شيء . ولكن لابد لها مع ذلك من أن تقول شيئا :

ـ آه .. لا يا سيدى . لم يكن هناك سبب معين .. انى ببساطة قصدت أن أقول انه لابد ان رجلا دخل المقصورة لانى لم استطع ان افهم كيف يمكن أن يحدث شيء غير هذا .

ـ اذن فأنت لم تشاهدى فعلا الرجل .. ألا يمكنك أن تذكرى لنا أى شيء عنه ؟

ـ آه لا يا سيدى .. لا شيء .

فالتفت دنيزيه الى روبو قائلا :

ـ كيف تأتى انك لم تشاهد هذا الرجل اذا كان دخل المقصورة حقا ؟ لقد قلت أنت نفسك انك كنت ما زلت تتكلم مع جرانموران عندما انطلقت الصفارة .

تملك الذعر نفس روبو لحظة وهو لا يدرى أيتخلى عن قصة هذا الرجل أم يتمسك بها .. لو كان ثمة أى دليل ضده ، فان نظرية القاتل المجهول لن تقف على قدمين ، وربما زادت موقفه سوءا .. لكى يكسب الوقت فانه راح يدور بتفسير مطول مرتبك ، ما لبث أن قطعه دنيزيه بقوله :

ـ من سوء الحظ أن ذاكرتك ليست أوضح من هذا ، اذ

كان بوسعك مساعدتنا فى ازالة الشبهات التى ألقيت على أكثر من شخص .

بدا له ان هذا بمثابة التحدى المباشر له ، وقد شعر انه مطالب على نحو ما بان يبرر موقفه ، فقال :

ـ المسألة عندى هى ما هو العمل الصحيح الواجب على الانسان . ان الانسان من الطبيعى الا يكون راغبا فى .. أعنى أنه متى اعترفت أنا برؤية الرجل ..

ورفع دنيزيه رأسه منتصرا : ها هو ذا بما أبدى من صبر وبراعة يتجه أخيرا الى الحقيقة .. كان يعلم بالتجربة مدى كراهية بعض الشهود لذكر كل ما يعرفونه ، وكان دائما يطرى نفسه لحذقه فى استدراجهم الى الكلام .. ولهذا قال :

ـ قل لى اذن .. ماذا كان شكل هذا الرجل ؟ ضخم ؟ قصير ؟ فى مثل طولك ؟

فأجاب روبو :

ـ آه ، لا .. أطول كثيرا .. على الاقل هذا هو انطباعى ، وهو مجرد انطباع .. وأظن انى لامست بكتفى شخصا وأنا أجرى عائدا الى مركبتى فى القطار .

ـ لحظة واحدة ! ..

قال دنيزيه هذا والتفت الى جاك ، وسأله :

ـ الرجل الذى لمحته والمدية فى يده ، هل كان أطول من مسيو روبو ؟

ان جاك الذى بدأ يقلق أن يفوته قطار الساعة الخامسة ، توجه بنظره الى روبو .. لقد بدا له انه يشاهده بعين جديدة .. لقد دهش اذ وجده أدنى الى القصر والامتلاء .. ثم هذه الصورة الجانبية الواضحة للوجه ، هل رآها فى مكان ما من قبل ، أم انه رآها فى حلم ؟

أجاب جاك ردا على سؤال المحقق :

ـ لا ٠٠ ليس أطول ٠ نفس الطول تقريبا ٠

فهتف روبو : ـ آه ، لا ٠٠ أطول كثيرا ! ٠٠ أطول بقامة على الاقل ! ٠٠

كان جاك مازال يحدج روبو بنظراته ، ورأى روبو الدهشة تتبلج في عينيه كما يتبلج الفجر ٠٠ فادار رأسه بحركة عصبية في هذا الاتجاه وذاك ، وكأنما يحاول أن يتملص من صورته وان يفلت من مظهره .. وكانت سيفرين أيضا تراقب جاك ٠٠ تراقبه وهو يفتش في ذاكرته ، ثم فجأة وبيقين ، يعرف المشابهة بين روبو وبين القاتل في القطار ٠٠ الان ما عليه الا أن يتكلم فيقضي عليهما القضاء المبرم ! ٠٠ وتلاقت عيناه بعيني جاك مرة أخرى ، ونظر كل من الرجلين الى أعمق أعماق أفكار الاخر ٠٠ ولم يتكلم احدهما ٠٠ الى أن قال مسيو دنيزيه أخيرا :

ـ أنتما لاتتفقان معا اذن ؟ لكن اذا كنت تظنه اقصر يا يالانتيه ، فلعل هذا كان بسبب انحنائه فوق ضحيته ٠

جعل قاضي التحقيق يتفرس في الرجلين ٠٠ انه لم يعمل عامدا على اجراء مواجهة بينهما ، ولكنه الان شعر بغريزة المهنة تومىء له بأجلى من أي وقت مضى أن الحقيقة أمامه الان حقا في هذه الحجرة ٠٠ بل ان نظريته عن كابوش لم تلبث أن اهتزت ٠٠ ترى هل كان الزوجان لاشيناي على حق آخر الامر ؟ أيمكن أن الطرف الجانبي ، رغم كل الاحتمالات ، هما موظف السكة الحديدية الفاضل ، وزوجته الشابة الطيعة ؟

قال موجها سؤاله الى روبو :

ـ هل كان للرجل لحية مثلك ؟

ـ لا ٠٠ لا أظن انه كان له لحية ٠

أدرك جاك انه سوف يسأل نفس السؤال ، فما الذي يجب أن يقوله ؟ ان الانطباع الذي كان لديه هو أن الرجل الذي أبصره في القطار كانت له لحية ؟ ٠٠ لا بأس ٠٠ ان هذين الشخصين لا يهمانه في شيء ، فلماذا لا يقول الحقيقة ؟ ولكنه في هذه اللحظة تحول عن النظر الى الزوج وتلاقت عيناه بعيني الزوجة ، وفيهما شاهد أشد الاستعطاف الجنوني اليائس ، وأبلغ الخضوع المتهالك والاستسلام المطبق ، الى حد انه شعر بعميق التأثر دون سبب مفهوم ٠٠ ان الرجفة القديمة ما لبثت أن عادت اليه وتملكته نوبتها من جديد ٠٠ أيمكن أن يكون معناها انه بدأ يقع في حب هذه المرأة ؟ ٠٠ أيمكن أن تكون هي المرأة التي يستطيع أن يحبها دون أن تساوره تلك الحاجة الجنونية الى القتل ؟ ان ذاكرته ما لبثت أن غشيها ضباب الارتياب من جديد ، وبدا انه لم يعد يستطيع أن يرى في روبو شخص القاتل ٠٠ انه لو تكلم الان ، وهذه الشكوك الجديدة ماثلة لديه ، فربما ندم على هذا الى الابد ٠

ـ هل كانت لهذا الرجل لحية مثل السيد روبو ؟

ـ سيدي ، بأمانة لا يمكنني أن أكون متأكدا ٠٠ ان كل ذلك حدث بسرعة كبيرة ، كما سبق أن قلت ٠

بيد ان دنيزيه ألح ٠٠ لابد له أن يعرف ٠٠ وهكذا مضى في أسئلته ٠٠ ومن روبو استخلص وصفا كاملا للقاتل : طويل ، قوي البنية ، حليق الوجه ، فوق ملابسه رداء فضفاض لوقايتها من الاتساخ ـ صورة مضادة تماما لاوصافه ـ ومن جاك لم يستطع أن يستخلص سوى كلمات موجزة ومراوغات تطورت في النهاية حتى كانت تأييدا لاقوال روبو ٠٠ واذن فان نظرية قاضي التحقيق الاولى كانت هي الصواب على أي حال ٠٠ ان اوصاف القاتل كانت تطابق كابوش تمام المطابقة ٠٠ وكل تفصيل جديد

كان يزيد هذه الحقيقة توكيدا ٠٠ ان هذين الزوجين ، اللذين اشتبه فيهما بغير حق ، هما اللذان سوف تؤدى شهادتهما الحاسمة الى تقديم الجانى الى المقصلة ٠٠

وبعد أن وقعوا جميعا على أقوالهم فى التحقيق ، أمرهم بالانتقال الى الغرفة المجاورة والانتظار حتى يستدعيهم ٠

ثم أمر بادخال السجين ٠٠ لقد شعر بأتم الرضا عن نفسه الى حد انه تمادى وقال لكاتب التحقيق وضعنا ايدينا عليه يالوران وفتح الباب وظهر اثنان من رجال البوليس يقودان شابا ضخما فى نحو الثلاثين من عمره فأشار لهما دنيزيه بالانسحاب وترك كابوش وحده أمامه . ويبدو وكأنه حيوان مقتنص .. كان أشقر الشعر ، غليظ العنق ، ضخم اليدين .. كانت جبهته الواطئة وملامحه الخشنة تجعله فى صورة نوع من المخلوقات : جاهل وعنيف ، ولكن فى هيئته فى نفس الوقت شىء يوحى بأنه مثل كلب يبحث عن سيد له يستطيع أن يكون له وفيا .. فى بكرة الصباح سحبوه بوحشية من كوخه الحقير فى الغابة لكى يواجهوه باتهامات لم يكد يفهمها ٠٠ ان رداءه الخارجى الممزق وهيأته الشاردة الزائغة أسبغت عليه طابع المظهر الاجرامى المنحط الذى يستطيع السجن أن يدمغ به خيرة الرجال ٠ كان الظلام ينسدل ٠ وما لبث الحاجب أن جاء بمصباح كبير مكشوف وقف كابوش فى ضوئه الساطع القاسى جامدا ساكنا ٠

وأنشأ مسيو دنيزيه يحدجه بعينيه الباهتتين المحجوبتين ٠٠ انه لم يتكلم ٠٠ كانت هذه هى المناوشة التمهيدية قبل أن تعلن الحرب ، حرب الدهاء ، والخديعة ، والتعذيب العقلى ٠٠ ان هذا الرجل مجرم ،

والقانون عنده كل التبرير فى استخدام اى أسلوب لاثبات جرمه ٠٠ ان الحق الوحيد له هو حق الاعتراف بجريمته ٠

وبدأ الاستجواب ، بطيئا أول الامر :

ــ هل تفهم ما هى الجريمة التى انت متهم بها ؟

فجاء صوت كابوش أجش بغضب العاجز :

ــ انهم لم يبينوا لى ، ولكن عندى فكرة عامة ٠٠ كان هناك كلام كثير عن الموضوع !

ــ هل كنت تعرف مسيو جرانموران ؟

ــ كل المعرفة !

ــ ان فتاة اسمها لويزيت ، عشيقتك ، أخذتها مدام بونون شقيقته للعمل خادمة عندها ؟

فتفجر ناحت الاحجار بالغضب قائلا :

ــ ان أى انسان يقول هذا هو كذاب دنىء ! ٠٠ ان لويزيت لم تكن عشيقتى !

ــ أنت معروف بالعنف ٠ لقد سبق الحكم عليك بالسجن خمس سنوات لقتل رجل فى مشاجرة .

غض كابوش بصره .. ان هذا الحكم هو الشىء الوحيد الذى كان يخجله .

غمغم قائلا :

ــ انه ضربنى أولا ٠٠ ثم انى لم أمكث فى السجن الا اربع سنوات ، وأفرج عنى لحسن السير ٠

فاستطرد قاضى التحقيق يقول :

ــ اذن فأنت تتمسك بأن لويزيت لم تكن عشيقتك ؟

ومرة أخرى أطبق كابوش قبضتيه ، وراح يقول :

ــ انها كانت ماتزال طفلة عندما خرجت من السجن ، ولم تكن حتى فى الرابعة عشرة ٠٠ ولم يكن أحد يريد أن يختلط بى ٠٠ ولكن عندما التقيت بها فى الغابة اعتادت

أن تأتى وتتكلم معى ، وأصبحنا اصدقاء •• واعتدنا ان نمسك بأيدى بعضنا عندما نتمشى •• كانت هذه أوقاتا سعيدة •. كانت تكبر ، واعتدت أن أفكر فيها ، لا أنكر ذلك •• اننى أصبحت مجنونا بحبها •• وكانت هى أيضا تحبنى ، وربما كان يمكن أن يحدث ما تقوله ، ولكننا فصلنا عن بعضنا ، وأخذوها للعمل عند تلك السيدة فى دوانفيل •• وذات ليلة عدت من المحجر ووجدتها على عتبة بابى •• كانت طائرة الصواب وتكاد تحترق بالحمى •• انها لم تجرؤ على الذهاب الى بيت والديها •. لا •• انها جاءت لكى تموت فى دارى •• رباه ! •• ذلك الخنزير ! •• كان يجب أن أذهب اليه وأقتله فى الحال ! ••

زم مسيو دنيزيه شفتيه ، متأثرا بالاخلاص الواضح فى كلام المتهم .. لامفر له أن يتقدم بشىء من الحذر .. ان خصمه أقوى مما كان يقدر •.

ـ نعم .. أنا أعرف القصة المخجلة التى طبختها أنت والفتاة .. دعنى أبين لك أن حياة مسيو جرانموران كلها تضعه فوق مثل هذه الاتهامات .

فقال كابوش متلعثما :

ـ ماذا ؟ تقول ؟ ماالذى طبخناه ؟ أنت تتهمنى بالكذب •• لكن الاخرين هم الكاذبون ! ••

ـ هيا الان ، ولا تتظاهر بالبراءة ! •• اننى استجوبت ميزار ، الرجل الذى تزوج أم عشيقتك •• اننى سوف أواجهك به اذا دعت الحاجة ، وعند ذلك سوف يمكنك أن ترى ما هو رأيه فى قصتك •• ثم لتحذر ما تقوله •• عندنا شهود ، ونحن نعرف كل شىء ، والافضل أن تخبرنا بالحقيقة ••

كان هذا أسلوب السيد دنيزيه وتكتيكه المعهود ؛

حتى ولو لم يكن يعرف شيئا ولم يكن لديه شهود ..

هل تنكر انك قلت مرارا أمام الناس انك سوف تقتل مسيو جرانموران ؟

ـ لا •• لا أنكر هذا •• انى قلت هذا الكلام فعلا .• وكنت أعنيه .. وكانت أصابعى تلتهب فعلا للوصول اليه ! ••

ان مسيو دنيزيه الذى كان يتوقع منه أن ينكر كل شىء ، فوجىء مفاجأة اذ ألفاه يعترف بتهديداته •• ترى أية لعبة يلعبها هذا الرجل ؟ لقد أخلد دنيزيه الى التأمل برهة خشية أن يكون قد تسرع فى خطواته ، ثم ما لبث فجأة أن تطلع اليه مواجهة وسأله :

ـ ماذا كنت تفعل فى ليلة ١٤ فبراير ؟

ذهبت للنوم حوالى الساعة السادسة ، حالما جاء الظلام •• كنت أشعر بالاعياء الشديد حتى طلبت الى ابن عمى لويس أن ينقل حملا من الاحجار الى دوانفيل بدلا منى •.

ـ نعم • ان ابن عمك شوهد وهو يعبر الشريط مع عربته • لكن عندما استجوبناه فان كل ما أمكنه أن يقوله لنا هو أنك تركته حوالى الظهر وأنه لم يرك بعد ذلك •• أثبت لنا أنك كنت فى فراشك فى الساعة السادسة !

ـ كيف يمكننى اثبات هذا ؟ ! •• اننى أعيش فى كوخى فى وسط الغابة ! •• أقول لك انى كنت هناك . وأن هذا هو كل الموضوع !

ـ لا بأس اذن • سأقول لك ماذا كنت تفعل ليلة ١٤ فبراير ••

ولاح وجه السيد دنيزيه صارما بالعزم والتصميم وهو يصف الموقف :

ـ انك ركبت قطار الساعة الثالثة من بارنتان الى

روان ، لماذا ، لا ندرى ٠٠ ودبرت أن تعود بالقطار الذى يغادر روان فى الساعة التاسعة وثلاث دقائق ٠٠ وكنت على رصيف المحطة ضمن الجمهور عندما شاهدت مسيو جرانموران فى مقصورته الخاصة ٠٠ لاحظ أننى لا أتهمك بسبق الاصرار ٠٠ انك قررت أن تقتله بدافع وقتى ٠٠ وفى اللحظة الاخيرة انتهزت فرصة الهرج وصعدت الى مركبته ٠٠ وجعلت تنتظر الى أن صار القطار فى نفق مالونى ، لكنك أسأت التقدير لان القطار كان بسبيل محطة بارنتان ٠٠ هذا هو ما فعلته !

وجعل يراقب كابوش بوجهه الضخم الاحمر ، فما أهاجه الا أن رآه ينفجر ضاحكا ويقول :

ـ هذه حكاية جميلة ! ٠٠ أقول لك لو أنى فعلت هذا لقلته بالحرف الواحد !

ثم انحاز الى الهدوء وأردف قائلا :

ـ انى لم أرتكب هذه الفعلة ، لكن كان يجب أن أفعلها ٠٠ نعم ، وأنا آسف لانى لم أفعلها !

وكان هذا هو كل ما استطاع مسيو دنيـزيه أن يستخلصه منه ٠٠ لقد راح يكرر أسئلته ، ويغطى نفس النقط بشتى الاساليب عديد المرات ، ولكن دون جدوى ٠٠ لا ٠٠ لا ! ٠٠ لا ،مراراوتكرارا ! ٠٠ ان كابوش ببساطة كان يهز كتفيه ويقول ان هذا كله بلاهة ! ٠٠ انهم عندما قبضوا عليه فتشوا كوخه ولم يعثروافيه لاعلى السلاح ولا النقود .. بل ما وجدوه هو بنطلونا عليه قطرات من الدم ٠٠ يا له من دليل عظيم! ٠٠ ان كابوش ضج مرة أخرى بالضحك ٠٠ ان الدم كان من أرنب برى جرح وهو يخرجه من فخ وقع فيه !

كان قاضى التحقيق هو الذى شعر بالارض تميد تحت قدميه ، لانه كان مرة أخرى حاذقا أكثر من اللازم ،وأبى

أن يأخذ بالحقيقة البسيطة التى كـانت تحت أنفـه مباشرة ! .. كان يعلم أن المتهم محدود الذكاء ، غيرأهل لان يطاوله ويصمد أمامه فى معركة الدهاء ، ومع ذلك فان هذا الرجل بانكاره الصريح الثابت كان يربكه ٠٠ لكن لابد أن يكون مدانا ٠٠ ان كل انكار من جانبه كان يزيد من سخطه ، ولكن لابد من أن يغلبه فى النهاية ٠٠

هكذا نهض قاضى التحقيق وتقدم الى باب الغرفة المجاورة واستدعى جاك لانتييه ٠

ـ هل تعرف هذا الرجل ؟

ـ نعم ، أعرفه ٠٠ انى رأيته فى بيت ميزار ٠

ـ هل تعرف فيه الرجل الذى شاهدته فى القطار ، القاتل ؟

تردد جاك .. انه لم يعرف فيه القاتل ، الذى بدا له أقصر وأكثر سمرة ٠٠ وقد هم أن يقول هذا ، عندما خطر له أن هذا قد لا يكون من الحكمة ٠٠ ومرة أخرى عاد الى المراوغة ، فأجاب :

ـ لا أعرف ٠٠ لا يمكننى أن أقول هذا ٠٠ أقول لك ياسيدى انى لا أستطيع أن أعرف ٠

ودون أن يضيع دنيزيه وقتا آخر معه ، فانه استدعى الزوجين روبو مرة أخرى ٠

ـ هل تعرفان هذا الرجل ؟

ان روبو قد ذهل من المشابهة بين الرجل وبين القاتل الوهمى الذى ذكر أوصافه ، الى حد أنه لم يدر بماذا يجيب ٠

ـ تكلم الان .. هل تعرفه ؟

ـ لا بأس يا سيدى ٠٠ كما قلت من قبل ، كان مجرد شخص لامس كتفى فى مروره بى ٠٠ كان بالقطع طويلا ، وأشقر ، وأمرد ٠

— لكن هل هذا هو الرجل ؟

— لا يمكننى أن أقول تأكيدا ٠٠ لكنه يشبهه ٠٠ يشبهه كثيرا فى الواقع ٠

عند هذا الحد بدأ كابوش يسب ويلعن ٠٠ انهم يعملون على الايقاع به بحكاياتهم الملفقة السخيفة ٠٠ انه لم يفعل هذه الفعلة وهذا كل شىء ؟ والان فان كل ما كان يريده هو أن يتركوه يذهب .. لقد اندفع الدم الى وجهه وأطبق قبضتيه ٠٠ ان حالته أصبحت مهددة تنذر بالخطر ، حتى لقد استدعى دنيزيه الجنديين وأمرهما أن يذهبا به ٠ لكن اظهار العنف على هذه الصورة هو كل ماكان يحتاج اليه السيد دنيزيه — ان الوحش المحاصر بدأ الآن يقاتل ٠٠ لقد زاد اقتناعا بأن هذا الرجل مدان ٠٠

تبادل الزوجان روبو النظر فى صمت ٠٠ لقد انتهى كل شىء ٠٠ لقد أصبح القاتل فى أيدى العدالة ، ونجوا هما ٠ ان ضميرهما كان قلقا بسبب الدور الذى اضطرتهما الاحداث الى القيام به ، ولكن أى تحرج شعرا به لم يلبث أن طوح به فى غمرة جارفة من الارتياح والفرح .. لقد ابتسما الى جاك ، وانتظرا من قاضى التحقيق أن يدعهما يخرجان الى الهواء الطلق ٠٠ ولكن فى هذه اللحظة ظهر الحاجب ومعه رسالة ٠

جلس مسيو دنيزيه الى مكتبه وبدا أنه نسى الشهود وهو يقرأ الرسالة ، كانت من وزارة العدل فى باريس ، وبدا له منها أنه كان يجدر به أن ينتظر التوجيهات قبل أن يمضى قدما فى تحقيق القضية ٠ وقد شعر بوجهه تسرى فيه برودة وتصلب وهو يمضى فى قراءة الرسالة ٠٠ أن زهو انتصاره قد تبخر الان ، اذا كان ثمة انتصار قط ٠٠ وفى موضع من القراءة صوب نظرة جانبية على الزوجين روبو ، وكان شيئا فى الرسالة قد ذكره فجأة

بوجودهما ٠ ٠ ولما فطنا الى نظرته زلزل كيانهما ٠٠ هل كتب عليهما أن تكون فرحتهما قصيرة العمر ؟ هل كان الفخ يطبق عليهما من جديد ؟ لماذا نظر اليهما على هذه الصورة ؟ ٠٠ ترى هل استطاعوا العثور على تلك الرسالة المثبتة للادانة التى كتبتها سيفرين ؟ ٠٠ انهما زادا قلقا وهما يراقبان وجه مسيو دنيزيه وهو يزيد تجهما ٠

واخيرا ترك الرسالة على مكتبه وجلس برهة مستغرقا فى التفكير .. ثم ما لبث أن نظر اليهما وقال :

— لا بأس ٠٠ سنرى ٠٠ سوف نعود الى هذا كله فيما بعد .. يمكنكما أن تذهبا الان

ولكن فيما هما يخرجان ، لم يستطع أن يقاوم الحاجة الى استجلاء نقطة معينة كانت تهدد الان بتدمير قضيته التى بناها بعناية فالتفت الى جاك قائلا :

— انتظر هنا لحظة يامسيو لانتييه ٠٠ عندى سؤال آخر لك ٠

وفى الردهة وقف الزوجان روبو ٠٠ ان الابواب كانت مفتحة امامهما واصبحا يستطيعان الذهاب الى حيثما يشاءان ٠٠ لكنهما وقفا مكانهما لا يستطيعان التحرك حتى يعرفا ماذا يدور فى غرفة قاضى التحقيق .. وما لبثا أن راحا يذرعان الردهة جيئة وذهابا وهما يشعران أن سيقانهما قد تتزايل من تحتهما فى أية لحظة ٠٠ ثم تهالكا صامتين فوق المقعد الخشبى مرة أخرى حيث جلسا ينتظران طويلا من قبل ٠

وعندما خرج جاك ، استوى روبو على قدميه متصلبا ، وقال له :

— اننا كنا ننتظرك ، سوف نسير الى المحطة سويا ، الا

ترى هذا ؟ قل لى ، ماذا حدث ؟

بدا جاك مرتبكا ، وتحول بنظراته وكأنما يحاول ألا ينظر الى سيفرين ·· وأخيرا قال :

ـ انه غير متأكد الان · انه يبدو كمن يتحسس طريقه فى الظلام · لقد سألنى ألم يكن هناك اثنان ارتكبا الجريمة ·· ونظرا لاننى سبق أن أشرت الى وجود جسم قاتم فوق ركبتى الرجل العجوز ، فانه سألنى عن هذه النقطة مرة ثانية ·· يبدو أنه يظن أنها السجادة ،ولهذا استحضرها وسألنى عن رأيى ·· ربما كانت هى ·· لا أدرى ·

ارتعد الزوجان ·· اذن فهم لا يزالون يجدون فى أثرهما ·· اذن فلن يكون هناك سلام ولا سكينة ·· كلمة واحدة من هذا الشاب يمكن أن تقضى عليهما .. ذلك لانه من المحقق أنه يعرف ، ولسوف يتكلم ان عاجلا او آجلا ·· وخرج الثلاثة من المحكمة صامتين ·· وفى الشارع قال روبو :

ـ بهذه المناسبة يا جاك ، ان زوجتى مضطرة للسفر الى باريس قريبا ·· فهلا تكرمت أن تعنى بها مدة وجودها هناك ؟

● ● ●

الفصل الخامس

ما كاد القطار السريع القادم من الهافر يصل الى محطة سان لازار فى باريس حتى وثبت سيفرين الى الرصيف برشاقة وأسرعت تشق طريقها بين الركاب الى مكان القاطرة ·

كان جاك واقفا فى مكان السائق يقطر بللا من أثر المطر الذى انهمر أغلب الطريق ، بينما وقف مساعده بيكيه الوقاد يصقل المفاتيح بخرقة فى يده ·

قالت سيفرين منادية جاك من مكانها :

ـ اتفقنا اذن · سأكون فى شارع كاردنيه فى الساعة الثالثة ، وعندئذ يمكنك أن تقدمنى الى رئيسك لكى أشكره ·

كان هذا هو المبرر الذى انتحله روبو · انها ستذهب الى رئيس مخزن السكة الحديد فى باتنيول لكى تشكره على خدمة تافهة أسداها اليه · وبهذه الكيفية يمكن أن تبقى تحت رعاية جاك باقى النهار ، وفى هذا ما يهىء لها فرصة لكى تصاحبه وتوثق صلتها به ·

لكن جاك المتسخ بالفحم ، المبتل حتى العظام ، المجهد الى أقصى حد لكفاحه طوال الطريق ضد الريح والمطر ، نظر اليها بعينين جامدتين ، ولم يجب ·· انه لم يعرف كيف يرفض طلب زوجها ، ولكن فكرة وجوده وحده معها ملأت نفسه انزعاجا ، ذلك لانه عرف الان أنه يريدها ·

على أنها حين كررت ذكر الموعد ، لم يتمالك أن أكد

لها انه سيكون هناك فى الوقت المحدد .
ولما خرجت من المحطة رأت أن تتناول طعام الغداء أولا ، فدلفت الى مطعم قريب وطلبت طبقا من البيض المقلى وشريحةلحم مشوى وجلستتأكل ببطء ، وفى أثناء الطعام طالعتها الافكار التى كانت تطوف بخيالها منذ أسابيع • كان وجهها شاحبا متطاولا ، وقد ذهبت عنها الابتسامة المغرية .
ان روبو قرر بعد يومين من استدعائهما الاخير الى محكمة روان أن يرسلها دون تأخير لزيارة سكرتير عام وزارة العدل ، مسيو كامى لاموت ، لا فى مكتبه فى الوزارة ، بل فى منزله بشارع روشيه ، المجاور للمنزل الذى كان يملكه القاضى جرانموران •• أن هذين السيدين البارزين كانا صديقين حميمين ، ولما كانت سيفرين قد التقت مرارا مع مسيو كامى لاموت عندما كانت تنزل ضيفة على جرانموران فى الضيعة ، فلم يكن ثمة مانع من أن تسعى الى تجديد تعارفها القديم به • ان فى هذا فائدة كبرى للزوجين روبو بسبب الموقف الخطر الذى وجدا نفسيهما فيه •
وبالامس فقط جد سبب آخر للقلق والانشغال جعل هذه الرحلة الزم من كل وقت ، فمن خلال الاشاعات التى دارت فى محطة الهافر كانت هناك اشاعة نسجتها مدام لوبليه وفيليمين تقول أن الشركة اعتبرت روبو متورطا كثيرا فى قضية جرانموران وأنها تنوى فصله من العمل • وكان الاسوأ من هذا أن مسيو دباديه ناظر المحطة لم يستطع أن ينكر هذه الاشاعة عندما سئل عنها • فكان من الضرورى اذن أنتبادر سيفرين بالذهاب الى باريس لتفسير الموقف وللحصول على تأييد تلك الشخصية الكبيرة النفوذ •
ولكن من وراء هذا كله كان هناك باعث آخر أشد الحاحا

لاتمام هذه الرحلة •• هو الحاجة الماسة المضطرمة لمعرفة اين يقفان ، الحاجةالتى تدفع المجرم الى فضح نفسهعلى ان ينتظر وهو لا يعرف ما سوف يحل به •• ومنذ أن اخبرهما جاك أن الاتهام يشتبه فى قيام اثنين بارتكاب الجريمة ، فان هذا الاشتباه بدأ يعتصر خياتهما •• لقد راحت التصورات تحدق بهما من كل جانب وتمزق نفسيهما .. ربما عرف أمر الرسالة .. ربما عرفت الحقائق كاملة .. وفى كل ساعة كانا يتوقعان أن يتم تفتيش مسكنهما ، بل أن يتم القبض عليهما •• ان أتفه حادث أصبح شيئا مهددا مستطيرا •• رباه ! •• من لهما بمن يعرفهما بالحقيقة !
وغادرت سيفرين المطعم وسارت فى الطريق مسرعة الى غايتها •• انها كانت تحب دائما كلما جاءت الى باريس ان تطوف بالمحال التجارية وتتفرج على المعروضات وتتسلى باستعراض الواجهات المنسقة المغرية ، اما اليوم قد شعرت بأنها ضائعة مهددة ، وكان قصارى غايتها ان تتم مهمتها وتعود الى دارها بأسرع ما تستطيع •
وفى طريقها مرت بمنزل جرانموران ، فرأته صامتا مهجورا موصد النوافذ ولم تدر ما الذى دفعها الى أن تلقى عليه نظرة ثانية بعد ان تجاوزته ، ولكنها عندما فعلت ذلك ، لمحت مسيو دنيزيه قاضى التحقيق فى روان سائرا فى نفس الاتجاه ، على الرصيف المقابل .. لقد انزعجت حقا •• ترى هل أبصرها ، لكنه تابع طريقه بهدوء ، وهكذا تركته يتقدمها وجعلت تتبعه فى قلق •• ثم كانت هناك صدمة ثانية فى انتظارها ، فانه عندماوصل الى منزل مسيو كامى لاموت ، وقف ، وقرع الجرس •
ارتاعت سيفرين ، واندفعت فى شارع مجاور فلم

تتوقف حتى وصلت الى كوبرى السكة الحديدية ٠٠ كيف يمكنها اتمام الزيارة الان ؟ ٠٠ لقد وقفت مستندة الى سور الكوبرى ، وجعلت تحدق مذهولة فى المحطة الضخمة ذات الحركة الكبيرة من تحتها ٠٠ لابد ان قاضى التحقيق جاء فى امر يتعلق بالجريمة ٠٠ لابد انهما يتكلمان عنها الان .. ربما كان مصيرها يبت فيه الان وفى هذه اللحظة . وفى دوامة اليأس شعرت بدافع فجائى لالقاء نفسها من فوق الكوبرى تحت أحدالقطارات المارة ، على ان تعود الى شارع روشيه ٠٠ لكن اذا رجعت خاوية اليدين ، وليس معها سوى ذلك العبء الثقيل من القلق والعناء والخوف ، فما اضيع رحلتها ، وما اشد ما سوف تكابده بعد ذلك ٠٠ وانتظرت خمس دقائق لتتمالك اعصابها ٠ وابتعدت بنظرها عن القطار المار من تحت قدميها وسرحت بنظرها الى أعلا .. حانت منها التفاتة الى اليسار عرفت نافذة فكتوار وتذكرت كيف أطلت منها مع زوجها قبل ذلك المشهد المروع ، ذلك المشهد الذى أثار كل هذه الكوارث .. كأن ذلك مدعاة الى تفكيرها من جديد فى الخطر الراهن الذى يحدق بها ، وفجأة شعرت بأنها على استعداد للمخاطرة بكل شىء لكى تنتهى من هذا كله .. ومرة أخرى اتجهت الى شارع روشيه ، وفى هذه المرة كانت تسير بخطوات اليائس المصمم على الانتحار .

فتح لها الباب خادم وسألها عن اسمها ثم قادها الى غرفة داخلية ٠٠ ومن خلال الباب نصف المفتوح استطاعت أن تميز بوضوح صوتين يتحدثان ، ثم كان صمت مفاجىء ولم تعد تسمع شيئا سوى دقات قلبها ٠ وعاد الخادم مرة ثانية وادخلها غرفة أخرى ٠٠ ان قاضى

التحقيق لم ينصرف ولاشك ٠٠ لابد انه مايزال موجودا .. ربما كان مختبئا خلف أحد الابواب !

ألفت نفسها فى قاعة كبرى للمكتبة تكسوها السجاجيد الثقيلة والاثاث المتين ، وكانت الجدران شديدة السمك والنوافذ محكمة الى حد أنه لم يكن ينفذ صوت من الخارج . وكان رب الدار واقفا أمامها مرتديا الفراك وكان نحيلا مجعد الوجه أشيب العارضين ، ومن خلف تجهم هيئته الرسمية لاحت ابتسامة يسيرة .

لم يتقدم مسيو كامى لاموت للقائها ، ولم يدعها للجلوس ، وبدا انه يريدها ان تبدأ الكلام ٠٠ وساد صمت ريثما استجمعت سيفرين نفسها ثم أخذت تقول :

– هل لى ان أنعش ذاكرتك ياسيدى بان أذكرك انى تشرفت بمقابلتك فى دوانفيل ؟ انها كانت أيامى السعيدة، اما الان وقد حلت الايام المحزنة فلم يعد لى الا أنت ٠٠ اننى اتوسل اليك ياسيدى باسم الصديق الذى فقدناه،ان تحل مكانه وتأخذ بيدى .

كانت نبراتها سوية ، لا مبالغة فيما ابدته من ابتهال او حزن ٠ فأشار اليها مسيو كامى لاموت بالجلوس وجلس هو ايضا ، وانتظر ان تتابع كلامها ، وعرفت انه يريد ان تطرق صميم الموضوع ٠

لقد بدت له موفورة الجاذبية والاخلاص حتى لقد سكنت شبهاته وقتيا أنه كان يعرف كل شىء عن علاقتها بصديقه القاضى جرانموران ولابد أن الرسالة التى اكتشفها بين أوراقه صادرة منها . أنه قطع حديثه مع مسيو دنيزيه لكى يصل الى تأكيد ما يظن أنه يعرفه هو فعلا . ولكنه عندما شاهدها

هنـا فى مثـل هـذه الرقة وهـذا الحيـاء ، كان من الصعب ان يعتقد انها مدانة بجريمة القتل ٠٠ ومهما يكن فقد أراد أن يستجلى الامر كله بصدد غرضها من هذه الزيارة ولهذا قال لها دون أن يلين :

ـ هلا أوضحت كلامك يا سيدتى بشىء من التفصيل انني اتذكرك جيدا . وانا لا اطلب أكثر من مساعدتك اذا كانت فى طاقتى .

انشأت تبين له فى ايجاز ووضوح كيف أن زوجها مهدد بالفصل ٠٠ ان الناس يحسدونه ، بسبب مواهبه الشخصية من ناحية ، وبسبب الرعاية التى كان يتمتع بها من ناحية اخرى ٠٠ اما الان وهو أعزل من كل رعاية وحماية ، فانهم لا يتورعون عن شىء كى يقضوا عليه .. وهى ما كانت لتأتى الى باريس اليوم لو لم تكن مقتنعة بالحاجة الماسة الى عمل سريع ٠٠ لوجاء الغد لكان بعد فوات الاوان .. انها تحتاج الى المساعدة الان .. والواقع انها اوضحت له كل هذا بدرجة كبيرة من الاقناع بدا له بعدها أنه يستحيل أن يكون باعثها الى الرحلة شىء غير هذا .

وكان مسيو كامى لاموت يتأملها بامعان ، من اول شىء بها الى تلك الاختلاجة اليسيرة فى شفتيها ٠ ومالبث أن وجه اليها سؤاله الاول المباشر :

ـ لكن لماذا تريد الشركة ان تفصل زوجك ؟ لا شك انه لا يوجد شىء خطير ضده ؟

وكانت هى تراقبه بدورها فى امعان ، وهى تتساءل طول الوقت الا يكون قد وجد الرسالة .. وبرغم البراءة الظاهرية فى سؤاله ، فقد خامرها اقتناع مفاجىء بأن الرسالة موجودة لديه ، وربما كانت فى هذه الحجرة

ذاتها ٠٠ وقد يكون سؤاله شركا يعرف منه ان كانت ستعترف بالسبب الحقيقى بالفصل الوشيك ! ؟

لقد واجهت هذه اللحظة الخطرة بشجاعة وأجابت قائلة :

ـ هذا شىء لا يكاد يصدق ياسيدى ، ولكن هناك من يشتبهون فى أننا قتلنا الرجل المحسن الينا بسبب الوصية التعسة ٠٠ اننا استطعنا بسهولة ان نثبت براءتنا ٠٠ ولكنك تعرف كيف يلتصق الوحل ، وربما كانت الشركة على خوف من الفضيحة ٠

ومرة ثانية ألفى نفسـه فى حيرة ازاء صراحتهـا واخلاصها البادى ، ورغم انه لم يتأثر اول الامر بمظهرها الجسدى ، فقد بدأ الان يرى عينيها المستعطفتين تحت شعرها الفاحم الغزير جذابتين يقينا ، وكاد يشعر بغيرة ممزوجة بالاعجاب من صديقه جرانموران الذى كان يكبره بعشر سنوات كيف أتيح لهذا الصديق أن يحظى بمثل هذه النساء الجميلات . فى حين أنه هو قد اضطر الى نبذ هذه المباهج خوفا من أن يجور على صحته ؟ ! فى الحق أنها كانت فوارة الجاذبية شديدة الاغراء ، ولاول مرة فان وجهه الرسمى البارد أضاءته ابتسامة .

ورأت سيفرين هذا فزادت جراة وقالت :

ـ إن اناسا مثلنا ياسيدى لايقتلون من اجل المال لابد لنا من دافع آخر ولم يكن عندنا مثل هذا الدافع .

كان يراقبها ورأى زاوية فمها تختلج ٠٠ آه ! اذن فهى مدانة آخر الامر ! ٠ انه واثق من هذا الآن ٠٠ لقد اختفت ابتسامته وأطبق شفتيه .. أدركت فى الحال انها تكلمت

اكثر من اللازم ٠٠ وشعرت بانها توشك ان يغمى عليها بيد انها جاهدت للجلوس مستقيمة فى المقعد ٠٠ وسمعت صوتها يتفوه بالكلمات المناسبة بنفس النبرات السوية . ان الحوار استمر بينهما لكنه لم يبق ثمة كلام يقال ٠٠ انهما كانا يفكران فى الاشياء التى لم تكن تقال ٠٠ ان الرسالة عنده ، وهى التى كتبتها ! ٠٠٠ قال لها أخيرا :

ـ سيدتى ٠ اننى لن ارفض بذل كلمة لدى الشركة إذا كنتم تستحقون حقا مساندتى ٠ ان مدير المستخدمين سيحضر لمقابلتى هذه الليلة فى مسألة أخرى ٠٠ لكننى سأحتاج الى بعض التفاصيل ٠ فهلا كتبت اسم زوجك كاملا ، مع سنه ، ومدة خدمته واية بيانات اخرى ذات قيمة ٠

ودفع اليها بخوان صغير دون ان ينظر اليها ٠٠ فراحت تجاهد مستميته للبحث عن عذر لتجنب كتابة اى شىء .. ثم ذكرت لنفسها : ولم لا ، مادام يعرف على اى حال ؟ وهكذا وبهدوء ظاهرى ، كتبت له ما طلب بينما كان واقفا خلفها ورأى أن الحظ هو نفسه فى الواقع ٠٠ يالها من شجاعة جسورة حقا ، هذه المرأة الشابة الطيعة ! ٠

ـ اعطنى هذه الورقة يا مدام ، وسوف أفعل ما يمكننى ٠

ـ اننى شديدة الامتنان لك ياسيدى ٠٠ انك لن تدعهم يفصلون زوجى ، اليس كذلك ؟

ـ لا بأس لا أستطيع أن أعد وعدا قاطعا .. لنفكر فى الامر اذا أمكنك أن تعودى الى فى الساعة الخامسة فربما كانت عندى أخبار لك فى هذا الوقت .

وغادرت المنزل فى حال اسوأ مما دخلته ٠٠ ان الموقف

الان اكثر تحديدا واحفل بالشر ٠٠ انها اصبحت مهددة بالقبض عليها قريبا .. كيف يمكن بالله أن تطيق هذا كله حتى الساعة الخامسة ؟ .. فجأة تذكرت موعدها مع جاك ـ شخص آخر يمكن أن يقضى عليها ! .. لم تكن الساعة قد بلغت الثانية والنصف ، ولكنها اسرعت قاصدة الى شارع كاردينيه .

بعد ان خرجت سيفرين ، وقف مسيو كامى لاموت امام مكتبه بوصفه سكرتيرا عاما لوزارة العدل ، كان مدركا تمام الادراك مدى القلق الذى كانت قضية جرانموران تسببه فى الدوائر العليا أن صحف المعارضة مازالت ماضية فى حملتها الصاخبة ، بعضها يتهم البوليس بتركيز نشاطه وتسخير قواه للتجسس السياسى حتى اصبح لا يجد فى الوقت متسعا لاعتقال القتلة ، وبعضها يخوض فى الحياة الشخصية للقاضى القتيل وينشر تلميحات مؤداها انه هاهو ذا صاحب شخصية كبيرة المقام انغمس فى شر الوان الفجور .. ان هذه الحملة ، والانتخابات على الابواب ، كانت تهدد بكارثة ٠٠ ومن اجل هذا اعطى السيد كامى لاموت كامل المسئولية للتصرف فى هذه القضية الدقيقة ، بأسرع ما يمكن ولا يهم على أى وجه يكون .. انه لابد له وحده من اتخاذ القرارات ويتعين عليه أن يتوسل بأقصى الحرص وأتم الحذر .. ولو أنه وضع قدمه موضعا خاطئا ، فسيكون عليه كذلك أن يدفع الثمن لا ثمن خطئه فحسب ، بل كذلك أخطاء الاخرين .

ثم فتح كامى لاموت وما زال غارقا فى أفكاره باب الغرفة التى كان دنيزيه ينتظر فيها .. انه سمع كل الحوار الذى دار مع سيفرين وعندما دخل الى حجرة المكتبة قال :

— قلت لك هذا . اننا كنا على خطأ فى الاشتباه فى هذين الزوجين .. ان المرأة لا تزيد عن كونها تحاول انقاذ زوجها من الفصل . انها لم تذكر كلمة واحدة يمكن ان تدينهما .

لم يجب السكرتير العام فى الحال .. ان هذا الرجل عنيد أحمق فى توكيده بأنه يعرف الجواب على كل سؤال .

سأله : اذن فأنت ما زلت ترى أن كابوش هو الجانى ؟

— بالطبع ! ان كل شىء يشير اليه .. انها قضية مثالية اذا جاز هذا التعبير ، انى تحريت موضوع احتمال وجود امرأة فى مقصورة القطار ، ولكن الرجل ، وهو سائق قطار ، الذى لمح القاتل عدل عن أقواله الاصلية وأقر بأن الجسم القاتم الذى رآه لابد أنه سجادة أجل أن كابوش هو الجانى ، ما فى ذلك شك !

كان مسيو كامى لاموت ينتظر حتى الان أن يطلع دنيزيه على الدليل الكتابى الذى يثبت ادانة الزوجين روبو ، أما الان وقد استحوذ على هذا الدليل كاملا قد شعر بأنه أقل استعدادا من أى وقت سابق لاماطة اللثام عن الحقيقة .. لماذا يبعد الاتهام عن طريقه المضلل ، اذا كان الطريق الصحيح سيؤدى الى ارتباكات أشد ؟ لابد له من وقت يفكر فيه .. وقد قال وهو يبتسم باعياء :

— انى على استعداد لكى اسلم بانك قد تكون على حق يادنيزيه وما طلبت اليك المجىء الا لكى نتدارس بعض النقط الاخرى . ان هذه القضية قضية غير عادية ، والان قد اصبحت مشكلة سياسية ... انك تدرك هذا ، اليس

كذلك واذن فقد نجد انفسنا مضطرين الى العمل كسياسيين .. قل لى بصراحة .. هل ادت تحرياتك الى اثبات أن الفتاة لويزيت اغتصبت ؟

ضم قاضى التحقيق شفتيه واختفت عيناه أو كادتا تحت أجفانه الثقيلة وأجاب :

— فى الحق انى اعتقد ان القاضى جرانموران حاول هذا ولابد أن ينكشف هذا فى المحاكمة .. واذا وكل الدفاع الى محام من صفوف المعارضة فلنا أن نتوقع ظهور قصص كثيرة قذرة .. اننا لا نعدم امتلاء جانبنا بهذا النوع كما تعرف ..

هكذا بدا أن دنيزيه لم يكن متبلدا ضيق الذهن متى ابتعد عن روتين المهنة . لقد فهم تمام الفهم لماذا استدعى لا الى الوزارة بل المسكن الخاص للسكرتير العام ..

وقد أومأ كامى لاموت برأسه مؤمنا ومؤيدا .. انه كان يحسب حساب النتائج التى تترتب على تقديم الزوجين روبو الى المحاكمة ... لو ان الزوج مثل امام المحكمة لكان من المؤكد ان يقول كل شىء .. يذكر كيف ان زوجته ايضا غرر بها فى صغرها وكيف انه ارتكب جريمة القتل فيما هو المظنون فى نوبة غيرة جنونية . وهكذا لا تبقى القضية مسألة خادمة ومسجون من أرباب السوابق .. ان روبو رجل فى مركز معروف وله زوجة حسناء .. ومن شأن قضية كهذه أن تضع قطاعا كبيرا من الطبقة المتوسطة ومن عالم السكك الحديدية فى وضع سيىء .. ناهيك برجل مثل القاضى جرانموران ! .. انهم قد يكشفون القناع عن أشياء أخرى تكون أكثر صدمة للرأى العام وأفدح أثرا بل قد يكون الضرر الذى يترتب عليه

القبض على روبو أبلغ كثيرا من القبض على كابوش
قال كامى لاموت فى النهاية :

ـ لا بأس . انى معك فى الرأى يا دنيزيه من المؤكد أن هناك قضية قوية ضد عامل المحاجر اذا كانت له مظلمة شرعية .. لكن شد ما يكون أمرا غير مرغوب فيه أن يكون هناك اضطرار لاثارة الفضائح ونثر كل هذا الوحل ! .. انى أعلم أن العدالة لابد أن تتم دون نظر الى النتائج أو اعتبارات المصلحة الذاتية لكن .

واتم عبارته باشارة ، بينما جعل قاضى التحقيق ينتظر الاوامر التى كان يعلم انها آتية .. انه بعد أن وضع دعائم الحقيقة بعمق فهمه وذكائه ـ كما كان يظن ـ فهو مستعد الان للتضحية بفكرة العدالة ـ على نزع المطالب الحكومية .. ولكن السكرتير العام ، بالرغم من واقعيته فى هذه الامور ، كان متعجلا شديد التعجل، وكان يتكلم بأسلوب شخص تعود أن يطاع .. اذ قال :

ـ الواقع اننا نريد وضع القضية على الرف .. يجب أن ترتب الامور وفقا لهذا .

فقال دنيزية : ـ عفوا ياسيدى ان الامر لا يتوقف على بل على ضميرى .

فابتسم السيد كامى لاموت وراح يقول :

ـ ولكن هذا طبيعى . انما هو ضميرك الذى أتحدث اليه . اننى أترك لك أن تتخذ تلك القرارات التى يمليها عليك، موقنا انك سوف تزن القضية بتلك الكيفية التى تكفل انتصار الفكر السديد والمثل الاخلاقية العامة .. انك لتعلم خيرا منى انه أحيانا يكون أكثر حكمة تقبل شر لابد منه اذا كان مثل هذا العمل يؤدى الى اجتناب أسوأ

الشرين .. اننا فقط نناشد فيك المواطن الصالح والرجل الفاضل الخير .. ما من أحد تحدوه أدنى رغبة للتأثير على قرارك ، ولهذا فانى أكرر أنك صاحب السيطرة المطلقة على القضية ، كما يطلب منك القانون أن تكونه حقا .

والحق أن قاضى التحقيق، الذى كان معتزا بهذه القوة ، خصوصا وقد كان يوشك أن يسىء استخدامها، كان يؤمن على كل جملة بايماءة راضية من رأسه .

على حين تابع الاخر كلامه ، فراح يقول وقد شفت رقته المبالغ فيها على حد السخرية :

ـ وفضلا عن ذلك ، فمع شخصية مثلك ، فاننا نعرف نموذج الرجل الذى نتعامل معه .. اننا كنا نتابع أعمالك منذ وقت طويل ، ويسوغ لى أن أقول أننا سوف نستدعيك الى باريس فى الحال اذا وجدنا أحد المناصب الشاغرة ..

تململ السيد دنيزيه فى مقعده .. ما معنى هذا ؟.. لو أنه فعل ما هو مطلوب منه ، أفلا يحققون اذن طموحه الكبير ، حلمه بمقعد فى محاكم باريس ؟ .

ولما لاحظ كامى لاموت رد الفعل فى نفسه ، استطرد يقول :

ـ ان مكانك محجوز لك هنا ، والمسألة مسألة وقت فقط . ونظرا لانى قلت لك ما قلته ، فيسوغ لى أن أخبرك بأن اسمك سوف يرفع للعرض فى الخامس عشر من أغسطس .

فكر السيد دنيزيه بسرعة البرق ورأى أن فى هذا نهاية للفقر المستور ، وتصور دولاب ملابسه وقد امتلا

بالجديد، وزوجته الحبيبة ميلانى وهى افضل تغذية واقل الحاحا فى الشكوى ·· وهكذا قال:

ـ اننى متأثر جدا ·· ممتن جدا ·· ارجو ابلاغ الوزير هذا ·

ونهض قائما وقد شعر ان أى مزيد من الحديث بعد هذا لا يمكن ألا ان يكون احراجا لكليهما · وقال فى النهاية :

ـ حسنا ياسيدى · اننى ساختتم تحقيقى ، واضعا آراءك نصب عينى ·· وطبيعى اننا اذا لم نجد دليلا حاسما ضد كابوش ، فالافضل ان نتجنب الفضيحة التى لا فائدة منها بتقديمه الى المحاكمة ·· فى الامكان أن نفرج عنه ، ولكن نستمر فى مراقبته ··

● ● ●

وفى هذا الاثناء كانت سيفرين تبكر فى الذهاب الى موعدها مع جاك ·· انه كان يقيم فوق سطح مبنى مرتفع فى غرفة صغيرة لم يكن يستخدمها الا للنوم ليلا · لكنه اليوم ذهب اليها وهو مجهد مبلل ، فانطرح فى الفراش واستغرق فى النوم · ولو لم يستيقظ على شجار الجيران لظلت سيفرين تنتظره دون طائل · فقام واغتسل ولبس وهو متضايق ساخط ، ورآها من غرفته وهى تنتظر على الرصيف ·

وعندما نزل اليها هتفت قائلة :

ـ هذا أنت أخيرا ! ·· ظننت انى أخطأت العنوان · اذن أنت تقيم هنا !

فارتبك ، وخشى أن تدفعها رغبتها فى مصادقته الى أن تطلب منه رؤية غرفته ، وهى حقيرة الاثاث وغير مرتبة حتى ليخجل منها · ورد عليها قائلا ،

ـ آه · اننى أمضى هنا ساعات قلائل ·· لابد أن نسرع · اخشى أن يكون رئيس المخزن قد انصرف ·

وفعلا ، فانهما حين وصلا الى البيت الصغير خلف مخزن القاطرات ، ولم يجداه هناك · وقال بعضهم أنه يمكنهما أن يعودا فى الرابعة والنصف ، حين يكون موجودا بالتأكيد فى ورشة الاصلاحات .. فقالت سيفرين :

ـ سوف نفعل هذا ·

وعندما رجعا اضافت تقول له :

ـ اذا لم يكن عندك شاغل ، فهل يكون من الملائم أن أنتظر معك ؟

لم يكن يستطيع الرفض . وفضلا عن ذلك ، فبرغم القلق الذى كان يشعر به عندما يكون معها ، فقد وجدها تزيد جاذبية وفتنة · وبدأ التبرم الذى التزمه حيالها يذوب تدريجيا تحت نظراتها الباسمة ·

قال لها : ـ لا بأس ·· بالطبع يمكنك الانتظار معى · لكن أمامنا أكثر من ساعة للانتظار · فهل نذهب الى مقهى؟

فابتسمت ، وسرها أن تراه يميل الى المودة ، وقالت :

ـ لا ·· لا أريد أن أحبس فى مكان مغلق ·· أفضل أن نتمشى فى أى مكان تحب ·

ودون أن تنتظر جوابه ، تناولت ذراعه برقة ·· لقد لاحظت الان ، بعد أن اغتسل من تراب الفحم ، أنه يبدو وسيما . انهما عيناه فقط ، العينان المنقطتان بلون ذهبى : اللتان كانتا ترفضان ملاقاة عينيها ، ما برحتا تثيران قلقها . اذا كان يتحاشى النظر اليها ، فهل مرجع ذلك الى أنه راغب عن توريط نفسه معها ، وأنه يريد أن يكون حرا للتصرف كما يحلو له ، حتى ولو ضدها اذا لزم الامر ؟ لقد تذكرت أن مصيرها ،

ربمـا كان يجـرى البت فيـه هـذه اللحظـة فى قاعة المكتبـة بالمنزل الكائن بشـارع روشـيه . وأدركت أنه لابد لها أن تجعل هذا الرجل ملكا لها ·· لو أنه تيسر لها أن تحمله على النظر فى عينيها،فقد شعرت بأنها قادرة على أن تناله · أنها لم تحبه ، ولم تكن لديها فكرة لهذا ، ولكنها أرادت أن تستغله ، وأن تسخره لنفسها ، وأن تستحوذ عليه، حتى لا يمكن بعد ذلك أن تخشى شيئا من ناحيته·

وسارا بضع دقائق صامتين · ولما وصلا الى الحدائق المجاورة راحا يتجولان فى مماشيها التى لم يكن بها سوى بعض الامهات مع أطفالهن ، حتى وصلا الى بقعة تكسوها أشجار التنوب التى كانت أوراقها الداكنة الخضرة تلمع فى ضوء الشمس . فجلسا على مقعد ، وبعد برهة قال:

ـ أرى الطقس تحسن بعد المطر ·

ـ نعم . والشمس عادت من جديد .

بيد أنهما لم يفكرا فى أمر الطقس حقا · فأما هو ، الذى كان عادة يتحاشى النساء ، فكان يفكر فى الاصوات التى جمعت بينهما · ها هى ذى بجانبه ، تلامسه ، وتهدد باقتحام حياته ، وهو لا يستطيع التغلب على غرابة هذا الامر· فمنذ ذلك اليوم فى مكتب قاضى التحقيق فى روان : لم يكن لديه شك فى أنها لعبت دورا فى جريمة قتل القاضى ·· لكن لماذا ؟ ما الذى دفعها الى أن تفعل ذلك ؟ لقد وجه الى نفسه هذا السؤال مرارا ، لكنه لم يجد عنه قط جوابا مرضيا ·· وكانت تطارده دائما فكرة مدارها هو أن الواجب يقضى عليه بابلاغ البوليس بكل شىء يعرفه . وكانت هذه الفكرة ماثلة لديه الان ، وهو جالس ملاصقا لها ، حتى ليشعر بحرارة جسدها قرب جسده .

وأما هى فكانت تفكر فى أن جاك لابد أن يكون غبيا حقا اذا لم يفهم أنها وزوجها هما الجانيان ·· انهما أبديا لهفة بالغة للترامى عليه .. وفى نفس هذه اللحظة بالذات فها هى ذى جالسة ملاصقة له ·· لقد تلاقت أعينهما وأدركت أنه يتساءل فى نفسه أليست هى التى شاهدها فى القطار تضغط على ساقى القاضى جرانموران ؟ ·· ومرة أخرى راحت تسائل نفسها : ما الذى لابد أن تفعله لكى تجعله يلزم الصمت الى الابد ··

فجأة طالعها نوع من الالهام .. فأمسكت بيده فى رقة ونظرت اليه .. كانت الاشجار تحجبها عن المـارة فى هذا الركن المنعزل من الحديقة .. وقالت له :

ـ هل تظن انى فعلت تلك الفعلة ؟

فارتعد يسيرا ، وما لبث أن نظر اليها مواجهة لاول مرة ·· وكان صوته مهتزا عندما أجاب :

ـ نعم ·

فشدت على يده ، وتمهلت برهة قبل أن تقول :

ـ أنت مخطىء ·· اننى لم أفعلها ·

لم تقل هذا لكى تقنعه ، ولكن لكى تحذره من أنه مهما يكن من رأيه،فانها تريد أن تبقى بريئة فى أعين الاخرين ·· أنه اعتراف المرأة التى تقول (لا)ـ بغض النظر عن الحقائق ـ لانها تريد أن يكون الرد هو (لا) ، ودائما (لا)·

ـ اننى لست مذنبة يا جاك·· يجب ألا تسىء الى بالتفكير فى انى هكذا ·

كانت سعيدة الان عندما أصبح يواجه نظراتها فى يسر وسهولة ·· ان ما فعلته فى الواقع هو أنها مهدت السبيل لكى تقدم نفسها اليه ذات يوم ·· اذا طالب بهذا فانها لن تأبى عليه .. الان قد توثق الرباط بينهما ، بلا كلام ، ولا

مكاك .. أنها غدت تحمله على الكلام حمــــلا الان .. انه أصبح لها ، كما أصبحت هى له .

ـــ لن تسيء الى مرة أخرى ؟ ستصدقنى دائما ؟

ـ اننى أصدقك .

قالها باسما .. وما الذى يدفعه حقا الى الاساءة اليها بالضغط عليها لكى تتحدث تفصيلا عن ذلك الشيء المروع ؟ فيما بعد يمكنها أن تقول له كل شيء اذا هى أرادت .. أنها بهذا الاعتراف له والتماس مسالمته على هذه الصورة قد مسته فى أعماقه .. كانت وديعة ، تأتمنه علــى السر . كانت امرأة ، على استعداد لان تشعر بالسعادة بالخضوع لرجل .. ان ما أبهجه أكثر من هذا ، وهما جالسان الان يدا بيد ، هو أنه لم يعد يشعر بتلك الرجفة المروعة التى كانت تلم به عادة كلما اقترب من امرأة .. فهل معنى هذا أنه سيستطيع أن يحب هذه المرأة دون أن يشعر بتلك الحاجة المخيفة للقتل ؟

قال لها هامسا :

ـ أنت تعرفين اننى صديقك ، وأنه ليس هناك ما يدعو لان تخافى منى .. لا اريد ان أعرف ما حدث .. سأفعل ما تريدين ..

وجعلا الان يتبادلان الحديث بمودة وصفاء .. لقد عاد اليها الضحك بعد أن انزاح عن عقلها ذلك العبء الثقيل .. انها لم تحب هذا الفتى .. أو على الاقل لم تكن تظن أنها تحبه .. والواقع أنها برغم ذلك الوعد المستتر الذى وعدته به ، بدأت تفكر فيما اذا كان يمكن أن تتحلل منه .. بيد أنه بدا رقيقا معها ، وهو لن يضايقها بعد الان . وسيكون كل شيء على ما يرام ..

قالت له : ـ اتفقنا اذن .. اننا صديقان . وليس لهذا علاقة بأحد ، حتى ولا زوجى .. والان هل يمكننى أن

استرد يدى ؟ لا تنظر الى هذه النظرات حتى لا تؤذى عينيك ! ..

لكنه استبقى يدها فى يده ، وقال متلعثما :

ـ تعرفين اننى أحبك .

فجذبت يدها مسرعة ووقفت قائلة :

ـ ياله من كلام غريب ! .. اضبط أعصابك ! .. هناك شخص قادم ! ..

وفى هذه اللحظة سمعت الساعة تدق الخامسة .. فهتفت سيفرين ،

ـــ يا الهى ! .. يجب أن أكون الان فى شـــــارع روشيه ! ..

وذهب عنها الانتعاش عندما فكرت فيما قد ينتظرها هناك .. انها لم تكن آمنة بعد .. وقد شحب لونها وارتعشت شفتاها .. فقال لها :

ـ وماذا عن رئيس مخزن السكة الحديد الذى كنت تريدين مقابلته ؟

ـ لا يهم . سوف أقابله فيما بعد .. اننى استأذن الان يا عزيزى .. دعنى أذهب لاتمام ما أريد اتمامه .. واننى أشكرك .. أشكرك من أعماق قلبى ! ..

وشدت على يده وأسرعت مبتعدة .

ـ هل سأراك فى القطار ؟

ـــ نعم . فى القطار .

واختفت بين الاشجار ، بينما سار هو متمهلا الى شارع كاردينيه .

وعندما وقفت مرة ثانية لاهثة الانفاس فى حجرة المكتبة المتينة الاثاث ، راح مسيو كامى لاموت ينظر اليها برهة فى صمت وهو مبهور بذلك الجهد الخارق الذى كانت تبذله لكى تبدو هادئة متماسكة .. أجل .. انها

قطعا جذابة ، تلك الجانيــة الفــاتنة ، ذات العينين الاسرتين!..

ـ حسنا يا مدام..

وتوقف ، لكى يستمتع بقلقها فترة أخرى .. بيد أنها تطلعت اليه بأشد استعطاف ، حتى لم يتمالك أن رق لها ، وقال :

ـ انى قابلت مدير المستخدمين، وقد رتبت الامر بما يؤدى الى بقاء زوجك فى عمله . لقد سوى كل شىء .

اشتد ارتياحها حتى لم تستطع الكلام .. وامتلات عيناها بالدموع ، وعالجت أن تبتسم .. ثم انحنت فوق يديه ، وقبلتهما، وضغطت بهما على خدها .

واستطرد يقول محاولا أن تبدو لهجته صارمة:

ـ لكن ، يجب أن تحذرا فى تصرفاتكما فى المستقبل ! ضعا نصب أعينكما أن الملفات موجودة ويمكن اعادة فتحها بسهولة .. وفوق كل شىء قولى لزوجك أن يبتعد عن السياسة ، وسوف يجد منا الصلابة التامة فى هذه الناحية . أنه سجل فى ملفه نقطة سوداء بسبب ذلك الحادث المؤسف الذى استدعاه نائب المدير من أجله ، وقد أصبح معروفا بأنه ذو ميول جمهورية يؤسفنها .. ان هذا لا يجوز ! .. وهكذا لابد أن يعمل على تحسين سلوكه ، والا فسوف يوقع نفسه فى مشكل خطير ..

ونهضت قائمة وهى تتعجل الثوانى للخروج الى الشارع.. لقد شعرت أن ارتياحها وفرحها يكادان يخنقانها ..

ـ تأكد يا سيدى اننا سوف نفعل كل ما تحب . فى أى وقت ، وفى أى مكان ، ما عليك الا أن تأمر

كان يبتسم الان ، ابتسامة الخبير المجرب ، المتشكك فى طبائع النفس البشرية . ونهض يفتح لها الباب .. وقبل

أن تبتعد التفتت خلفها مرتين ووجهها متهلل بالشكر ..

سارت فى الطريق كامرأة مأخوذة . كانت تريد أن تلوح بذراعيها وأن تصيح من فرط المرح .. فهى الان قد أصبحت آمنة ! آمنة ! .. وأكثر من هذا ، كانت فى يدها الان قوة . أنها تستطيع أن تبث الخوف فى نفس زوجها كلما شاءت . أنها تستطيع أن تجعله يلتزم مكانه الصحيح ! ..

وعرجت على مطعم قريب حيث تناولت أكلة طيبة هذه المرة تعويضا لسوء التغذية وللجهد الخــارق الذى بذلته.. وقبيل قيام القطار بدقائق كانت فى المحطة الكبيرة تشق طريقها مسرعة الى مكان القاطرة. وكان جاك يطل من مكانه محاولا أن يميز صورتها بيــن المسافرين وقد خامره القلق ألا تأتى .. كان واثقا أنها لن تسافر دون أن تأتى لتراه أولا .. وقد صدق حدسه . فها هى ذى تسرع اليه ومحيــاها يفيض اشراقا ، وقالت له بابتسامة عذبة وهى تقف على أطــراف أصابعها :

ـ هل كنت تتساءل أين ذهبت يا ترى؟

وشبت فوق أطراف اصابعها اكثر ، واردفت برقة :

ـ اننى سعيدة جدا ! .. ان الحظ كان حليفى ! كل شىء كنت أرجوه تحقق .

كان يعرف ما تعنى ، وقد سر من اجلها .. وعندما جرت عائدة الى القطار استدارت اليه هاتفة :

ـ احترس فى سيرك .. لا تندفع حتى لا يحدث تصادم !

فهتف يطمئنها مبتهجا :

ـ لا لزوم للخوف !

وصعدت سيفرين الى مقصورتها والابواب تغلق ..

واعطيت الاشارة ، وفتح جاك منظم السرعة . وتحرك القطار وأنيا .. كان مثل القطار الذى سار فى تلك الليلة المشئومة فى فبراير ، ولكن ضوء النهار لم ينحسر تماما بعد ، ووقفت سيفرين فى النافذة تتأمل الطريق فى الشفق الرقيق الساكن .

وفى داخل مقاطعة ليزون كان جاك يقود قاطرته الانيقة المحبوبة بيد المدرب القدير الذى يعرف كل دقـائقها وخباياها وهو يشعر بسعادة غامرة لم يعهد مثلها من قبل

ومرت المحطات متعاقبة وليزون الطيعة تطوى الطريق طيا .. وبعد محطة روان كان القمر يغمر الريف بضيائه الفضى ويبدى كافة المعالم المعهودة واضحة بارزة .. وبعد الخروج من نفق مالونى تطلع جاك من القاطرة الى ناحية اليمين ، وعرف البقعة التى شاهد فيها ارتكاب الجريمة .. ثم تعاقبت المشاهد . ها هو ذا المنـزل فى (كروادى موفرا) يلوح للعيان مهجورا يلفه الحزن ، نوافذه موصدة ابديا .. كان جاك يرتعد دائما كلما مر بهذا المنزل ، وقد زاد ارتعاده هذه المرة ، وكان مصيره كله مرتبطا بهذا المنزل .

ثم شاهد شيئا آخر .. كانت فلور واقفة عند بوابة المزلقان .. فى كل مرة كان يمر فيها من هنا هذه الايام كان يلمحها واقفة تراقب مروره .. انها لم تتحرك ، وكل ما فعلته أنها أدارت عينيها لتتابعا مرور القطـــار مسرعا .. كان خيالها الفارع القاتم يبدو واضحا فى ضوء القمر الفضى الذى كان ينسكب فوق شعرهـا الاشقر ويذكى فيه حمرة النار ..

وعلى رصيف المحطة جرت سيفرين مرة أخـرى الى مكان القاطرة وقالت لجاك بابتسامتها الساحرة :

ـ شكرا لك ! . اراك غدا .

الفصل السادس

مضى شهر ، وساد الهدوء مرة أخرى فى مسكن الزوجين روبو فوق استراحة محطة سكة حديد الهافر ، ومضت الحياة فى المحطة رتيبة منتظمة كالساعة ، وكأنه لم يحدث شىء فاجع عنيف ..

لقد بدأت الضجة الصاخبة التى أثارتها قضية قتل القاضى جرانموران تفتر .. وبدا أن القانون عجز عن اكتشاف الجانى ، وأن القضية سوف توضع على الرف نهائيا .. وبعد ان ظل كابوش محبوسا اسبوعين على ذمة التحقيق ، أفرج عنه لعدم كفاية الادلة ، وبدأت اسطورة خيالية تشيع .. اسطورة قاتل ، مجهول ، غير منظور ، يتواجد فى كل مكان فى وقت واحد ، ويتهم بكل جريمة ترتكب ، ويتبخر فى الهواء حالما يصل رجال البوليس .. ومهما يكن فان صحف المعارضة كانت الان غارقة فى مشاكل الانتخابات القادمة ، واصبحت النكات اللاذعة عن القاتل الاسطورى اقل وأندر .. وشيئا فشيئا فقد الجمهور اهتمامه بالقضية ، ولم يعد أحد يتحدث عنها ..

وكان العامل الاساسى فى استتباب الهدوء فى بيت روبو هو التسوية المرضية لمسألة وصية القاضى . فبناء على نصيحة مدام بونون شقيقة القتيل ، تخلى الزوجان الاثنيان نهائيا عن فكرتهما فى الطعن فى الوصية ، خوفا من اثارة الفضائح ، وشكا فى النتائج التى تترتب على

السير فى الدعوى •• وهكذا بعد اسبوع اصبح الزوجان روبو مالكين للمنزل فى (كروادى موفرا) الذى قدرت قيمته باربعين الف فرنك •• وفى الحال قررا ان يحاولا بيع المنزل ، فانه كان يطوف بهما مثل كابوس ، ولم يجسرا على الاقامة والنوم فيه .. من يدرى اية أشباح تولدت هناك لفرط ما كان فيه من دماء مسفوكة وأعراض مستباحة ؟ ! وهكذا عملا على تعليق لافتة كبيرة على المنزل يمكن مشاهدتها من القطارات المارة ، انتظارا لاى مشتر يتقدم لاقتنائه •• والواقع أن هذه اللافتة زادت من تجهم المكان ووحشته ، بنوافذه الموصدة ابدا ، والحشائش البرية التى ملات حديقته .. وقد رفض روبو ذاته أن يقترب من المنزل فى أية صورة من الصور ، وهكذا ذهبت سيفرين وحدها ذات يوم وتركت مفاتيح المنزل لدى أسرة ميزار عامل الاشارة القريب ، لتقديمها الى المشترى المرتقب .

هكذا لم يعد هناك ما يكدر الزوجين روبو ، وتركا الايام تمر وانية متعاقبة ، قانعين بمسكنهما المتواضع ذى الثلاث غرف فوق استراحة المحطة .. والواقع أنهمابعد العناء المروع الذى كابداه والمحنة القاسية التى استهدف لها فى الشهرين الاخيرين ، قد أخلدا الى نوع من الخمول ، سعيدين بمجرد الوجود على قيد الحياة ••

وبدا ان خمولا مماثلا استولى على جيرانهما •• ان ريح الثرثرة والقيل والقال التى كانت تهب حادة عنيفة فى الممشى الكبير فوق استراحة المحطة قد سكنت وهدأت •• وعندما كانت فيلومين تزور مدام لوبليه فان تهامسهما لم يكن يسمع •• لقد ادهشهما تطور الامور على هذا النحو ، واصبحتا تتكلمان عن روبو باشفاق يمازجه الاحتقار .. لا شك فيما كانتا تقولان ، ان زوجته قد

ذهبت تحتال فى باريس وتمكر للعمل على استبقاء زوجها فى عمله .. ومهما يكون من شىء فهو الان رجل مدموغ ، لا يمكن أن يبرأ قط مما علق به من شبهات . وهكذا سادت السكينة فى الممشى أيضا الا من حفيف اقدام مدام لوبليه وهى فى تحسسها الخفى الخالد على حركات ناظر المحطة ومدموازيل جيشون ..

شىء واحد فقط كان يكدر صفو الزوجين روبو وينغص هدوءهما .. فى غرفة الطعام كان جزء من الارضية يثير الفزع فى نفسهما كلما نظرا اليه .. كانت اللوحة الدائرية حول الارضية هى التى اخفيا تحتها الساعة وكيس النقود ومبلغ العشرة آلاف فرنك التى أخذاها من جثة جرانموران ، تأييدا للنظرية القائلة بأن الجريمة ارتكبت بدافع السرقة .. ان روبو لم يمل من ترديدقوله انه ليس لصا ، وانه يفضل ان يموت جوعا على ان يبيع الساعة او يمس النقود ومع ذلك فانه لم يستطع ان يحمل نفسه على احراق الاوراق المالية او القاء الساعة فى البحر .. فى الليلة الاولى أخفى هذه الاشياء تحت وسادته ، وعندما تملكه الفزع من أن يجرى البوليس تفتيش مسكنه ، ذهب يبحث عن مكان امين ، الى ان اعياه البحث ولم يجد سوى اللوحة الدائرية فى الارضية يضع الاشياء تحتها .. والان .. ما من شىء فى الدنيا يمكن أن يحمل على دس يدك فى تلك الصورة .. بل انه كان يتحاشى أن يمشى فوق هذه الرقعة من أرض الغرفة .. لم تكن بها الاوراق المالية والذهب مخبأة فحسب ، بل كان معها الخوف أيضا .

وكانت سيفرين تماثله خوفا •• كانت اذا جلست قرب النافذة آخر النهار ، تجذب مقعدها بعيدا حتى لا تكون

قريبة من المخبأ ..

وكانا يظنان ان الزمن كفيل بأن ينسيهما ويذهب عنهما الخوف والتوجس .. لكن شيئا من هذا لم يحدث ، وبقى قلقها ماثلا لا يتزحزح .. وكان ذلك مدعاة لاشد العجب ، فان المطواة الجديدة التى استخدماها فى ارتكاب الجريمة لم تكن لتثير فيهما اى قلق او انزعاج .. كل مافعلاه أنهما غسلاها ببساطة ووضعاها فى درج ..

وكانت المرأة التى تتردد على المسكن لمساعدة سيفرين فى تنظيفه ، تستخدم هذه المطواة الكبيرة احيانا فى قطع الخبز .

ثم عمل الزوجان روبو على ادخال مصدر آخر للاحتكاك المتزايد فى حياتهما ، عندما سمحا لجاك لانتييه بأن يزورهما زيارات متكررة .. كان عمله كسائق يأتى به الى الهافر ثلاث مرات فى الاسبوع .. واول مرة جاء فيها كانت بعد رحلة سيفرين الى باريس .. كانت بعد الحاح شديد من جانب روبو ردا لجميله فى رعاية سيفرين وهى فى العاصمة واقل ما يجب فى حقه هو أن يدعواه الى الطعام بين وقت وآخر .. وجاء بعد ذلك عدة مرات .. وقد بدأ كأن روبو يضيق بالصمت الذى كان يخيم عليه وزوجته وهما يتناولان الطعام وحدهما ، فهو يرحب بوجود ضيف ليرفع الضيق ويخفف التأزم .

ومنذ ذلك الحين أصبحت هذه الزيارات من قبيل العادة ، الى حد أنه لو تراخى جاك مرة فى الحضور ذهب اليه روبو وقال انه يهملهما .. والحقيقة هى ان روبو اصبح هذه الايام صامتا متعكر المزاج بصورة متزايدة ، ولم يكن مزاجه ليعتدل الا اذا كان جاك معه .. ان هذا الشاب الذى سبب له فى فترة من حياته اشد الجزع ، والذى كان حقيقا بأن يمقته كالشاهد الوحيد

الحى على الجريمة الشنيعة التى يريد ان ينساها هذا الشاب قد اصبح الآن ولا غنى له عنه ، وربما كان مرد ذلك الى انه وهو يعرف فعلته لم يتكلم قط ولم يبح بالسر .

وكانت سيفرين ايضا ترحب بجاك ، بعد ان اصبح شاغلا جديدا فى حياتهما الزوجية .. كانت ترحب به وتحتفى بمقدمه وتعد له أطباقا منتقاة .. كالمضيفة الكريمة تحتفى بصديق الاسرة .

ولكن على قدر ما كانت هذه الزيارات تتكرر ، كان التباعد بين الزوجين روبو يتزايد .. لقد اصبح يسرها أن يبقى الفراش لها وحدها والا تشترك به مع هذا الزوج .. هذا الزوج الذى كان مولعا بها فى الايام الاولى من زواجهما فأصبح الان منصرفا عنها غير مكترث بها .. كانت تحتمله صابرة .. اما الان ومنذ ارتكاب الجريمة فان ملامسته لها كانت تثير اعصابها ، بل تروعها .. وذات ليلة لم تتمالك حين لمحت وجهه فى ضوء الشمعة ان صرخت فزعا .. فى هذا الوجه الاحمر المحتقن رأت وجه القاتل .. وكانت كلما لمسها ترتعد رعبا ، وكأن المدية فى يده يوشك ان يغمدها فى صدرها ! .. اما الان وقد آنس نورها فانه بدأ ينصرف عنها .. ان التعب واللامبالاة ، وتقدم الاعوام تلك العوامل التى تجرد الحب من نشوته ، بدا وكأنها زحفت عليهما قبل الاوان ، وهى عملية عجل بها ولاشك ذلك الدم الذى سفحاه .. ومن المؤكد ان وجود جاك ساعد على اتمام هذا الطلاق .. أن وجوده قد فصم الرباط الذى بينهما ، وبدأ يتحرر كلا منهما من صاحبه .

ولم يكن ذلك لان روبو شعر بالندم وتأنيب الضمير على ما فعله ، ولكن لو اتيح له أن يفعله من جديد لترك زوجته

بعيدا عن الموضوع .. ان النساء سريعات الفزع .. وقد رأى انه بدأ يفقدها لان العبء الذى وضعه على كاهلها كان أكثر مما تستطيع احتماله ·· لقد وجد من الصعب الان أن يستعيد الحالة العقلية التى كان عليها عند ما فكر ، عقب اعترافها مباشرة ، ان قتل جرانموران كان ضرورة مطلقة لكى يستمر فى حياته ·· الان وقد حل الفتور واللامبالاة محل سعير الغيرة ، فان حتمية القتل لم تعد بادية له بتلك الصورة السالفة .. ان ما غدا يشعر به لم يكن ندما وتأنيب ضمير مثلما كان خيبة أمل ·· انه وهو الذى كان يميل الى التبسط وكثرة الكلام غدا الان يغرق فى احلام نهار طويلة وسهوم متصل لا يفيق منه الا وهو أكثر نكدا وكدرا مما كان ·· ولكى يتحاشى أن يبقى وحده مع زوجته بعد الطعام فانه كان يصعد الى السطح لتدخين غليونه وللتطلع عبر المدينة الى البحر حيث تبحر عابرات محيط ضخمة الى وجهات بعيدة نائية ··

ثم حدث ذات مساء أن عاد روبو فجأة الى غيرته القديمة ·· كان عائدا من حظيرة القاطرات مع جاك عندما التقى بهنرى دوفرن حارس القطارات يهبط سلم مسكنه .. لقد بدا دوفرن مرتبكا وقال انه صعد الى سيفرين ليسلمها شيئا من اخته فى باريس (والحقيقة انه كان يركز نظراته عليها منذ فترة) ·

وما أن دخل روبو مسكنه حتى ابتدر زوجته قائلا :

ــ أى شيطان جاء به الى هنا مرة ثانية ؟ ·· أنت تعرفين انى لا أطيق رؤيته

ــ لكنك يا عزيزى تعرف انه ما جاء الا لكى يحضر لى نموذجا للتطريز ··

ــ الى الجحيم بهذا التطريز ·· ! اتحسبين انى من التغفيل بحيث لا أرى ما يرمى اليه ؟

الافضل لك أن تفتحى عينك يا فتاتى ! ··

وأطبق قبضته وتقدم نحوها ·· فشحب وجهها ·· وكانت أكثر انزعاجا من عنف غضبته لان كلا منهما كان قد انصرف عن الاخر ·· بيد انه لم يلبث أن انحاز الى الهدوء ، وأخذ يكلم جاك الذى اشتد به الارتباك حتى لم يدر أين ينظر ولا كيف يتصرف .. هل هذا مشهد تمثيلى من أجله ؟ هل كان روبو يحاول تحذيره ؟·· ولكن نبرات صوته طمأنته ، اذ قال :

ــ ابن الحرام ! .. لا بأس .. أنا متأكد انك سوف تطردينه ، أليس كذلك يا فتاتى الكبيرة ؟ هيا هيا ·· هاتى الكؤوس ·· حان وقت الشراب ··

وربت على ظهر جاك ، وراحت سيفرين وقد عادت الى سالف حالها تبتسم للاثنين ·· وهكذا تناولوا الشراب معا وأمضوا ساعة طيبة ..

على هذا النحو من الالفة عمل روبو على الجمع بين زوجته وصديقه ، دون أن يبدو انه كان يفكر فى النتائج المحتملة · وكان ابداء الغيرة على هذه الصورة هو الذى أدى الى نشوء صلة وثيقة بين جاك وبين سيفرين ·· فانه عندما شاهدها بعد ذلك بيومين شعر بالاسف من اجلها ، بينما جعلته يتبين ، دون أن تقصد ، أى حظ من قلة السعادة كان نصيبها من هذا الزواج ·· ومنذ ذلك الوقت كان بينهما تفاهم أخذ يعبر عن وجوده بالاشارات والايماءات ..

فى كل زيارة له كان يسألها بنظرة سريعة هل من متاعب جديدة وقعت لها ، فتجيب بحركة يسيرة لا تكاد تدرك من اهداب عينيها ·· ثم تمتد يداه الى يديها من خلف ظهر روبو وسرعان ما تتكفل أصابعهما الدافئة بأن تحكى لهما تزايد شعور كل منهما باحساسات الاخر ···

ونادرا ما كان يهيء لهما الحظ أن يتلاقيا وحدهما . فان روبو كان موجودا دائما بينهما فى غرفة الطعام الصغيرة تلك .

وفى أول مرة همس فيها جاك يقول لسيفرين انه سوف ينتظرها خلف حظيرة القاطرات فى منتصف الليل يوم الثلاثاء القادم . سارعت بسحب يدها من يده .. كان هذا موعد روبو فى الوردية الليلية ، ولكن فكرة مغادرة غرفتها والسير فى ظلام المحطة للقائه فى مثل هذا المكان النائى ملات نفسها انزعاجا .. لقد شعرت بارتباك غريب .. كان شطر فى نفسها يريد الذهاب ، ولكنه ظل يسالها مدى أسبوعين كاملين قبلما وافقت فى النهاية .. كان الوقت فى مستهل شهر يونيو . وحتى النسيم القادم من البحر لم يعمل على تلطيف حدة الليالى الحارة .. ووقف جاك فى الظلام حتى رآها قادمة نحـــوه فى صمت .. وكان الظلام من الكثافة بحيث كان يمكن ان تمر قربه دون أن تشعر به . لولا انه تلقاها بين ذراعيه وقبلها .. وقد بدرت منهـــا أول الامر صيحة خافتة عصبية ، ثم ضحكت وتركت شفتيها تلتصقا بشفتيه .. كان هذا كل شيء .. انهما لم يجلسا ، بل راحا يسيران جيئة وذهابا وهما متخاصران والحديث يدور بينهمـــا بصوت منخفض .. وظلا ساعة كاملة وهما على هذا النحو من السعادة ، يسريان عن فؤاديهما بالكلمات الرقيقة التى ادخراها طويلا لهذه المناسبة .. فى هذه الليلة لم تتكلم سوى عن المحبة ، قائلة انها لا تريد شيئا يفسد الصداقة الطيبة التى نمت بينهما ..

وفى كل خميس وسبت عند ما يكون روبو فى وردية الليل كانت سيفرين تلتقى بجاك .. وذات ليلة هطل المطر فجأة حتى اضطر الى الاحتماء فى داخل مخزن للالات ..

وفى ركن من المخزن كان ثمة كوم من الاكياس الفارغة تصلح للجلوس ، ولكنها أبت أن تجلس وأعطته بدلا من ذلك قبلات نهمة لا عداد لها .. وعندما شدد الضغط عليها قاومت وانفجرت باكية .. لماذا يريد أن يفسد عليها الحب ؟ ألا يمكن أن يقنع بمحبتها له ؟ ان ما وجدته من ذلك العجوز الفاسق ومن زوجها الفظ جعلها زاهدة الا فى هذا الحب العذرى .. كان يحببها فى جاك رقتـه ووداعته . أخيرا وجدت من تستطيع أن تمنحه قلبها .. كانت تريد أن تطيل هذا الاحساس العذب الى أطول مدى ، وأن ترجع مرة أخرى الى عهد الصبا عندما كانت فى الخامسة عشرة ، تحلم بأن يكون لها حبيب .. وقد بدا ان جاك مثلها يريد ان يعود الى عهد الطفولة وان يكتشف ما هو الحب . وما عهده حتى الان الا مقترنا بالرعب .. واذا كان لهذه الرقة وهذا الامتثال لمشيئتها ، فانما ذلك لانه كان يكمن تحت هذه الرقة ، الخوف من أن يؤدى حبه الى عودة تلك الرغبة القديمة فى القتل .. كان كل يوم يمضى يشعر معه بأنه شفى من لوثته .. كان يحتويها بين ساعديه يقبلها الساعات دون أن يشعر بتلك الرغبة المجنونة لسفك الدم .. وعلى هذه الحال كان يدون لقاؤهما ، وهما جد سعيدين ..

وذات ليلة فى شهر يوليو بدا وكأن الحرارة الخانقة اثرت على سرعة القاطرة ليزون ، وكان على جاك أن يشتد عليها فى القيادة لكى يصل الى الهافر فى الساعة الحادية عشرة وخمس دقائق .. كان المفروض أن تقابله سيفرين هذه الليلة ، وقد خشى أن تمتد العاصفة الرعدية التى هبت وهو فى روان الى الهافر قبل أن يستطيع الوصول ومنعها من الخروج فى هذا الطقس العاصف الراعد .. وعندما وصل الى الهافر قبل سقوط المطر قابله روبو ضاحكا:

— يظهر انك مستعجل هذه الليلة للنوم مبكرا ·· أرجو لك نوما هانئا ·

— شكرا ! ·

ودفع جاك القطار الى خارج المحطة وفصل القاطرة ليزون وقادها الى داخل الحظيرة ، والبرق يشق حجاب الظلام ويخطف الابصار ، وترك لمساعده بيكيه اطفاء نار القاطرة وتفريغ الغلاية ، وهى العملية التى كان جاك يجب اتمامها قبل الانصراف الى راحته .. على أن بيكيه فاجأه قائلا :

— اننى جائع ·· سأبحث عن طعام ، فهل تحب أن تأكل معى ؟

كان جاك يعلم ان هذا الكلام مناورة من بيكيه وهو يعلم ان سلة جاك مازال بها بعض شرائح اللحم وبعض الخبز وزجاجة نبيذ شبه مليئة ·· ولم يسعه الان الا أن يجيب قائلا :

— لا بأس ·· هيا بنا ··

على ان كلماته ضاعت فى هزيم الرعد الذى قصف فجأة قصفا متصلا يصم الاذان حتى ليكاد يحطم الالواح الزجاجية الكبيرة التى تغطى سقف الحظيرة واقترن هذا بهطول المطر غزيرا منهمرا ، حتى شعر جاك باليأس من أن يستطيع فى هذه الظروف المفاجئة المنحوسة عمل شىء لتحقيق ما كان يعتزمه طول الطريق من تحذير سيفرين وثنيها عن الخروج للقائه فى مثل هذا الطقس المكفهر ··

وقال بيكيه مرة أخرى بعد أن فرغ من القاطرة :

— لنترك الباقى حتى الصباح ·· لابد لنا من لقمة نسد بها الرمق فى الكانتين المجاور .. أن المطر غزير ولا

وكان بيكيه على حق فى هذا ، فان الكانتين الصغير

يمكن ان نخرج الى عنبر النوم ·

كان يجاور الحظيرة ، ولكن المنزل الذى أعدته الشركة للسائقين والوقادين للنوم فيه كان يبعد مسافة ، ولو ذهبا اليه لاغرقهما المطر حتى العظام ..

هكذا لم يجد جاك حيلة ازاء العقبات التى لم تكن فى الحسبان ·· على انه قبل أن يخرج من الحظيرة غسل وجهه ويديه من تراب الفحم ، ولبس بدلة أخرى احتياطية كانت معه دائما ، ثم انعطفا مسرعين الى داخل الجانبين المجاور ولم يكن يزيد عن حجرة صغيرة عارية الا من موقد وخوان ومقعدين ، اما الطعام فكان على الرجال احضاره معهم ·

وقف جاك لدى النافذة قائلا

— يا لهذا المطر اللعين ! ··

أما بيكيه فقد جلس الى الخوان واخرج الطعام من السلة ·· وقال لصاحبه :

— ألا تريد أن تأكل شيئا ؟ ··

— لا ·· كل نصيبى اذا شئت ·· لست جائعا ··

ولم ينتظر بيكيه أن يكرر السؤال ، فقد انقض على الطعام والنبيذ دون تردد .. ان بيكيه كان دائما حسن الحظ ، لان جاك لم يكن أكولا ، وكان هذا أحد الاسباب لتعلقه به ..

وقال وفمه ملىء بالطعام :

— لماذا تهتم بالمطر الى هذا الحد ؟ اننا هنا فى أمان ، على أنه اذا استمر فانى سأتسلل الى الباب المجاور ·

كان بيكيه صريحا فى علاقته بفيلومين ·· فان حجرتها فى الطابق الارضى ، ولم يكن الامر يكلفه أكثر من طرقة على النافذة ، ثم يتسلق منها الى الداخل ··

واشتد هطول المطر حتى لم يتمالك جاك أن لعن ساخطا ، فقال له بيكيه ضاحكا :

— هل عندك شيء هذه الليلة ؟ ان الشركة لا يمكن أن تتهمنا بأننا نبلى مراتبها ، أليس كذلك ؟

فاستدار جاك اليه بحدة قائلا : ماذا تعنى ؟

— الحقيقة انك أصبحت مثلى هذه الايام ، لا تذهب الى العنبر للنوم الا فى الثانية أو الثالثة صباحا ..

اذن فان بيكيه لابد عرف شيئا ، وربما رآه مع سيفرين .. ان عنبر النوم كان فعلا يضم سريرين متجاورين للسائق والوقاد العامل معه ، وهكذا كان لابد أن يسترعى نظر بيكيه أى خروج عن المألوف فى عادات جاك ..

على انه قال :

— عندى صداع هذه الايام .. وأنا أجد فائدة فى القيام بجولة كل ليلة ..

— آه .. اننى كنت أمزح .. انت حر تفعل ما تريد .. اذا كنت يوما فى مشكلة فتعال الى ، فأنا أعرف الحلول .. الى اللقاء ..

وشد بيكيه على يد جاك دون أن يفسر معنى كلامه .. ثم ألقى ورقة الطعام من النافذة وأعاد الزجاجة الفارغة .. وقال أخيرا :

— أنا ذاهب ..

فقال له جاك : — اذا لم يسكت المطر قريبا ، فانى سأنام فى السرير السفرى .. وفعلا كان فى غرفة مجاورة للحظيرة بعض مراتب ذات أغطية من القنب كان يأوى اليها العاملون الذين ليس أمامهم سوى ساعات قلائل فى الهافر ، فيتمددون بملابسهم ..

ودلف جاك الى هذه الحجرة ، فوجد الحر خانقا ، وهكذا لم يستطع أن يستلقى فوق احدى المراتب الخالية ، ووقف فى مدخل الغرفة برهة مترددا ..

لانه لم يستطع أن يتخلى عن الامل .. لقد شعر برغم سخطه على العاصفة بدافع متزايد يدفعه الى الذهاب الى مكان اللقاء ، حتى ولو بقى وحده هناك ..

هكذا اندفع خارجا من الغرفة ، وجرى فى سيول المطر المتدفق حتى وصل الى حظيرة الالات التى احتميا بهامرة من قبل فى اثناء المطر .. كان يشعر انه سيكون فيهاأقل وحدة .

وما كاد يدخل فى الظلام حتى شعر بذراعين تطوقانه ، وشفتين دافئتين تلتمسان شفتيه .. فقال :

— اذن فانك جئت ؟

— نعم . انى رأيت بوادر العاصفة ، ولذلك جريت الى هنا قبل بدئها .. يا لهذه الفترة الصعبة التى مررت بها ...

كان صوتها أقرب الى التنهد كمن يتنفس الصعداء .. وجلست فوق كوم الاكياس الفارغة فى الركن وجذبته الى جانبها .. أنها كانت يائسة من لقائه هذه الليلة ، وكانت غبطتها بحضوره لا توصف ، واشتد انهمار المطر هذه اللحظة حتى كان يلطم السقف كأنه سياط متهاوية ..

وتعاقبت ساعات .. كانت غبطتها لا حد لها بأن أصبحت له .. وكان جاك أشد منها غبطة .. فى لحظة لامست يده مطرقة بين الاكياس .. ومع ذلك لم يحدث شيء .. لقد استحوذ على سيفرين ، ولم تساوره أدنى رغبة لاخذ المطرقة وقتلها ! .. لقد شفى ! لقد ذهبت عنه اللوثة التى كانت تدفعه الى القتل كلما أحب امرأة ! ..

وانقطع هطول المطر .. وفى السكون السائد دوت فجأة طلقة نارية .. فانتفضا قائمين وهما يرتعدان من الخوف .. لابد أن هذا روبو .. لابد أنه اكتشف

وجودهما وجاء يطاردهما بالمسدس الذى يحمله دائما فى نوبته الليلية ..

تسلل جاك الى الباب ·· وميز فى الظلام وقع أقدام تجرى ، ثم صوت روبو وهو يصيح لرجال الحرس بأنه لمح ثلاثة رجال يحاولون سرقة الفحم ··

فهمس جاك يقول لها :

ـ بسرعة ! ·· لابد لنا من الخروج ! ·· لابد انهم سيدخلون هنا للتفتيش ··

وجذبها اليه مرة أخرى وقبلها ·· ثم أسرعت سيفرين مبتعدة مستترة بالحائط ، بينما اختبأ جاك خلف كوم فحم ·· لقد خرجا فى الوقت المناسب ·· فان روبو كان قادما لتفتيش الحظيرة فعلا ·· وكانت أضواء مصابيح الحراس تتراقص أخيلتها على الارض ·· ثم دارت مناقشة مرتبكة ، وفى نهايتها اتجه الجميع الى ناحية المحطة وكأنما وجدوا ان متابعة التفتيش أمر لا طائل تحته ·· فتسلل جاك الى عنبر النوم ·

وفيما بعد ذلك كانا يلتقيان كل مرة يجىء فيها جاك الى الهافر ، وفى كل ليلة من هذه الليالى كانا ينعمان بالسعادة والبهجة ·· واستمر هذا شأنهما طوال شهرى أغسطس وسبتمبر .. ولم يعقهما حلول الخريف عن مداومة اللقاء ، اذ كانت سيفرين تخرج اليه مرتدية معطفا ثقيلا ، وكان ركن حظيرة الالات بمثابة عش الغرام الهنىء ··

وبتعاقب الشهور شعر جاك برغبة متزايدة للقائها فى المنزل الذى تشاطره مع زوجها .. وقد رفضت أول الامر ، لا خوفا من ضبطهما أو التجسس عليهما ، ولكنها بقية نفور من تلويث فراش الزوجية .. ولكن فى يوم اثنين جاء جاك لتناول الغداء مع الاسرة ، فوجد

روبو مشغولا مع ناظر المحطة ، وهكذا خلا له الجو ..

ومنذ ذلك اليوم لم تعترض سيفرين على الالتقاء به فى غرفتها مساء كل خميس وسبت . رغم ما فى هذا من مخاطرة شديدة .

فى خلال هذا كله لم يعد جاك يرتاب فى أنه قد وجد أخيرا الشفاء من مرضه الوراثى الشنيع ·· فانه منذ أن وجد الحب عند هذه المرأة لم يعد يشعر بحاجة الى القتل ·· الاستحواذ على المرأة ثم قتلها ، هل هما شىء واحد فى الغرائز المكبوتة فى الوحش البشرى ؟ ·· وأحيانا وهو يضمها اليه، كان يفكر فيما فعلته ، فى الجريمة التى اعترفت بها بصمتها فى ذلك اليوم فى حدائق باريس ، بيد أنه لم يشعر برغبة فى معرفة المزيد عنها .. وهى من الناحية الاخرى ، بدا أنها تزيد رغبة كل يوم فى أن تقول كل شىء ·· كانت وهى بين ذراعيه تشعر بتلهف مشتد لكى تصب سرها فى سمعه ·· ولكن سرعان ماكان يقفل فاها بقبلة ·· ما الذى يدعو الى اثارة هذا الامر بينهما ؟ ·· هل يمكن التأكد أنه لن يؤثر على سعادتهما ؟ لقد شعر أن ثمة خطرا فى ابتعاث هذه الذكريات الدامية ·· ولابد أنها فطنت الى خواطره ، فانها لم تلبث أن انحازت الى الطاعة والامتثال ، قانعة بالسعادة معه ·

وبينما كانت الزوجة تجدد شباب سعادتها على هذه الصورة ، كان الزوج روبو يشيخ ، ويزيد بدانة ، ونكدا ·· فى غضون شهور أربعة تغير كثيرا عما كان ·· كان مازال يصافح جاك مرحبا ويبدو مسرورا برؤيته على مائدته ·· ولكن هذا اللون من الالتهاء لم يعد يكفيه · وكثيرا ماكان يخرج بعد الطعام زاعما أنه يريد الهواء

المنعش ٠٠ أما الحقيقة فهى أنه اعتاد التردد على مقهى صغير خارج المحطة حيث كان يلتقى بمسيو كوش رئيس بوليس السكة الحديدية ويلعب معه الورق ٠٠ ان اللعب الذى لا تنتهى دوراته المتعاقبة هو وحده الذى رد اليه حيويته السالفة ونشاطه الذاهب ، وسرعان ما أصبح هذا اللعب بمثابةحمى ، كتلك الحمى التيتنشب فىالانسان الى حد أن يصبح على استعداد للمخاطرة بمركزه وبحياته ذاتها ، فى سبيل رمية زهر ٠٠ كان اذا عاد من عمله يتسلل ذاهبا الى المقهى ويبقى به حتى الثانية أو الثالثة صباحا ٠٠ ولم تكن سيفرين تشكو من غيابه ، وانما كانت شكواها من سوء طبعه ، فانه كان دائما منحوس الحظ ، وبدأ يتورط فى الدين ٠

وذات مساء دب الشجار بين سيفرين وروبو .. أنها لم تكرهه حتى الان ، ولكنها رأت وجوده باعثا على الضجر والمضايقة ٠٠ كان يمكن أن تغدو سعيدة كل السعادة لولا ظله ٠٠ ان موضوع خيانتها له لم يكن يقلقها .. ألم يكن رغم كل شىء ، هو الذى دفعها الى ذلك ، أو كاد؟ فى فترة الانفصام البطىء لعلاقتهما الزوجية كان لكل منهما سلواه٠٠ انه قد وجد سلواه فى القمار ، واذن فما الذى يمنعها أن تتخذ لها عشيقا ؟ .. ولكن الذى لم تكن تطيقه هو أنها أصبحت بحاجة دائمة الى النقود بسبب خسائره فى القمار ٠٠ واحيانا لم تكن هناك نقود كافية لدفع أجر الغسالة ٠٠ وقد اضطرت الى أن تستغنى عن أبسط أدوات الزينة . .وقد دب الشجار بينهما هذه المرة بسبب حذاء لها كانت فى أمس الحاجة اليه ، ثمنه خمسة عشر فرنكا ٠٠ كان يستعد للخروج ، وعندما لم يجد مدية يقطع بها لنفسه قطعة خبز فقد أخرج (المطواة) الكبيرة من الدرج ٠٠ وفى أثناء ذلك

قال لها أنه ليس معه خمسة عشر فرنكا ٠٠ فكررت طلبها بعناد، وكرر هو الرفض٠٠ وفجأة أشارت الى أرض الغرفة ، الى المخبأ الذى كان عندهما مخوفا مرهوبا ٠٠ قالت انه توجد نقود هنا ، وأنها تريد منها شيئا ٠٠ فامتقع وجهه وألقى المطواة من يده .. وتقدم منهـا وحسبت لحظة أنه سيلطمها قال انه يقطع يده ولا يلمس هذه النقود . .واطبق قبضتيه وتوعدها بالقتل اذا اخذت منها سنتيما واحدا فى غيابه ٠

ثم بدأ التشاحن بينهما بصدد المنزل فى(كروا دى موفرا) ٠٠ لماذا لم يتم بيعه حتى الان؟ ٠٠ كلاهما اتهم صاحبه بأنه لم يفعل شيئا للانتهاء من الموضوع .. انه مازال يرفض أن يكون له أى شأن فى مسألة البيع ٠٠ وهما كلما كتبت الى أسرة ميزار تلقت ردودا غامضة : لم يظهر أى مشتر حتى الان . .ثمار الفاكهة فسدت على الاشجار .. الخضروات لا تنمو بسبب الحاجة الى ماء الرى ٠

وهكذا ، فان الهدوء الظاهرى الذى ساد حياتهما منذ أن ذهب عنهما الخطر الكبير ، ما لبث أن تبـدد تدريجيا٠٠ ان كل بذور المتاعب والعناء كانت موجودة ماثلة، النقود المخبأة ، العشيق المتردد على البيت ٠٠ كل شىء بدا أنه يباعد بينهما ٠٠ ان حياتهما توشك أن تستحيل الى جحيم ٠٠ وأكثر من هذا فان كل شىء حولهما كان يزيد من سوء الموقف ٠٠ فهناك موجة جديدةمن الثرثرة والاشاعات بدأت تتسلل فى المشى الذى تطل عليه مساكن الموظفين فى المحطة ٠٠ ان فيلومين تخاصمت مع مدام لوبليه بعد أناتهمتها هذه بأنها باعتها دجاجةكانت ميتة من المرض ٠٠ ولكن سبب الخصام الحقيقى كان مرجعه الى ما قررته فيلومين من ضرورة مصالحة

سيفرين وابتلاع أقوالها السالفة ضدها .. وكيف لها أن تخاصم سيدة تعتبر بالاجماع أجمل وأبرز سيدة فى المحطة كلها ؟ .. وهكذا راحت فيلومين تجاهر الان فى كل مكان بأن مدام لوبليه عجوز متصابية ، وأن المسكن المطل على الشارع هو من حق الزوجين روبو ، وأنه من المخجل أن يحال بينهما وبين الانتفاع بما هو حق لهما .. ثم أن الامور ساءت بالنسبة لمدام لوبليه فى ناحية أخرى ، وأوشك استمرار تجسسها على مدموازيل جيشون وناظر المحطة أن يجلب عليها المتاعب .. فانها بدلا من أن تضبطهما متلبسين ، فقد ضبطت هى وأذنها ملتصقة بثقب الباب تسترق السمع ، وكانت النتيجة أن مسيو دباديه ناظر المحطة أبلغ مولان المساعد الثانى أنه اذا كان زميله روبو لا يزال يرغب فى الانتقال الى المسكن المبهج ، فانه على استعداد لتزكية أى طلب يتقدم به .. وقد بادر مولان بدوره الى نقل هذا الكلام ، وهكذا التهبت المشاعر فى أرجاء المشى ، وأوشك الصراع العلنى أن يتفجر .

وفى خلال هذا كله انتحلت سيفرين عذرا صحيا لزيارة أحد الأطباء الاخصائيين فى باريس لمعالجة ركبتها المريضة . واختارت لذلك يوم الجمعة من كل أسبوع .. وفى هذا اليوم كانت تستقل قطار السادسة والاربعين ، الذى يقوده جاك ، وتقضى اليوم معه فى باريس . وفى أول الامر رأت أنه من الانسب أن تخبر زوجها بتطورات علاج ركبتها ، ولكنه لم يكد ينصت اليها ، فكفت عن الكلام فى الموضوع . وكانت تنظر اليه أحيانا وتتساءل : هل يعرف الحقيقة ؟ .. كيف يمكن لهذا الرجل ، الذى ارتكب جريمة القتل فى سورة الغيرة المضطرمة ، أن يحتمل اتخاذها لعشيق ؟ انها لم تستطع أن تعتقد هذا ،

واستخلصت أنه ببساطة بدأ يصبح متبلدا جامد الاحساس .

وفى ليلة قارسة البرد فى شهر ديسمبر ظلت سيفرين مستيقظة تنتظر عودة زوجها .. كان اليوم التالى هو الجمعة وكانت تنوى أن تستقل القطار الى باريس كالعادة ، وقد أعدت أفضل ملابسها لكى ترتديها بسرعة فى الصباح . وعندما تعبت من الانتظار أوت الى الفراش واستولى عليها النوم .. وحوالى الساعة الثالثة صباحا استيقظت على صوت ضجة غريبة .. كان صوت خشب يقرقع وكأن هناك شخصا يحاول اقتحام الباب .. ثم تلا ذلك صوت قصف مدو جعلها تجلس فى الفراش مذعورة .. لابد أن أحدا يحاول تحطيم قفل الباب الامامى .. وقد بلغ بها الذعر أول الامر حدا جعلها عاجزة عن الحركة ، ثم تحاملت على نفسها فى النهاية ، وسارت على أطراف أصابعها الى باب الحجرة فتحته .. ان ما رأته جعلها تجمد مكانها من الذهول .

كان روبو يجلس القرفصاء على الارض وهو ينزع اللوحة الدائرية فى الارضية بقدوم .. وكانت بجانبه شمعة عكست خياله على السقف ضخما ممتدا .. وكان يحدق فى الفتحة ، وبدا وجهه محتقنا كما بدا تلك الليلة فى القطار .. وفى النهاية ، والخوف يتملكه ، دس يده فى الفتحة ، ولكنه فى غمرة اهتياجه لم يستطع أن يعثر على شىء .. وما لبث أن أدنى الشمعة ، وهنا وقع بصره على النقود والساعة .

لم تستطع سيفرين أن تكتم صيحة بدرت منها ، واستدار روبو فى مكانه منزعجا .. وبدا لاول وهلة أنه لم يعرفها ، ولابد أنها وهى بجلباب نومها الابيض ، ووجهها الممتقع ، بدت كعفريت ..

فلم يستطع الا أن يئن ويحدق اليها مصعوقا ٠٠ ولما وقفت مكانها ترتعد ، قام من مكانه ولطمها على وجهها ٠

قالت له : ــ لا بأس٠٠ أنت لا تريدنى أن أشترى حذاء، ومع ذلك فانك تأخذ النقود لتسديد ديون القمار !

كان من شأن هذا الكلام أن يضاعف غضبه ٠٠ الى متى ستظل هذه المرأة التى أصبح لا يريدها تقف فى طريقه ؟ ٠٠ ان له غراما آخر الان ٠٠ انه ما عاد يحتاج اليها ٠

ولم يلبث أن أدخل يده فى المخبأ مرة أخرى ، وأخرج الكيس الذى يحتوى على ثلثمائة جنيه من القطع الذهبية٠٠ ثم رد اللوحة الى مكانها بركلة من قدمه٠٠ وتقدم منها حيث كانت واقفة وقال بصوت كالفحيح:

ــ انك تضايقيننى ! ٠٠ اننى سأفعل ما أحب ٠٠ هل أسألك أنا عما تفعلين فى باريس ؟

واندفع خارجا من الغرفة تاركا الشمعة على الارض٠ فأخذتها سيفرين ، وعندما عادت الى الفراش تركتها مضاءة .. الان النوم أصبح مستحيلا .. لم يعد هناك أى شك الان ٠٠ ان الجريمة التى ارتكبها هذا الرجل كانت تدمره ببطء ان الروابط الاخيرة الباقية بينهما قد تفككت تماما

وأكثر من هذا ، فهو يعرف ما بينها وبين جاك ٠٠

● ● ●

الفصل السابع

ان المسافرين الذين كانوا يعتزمون ركوب قطار الساعة السادسة والاربعين صباح ذلك الجمعة كانت لهم مفاجأة مدخرة عندما استيقظوا من النوم ، فان الثلوج ظلت تتهاطل بشدة منذ منتصف الليل الى حد أنها كست الشوارع بارتفاع قدم ٠

ووقف جاك وبيكيه فى القاطرة ليزون ينتظران الاشارة بالتحرك ، وقال جاك :

ــ على اللعنة اذا كنت أستطيع أن أبصر شيئا ٠

ــ ستكون أعجوبة لو أمكننا اتمام الرحلة ٠

ووصل روبو الى الرصيف فى موعده وبيده مصباحه، ولكن أجفانه كانت مهدلة من فرط الاعياء ٠ وسأله جاك ان كان قد تلقى شيئا ينبىء عن الحالة على طول الخط ، فأجاب بأنه لم يتلق برقية حتى الان ٠٠ ثم ظهرت سيفرين ، متدثرة بمعطف ثقيل ، وأدخلها روبو فى احدى مقصورات الدرجةالاولى .. ولابد أنهشاهد تلك النظرة القلقة التى تبادلتها مع جاك ، ولكنه لم يكلف نفسه عناء ابلاغها أن من الافضل تأجيل سفرها حتى يتحسن الطقس ٠

ورفع روبو مصباحه، وصفر حارس القطار ، وفتح جاك المنظم، وتحرك القطار ، ووقف روبو برهة يراقبه وهو يختفى فى أطواء العاصفة الثلجية٠

وظلت الثلوج تتكاثف طوال الطريق حتى غطت الخط

الحديدى وكانت ليزون تشق طريقها بصعوبة بالغة رغم الجهد المضاعف الذى بذله جاك ومساعده بيكيه .

وحوالى الساعة الثامنة كانت الحقول والمراعى وبساتين التفاح بحرا متموجا من الثلوج البيضاء .. واشتد البرد بالسائق ومساعده حتى كاد يعجزهما عن الحركة .

وفى محطة بارنتان أبلغهما الناظر أن الثلوج المتراكمة فى منطقة (كروا دى موفرا) قد تمنع القطار من اتمام الرحلة، وأردف قائلا:

– من الممكن مواصلة السير ، ولكن العملية سوف تكون شاقة !

ولكن جاك لم يعبأ بهذا كله ، فقد كان متجها بنظره الى ناحية سيفرين التى لمحها مطلة من نافذتها فى المركبة الامامية تنظر فى قلق الى ناحيته .. كان كل ما يريده هو أن يوصلها سالمة آمنة الى باريس !

وتابع القطار سيره ببطء كان يتزايد كل مرحلة .. ولكن الثلوج التى كانت تزيحها القاطرة أمامها ارتفعت الى كتلة ضخمة أخذت تنذر بابتلاعها .. وفعلا لم تزحف ليزون مسافة قصيرة حتى عجزت فى النهاية عن التقدم ، واستقرت مكانها مقهورة وقد حاصرتها الثلوج من كل جانب .. وغدا القطار حبيسا فى قبضة بيضاء رهيبة كانت تزيد كل لحظة تضخما واطباقا ..

كان الموقف محفوفا بأشد المخاطر . وقد جرى الحارس مسافة خلف القطار ووضع كبسولات على الخط لتنبيه القطارات القادمة .. وأطلق جاك عدة صفارات يائسة ، ولكن الثلوج كتمت الصوت ، وكان مشكوكا أن تسمع الصفارة فى بارنتان . ما العمل الان؟ ان الامر يحتاج الى مجموعة كبيرة من الرجال لازاحة هذه الكتلة الثلجية

المترامية من طريق القطار .. ولابد أن يذهب أحد بطلب النجدة ، وخاصة انه بدأت تلوح على المسافرين بوادر الفزع .

وأقنع جاك الحارس بأن يرسل مساعده الى بارنتان يطلب النجدة .. وذهب الرجل ، وبعد قليل غاب عن الانظار .. ان أمامه مسافة ميلين، ولا يكاد يعود قبل ساعتين .. وفى يأس ذهب جاك الى سيفرين لكى يزيل عنها الخوف ويطمئنها ، فقالت انها غير خائفة ، وانما هى قلقة من أجله .

وفوجىء جاك فى عودته برؤية فلور قادمة من ميزار ورجلين لم يعرفهما لاول وهلة .. انهم سمعوا اشارات الاستغاثة ، فجاء ميزار الذى كان خاليا من العمل ، واحضر معه كابوش عامل المحاجر الذى لم يكن يعمل بسبب العاصفة الثلجية . وعامل اشارة يدعى أوزيل جاء من مالونى وكان يخطب ود فلور ، التى لم تكن تبدى له أى تشجيع .. وأقبلت فلور معهم اذ كانت دائما تستهويها الحوادث .

ولمحت فلور ، سيفرين .. ان فلور كانت تقف لمراقبة قطار جاك كلما مر فى موعده ، وفى الاسابيع الاخيرة كانت تلاحظ هذه المرأة ، فى صباح ايام الجمع ، جالسة فى مركبة الدرجة الأولى الامامية وخصوصا انها كانت دائما تطل برأسها من نافذة القطار لكى تستجلى صورة المنزل الذى تملكه فى (كروادى موفرا) ولم تتمالك فلور ان تطلعت الى هذه المرأة بتجهم عندما رأتها تتحدث مع جاك .

وهتف ميزار معربا عن شعوره .

– مدام روبو ! .. يالسوء حظكم ! لكن لا يمكن ان تبقوا هنا .. لابد أن تأتوا الى كوخى للتدفئة ..

فقال جاك : ــ انه على حق .. اننا قد نبقى محصورين هنا ساعات .. لا يمكن ان تموتى من البرد ! .

كانت سيفرين واقفة لدى باب المركبة وقد رفضت هذا العرض قائلة انها مستدفئة بملابسها الثقيلة ثم انها لا تستطيب فكرة السير نحو ثلثمائة ياردة فى الثلوج .. وعندئذ تقدمت فلور منها وكانت لا تكف عن متابعتها بعينيها وقالت لها :

ــ تعالى يا مدام سيفرين سوف أحملك .

وقبل أن تجد سيفرين وقتا لكلام رفعتها فلور بذراعيها القويتين كما لو كانت طفلة ، وانزلتها على بعد خطوات فى بقعة ازيلت ثلوجها حتى لم يتمالك بعض المسافرين أن ضحكوا اعجابا بقوتها .

وفى هذه الاثناء انتشر بين المسافرين نبأ وجود كوخ لعامل اشارة غير بعيد حيث يمكنهم التماس الدفء وربما بعض الطعام والشراب وأنقسموا فى هذا الصدد الى معسكرين : فريق يرى البقاء فى اماكنهم بالقطار مدثرين بملابسهم وأغطيتهم حتى تأتى النجدة ، وفريق يفضل تحمل مشاق السير بين الثلوج على أمل وجود أشياء افضل فى الكوخ وهذا على أى حال خير من البقاء والتعرض للتجمد فى القطار .

واستطاع جاك اقناع سيفرين بالذهاب مع الفريق الثانى ، ووعد ان يجيئها بأنباء عن تطور الموقف حالما يستطيع ، ولم تكف فلور عن مراقبته وهو يتحدث اليها فى مودة والتفت اليها قائلا

ــ فلور .. رافقى هؤلاء السيدات والسادة الى المنزل اننى سأبقى ميزار والآخرون معى لعمل ما نستطيع

وتناول كابوش واوزيل وميزار المجارف وانضموا الى بيكيه فى محاولة رفع الثلوج من طريق القاطرة .

وحاولت فلور ان تحمل سيفرين مرة ثانية ، ولكنها قالت انها تفضل السير كالاخرين .. وكانت المسيرة شاقة ، ففى بعض مواضع الطريق ارتفعت الثلوج حتى الوسط ، واضطر بعضهم الى نجدة البعض الاخر . وعندما وصلوا الى الكوخ فى النهاية ادخلتهم فلور الى المطبخ .. ولم تكن هناك مقاعد كافية ، فجاءت فلور بلوحين من الاخشاب وأسندتهما الى المقاعد الموجودة فكان ما تيسر .. ثم القت حطبا فى النار وابدت بيدها اشارة تفيد ان هذا هو كل ماتستطيع ووقفت تتفحصهم عن كثب وقد بدوا لعينيها وكأنهم بملابسهم وتصرفاتهم وحديثهم اناس من كوكب آخر ... واستمعت فلور الى أحاديثهم حينا ، ثم التقت عيناها بعينى سيفرين فأومأت اليها ان تأتى الى الغرفة المجاورة ، وقالت وهما تدخلان :

ــ أمى .. مدام روبو هنا .. هل تحبين أن تتكلمى معها ؟

كانت فازى فى الفراش ، ممتقعة الوجه ، متورمة الساقين ... انها لم تغادر الفراش مدى اسبوعين .. وقد رحبت بضيفتها وهى شبه غائبة الذهن ثم قالت :

ــ اذا كانت مدام روبو تحب ان تتفرج على منزلها فالمفتاح موجود بجانب الدولاب يافلور ..

بيد أن سيفرين لم تشأ أن ترى المنزل . لقد ارتعدت لمجرد التفكير فى دخوله فى هذا الضوء الشاحب المنعكس من الثلوج .. وفضلت الجلوس على مقعد جانب الموقد المعدنى ، وهى ترجو ان ينضم اليهم جاك باقرب وقت ..

ومضت ساعتان .. ودار الحديث فترة فى الشئون المحلية .. ثم ادت حرارة المكان الى ان تشعر سيفرين بالنعاس .. فلم تستفق الا على صوت فلور الخشن لدى الباب وهى تقول :ـ

— ادخل .. انها هنا .

كان القادم جاك ، وقد جاء بأنباء طيبـــة .. فان الرسول الذى اوفدوه الى بارنتان عاد ومعه ثلة من الجنود انهمكوا جميعا فى رفع الثلوج التى تحاصر القطار .. لكن هذا سوف يستغرق وقتا طويلا ، ولن يمكن ان يستأنفوا السفر قبل حلول الظلام . واضاف يقول لسيفرين :

— لابد ان تصبرى .. ستكونين فى امان هنا .. ان العمة فازى ستقدم لك بعض الطعام .

وكالعادة رحبت العمة فازى بربيبها جـاك وكانت لمرضها لم تفهم الموقف على حقيقته والتفتت الى ابنتها قائلة :

— الا يجب يافلور أن تذهبى لرعاية ضيوفنا ؟ .. لا نريد أن يقولوا لرجال السكة الحديد اننـــا لا نفهم الواجب ! ..

كانت فلور واقفة بين جاك وسيفرين وقد فكرت لحظة فيما اذا كان يجب ان تتجاهل امها وتبقى مكانها .. لكنها لن ترى شيئا .. فليس من المحتمل ان يطلق سيفرين وجاك لنفسيهما العنان وأمها موجودة .. وهكذا صوبت اليهما نظرة طويلة فاحصة وخرجت .

وكالعادة أيضا راحت العمة فازى تشكو من زوجها ميزار وتتهمه بأنه يعمل على قتلها للاستيلاء على الالف فرنك التى خبأتها فى مكان لا تعرفه الشياطين .. وخوفا من ان يدس لها السم فى الطعام او الشراب كانت تضع الملح على كل شىء ، تأكله أو تشربه .. ولكنها واثقة أنه أخذ يدس لها السم فى الملح أيضا ! ..

وبدا لجاك ان مرض العمة فازى قد خلخل عقلها وراح يسرى عنها ببعض النكات .. وعندما انتابها الاعياء

ساعدها جاك على ان تتمدد ، وقبلها مودعا ، مؤكدا انه سوف يزورها فى مرة قريبة .... وبعد قليل استولى عليها النعاس .. فاقترب جاك من سيفرين ، التى كانت لا تزال جالسة الى الموقد ، ورفع أصبعه محذرا .. فرفعت اليه وجهها ، فالصق شفتيه بشفتيها فى قبلة طويلة حارة .. لقد اغمضا أعينهما ، وعندما فتحاها كانت فلور واقفة لدى الباب تراقبهما .

قالت فلور وصوتها أشد خشونة من قبل :

ربما كانت السيدة فى حاجة الى بعض الخبز ؟ .

فلم تستطع سيفرين وهى مرتبكة متضايقة الا ان تغمغم بكلمات تعرب عن رفضها .

وأما جاك فقد صوب الى فلور نظرة عنيفة ساخطة .. وانفرجت شفتاه وكأنه يريد الكلام ولكنه مالبث ان خرج من الغرفة وصفق الباب خلفه .

وظلت فلور واقفة مكانها كفارسة شابة بخوذتها من الشعر الاشقر .. ان لسعات الغيرة التى كانت تحسها كل يوم جمعة عندما كانت تشاهد هذه المرأة فى قطار جاك لم تكن اذن على غير أساس لقد توافر لها الان الدليل الذى كانت تبحث عنه منذ الصباح .. ان الرجل الذى احبته لم يحبها بعد .. انه اختار بدلا منها هذه المخلوقة اللعوب التافهة .. ان ندمها على ان تركته يفلت منها تلك الليلة بلغ الان من الشدة حدا جعلها توشك على البكاء بمرارة .. لا لو انها احتفظت به تلك الليلة لكانت الان هى التى يقبلها ليتها تستطيع أن تنفرد به الان وتطـوقه بذراعيها كما اعتادت ان تفعل وتقول له انها ملك له ، وانها كانت بلهاء عديمة الفهم تلك الليلة .. لكن فات الاوان ، فات الاوان .. وفى غمرة شعورها بالعجـز

واليأس ، تزايد حنقها من هذه المرأة البلهاء الهزيلة المتلجلجة .. لكن لا بأس .. سوف تنال انتقامها بطريقة أخرى .. انهاتعرف من الاشياء عن سيفرين هذه ما تستطيع ان ترسلها الى السجن ! .. انها عالجت موقفها بان باعت نفسها لغنى عجوز ، وهى الطريقة التى يتبعها دائما هذا النوع من النساء ! ..

ولم تستطع ثلة الجنود ان تنتصر على الثلوج الا وقد أرخى الليل سدوله .. واستطاع جاك أخيرا أن يردالحياة الى القاطرة ليزون وأن يحملها على استئناف نشاطها .. وقد أوقف القطار فترة أمام كوخ ميزار لاخذ المسافرين اللاجئين الى هناك والذين برح بهم الاعياء والجـوع والبرد .. وكانت سيفرين اخر الخارجين من الكوخ .. وقد استدارت لكى تبتسم الى جاك ، وظل هـو يتابعهابنظراته حيث دلفت الى مقصورتها وكانت فلور واقفة تراقب عن كثب فاشتد امتقاع وجهها عندما تجلى لها مدى الحب العميق بين الاثنين على هذه الصورة السافرة .. ولم تلبث ان شعرت بانعطاف الى اوزيل المتودد الذى كانت ترده عنها دائما ، وكأنما بدا لها فى غمرة التعاسة والكراهية ان أى رجل خير من لا رجل .

ومضى القطار متباعدا والليل ينشر ظلاله الحالكة فى ارجاء هذا المنبسط الثلجى الموحش .



الفصل الثامن

لم يصل القطار الى باريس قبل العاشرة والاربعين مساء .. وقد انتظر فى محطة روان ثلث ساعة لكى يتناول المسافرون بعض الاطعمة الخفيفة والمشروبات ، وفى خلال هذه الفترة أرسلت سيفرين برقية الى زوجها تخبره انهالن تعود الى الهافر الا فى مساء اليوم التالى . .هكذا ستحظى بليلة كاملة مع جاك ، فى حجرة خاصة بهما ... ودون خوف من أى ازعاج !

وعندما كان القطار على مشارف باريس تكفل بيكيه الوقاد بحل المشكلة .. قال لجاك ان زوجته فكتوار فى المستشفى منذ أسبوع بسبب كسر فى قدمها ، وهو نفسه وقد قالها بابتسامة خبيثة لديه فراش آخر ينام فيه ، واذن فلماذا لا تحصل سيفرين على غرفتهما ؟ لماذا التعب فى الفنادق ؟ . والواقع أن جاك الذى كان يفكر متحيرا فى المكان الذى يذهب اليه مع سيفرين رأى فى الحال ميزة هذا الترتيب. وعندما وصلوا اخيرا الى باريس وجاءت سيفرين الى القاطرة ، أخبرها جاك بالفكرة ورجاهـا أن توافق .. لكنها ترددت ، ارتباكا من ابتسامة بيكيه الفاجرة التى أكدت لها الان انه يعرف سر علاقتها بجاك.. وقالت :

ـ لا ، لا. سوف اذهب الى عمتى، ويمكنها ان تضع مرتبة على الارض لى.

فقال بيكيه : ابدا .. ان فراشى لطيف وناعم .. وهو كبير يتسع لاربعة ! .. ونظر اليها جاك بأشـد الحاح حتى تناولت المفتاح الذى قدمه اليها ، وقال لها هامسا :

انتظريني هناك .

ولم تبتعد سيفرين كثيرا عن المحطة .. ومن حسن الحظ ان باب المنزل الخارجى كان لا يزال مفتوحا ، وصعدت السلم دون ان تشاهدها البوابة التى كانت منهمكة فى لعب الدومينو مع احدى الجارات .. وفى الطابق الخامس فتحت سيفرين الباب وأغلقته خلفها بهدوء دون ان يسمعها احد .. وكانت اصوات الضحك والغناء المعتادة تنبعث من غرفة اسرة دوفرن تحتها .. وبدا الظلام حالكا أول الامر حتى انتفضت عندما دقت الساعة مؤذنة الحادية عشرة .. ثم اعتادت عيناها الظلام وامكنها ان تميز هيكل النوافذ وانعكاس ضوء الثلوج على السقف .. واستطاعت ان تتبين طريقها فى الغرفة .. ان الثقاب فوق دولاب الاوانى حيث تذكرت انها رأته من قبل .. وقد وجدت صعوبة فى البحث عن شمعة ، ولكنها عثرت اخيرا على عقب شمعة فى احد الادراج ، فاضاءتها وراحت تجيل نظرات عصبية فى ارجاء الغرفة وكأنها تريد ان تتأكد انها وحدها حقا .. والان بدا كل شيء معهودا .. المائدة المستديرة التى تناولت فوقها طعام الغداء مع زوجها فى ذلك اليوم المروع .. والفراش بغطائه القطنى الاحمر الذى سقطت فوقه عندما لطمها .. لم يبد ان شيئا قد تغير منذ أن كان قبل عشرة شهور ..

ورفعت قبعتها ببطء وهمت أن تخلع معطفها عندما وجدت البرد على أشده .. كان فى صندوق صغير قرب الموقد بعض من الفحم وأصابع خشب ، وهكذا قررت أن توقد النار حتى تشغل نفسها بعمل وتدخل البهجة الى الغرفة .. انهما طالما حلما بليلة مثل هذه وهى الان توشك أن تتحقق ! .. وبعد ايقاد النار واعداد الغرفة

شعرت سيفرين بالدفء والسعادة ولم يبق الا ان يحضر جاك .

وفى لحظة من الانتظار شعرت برعدة مفاجئة .. ترى اكانت وحدها فى الغرفة حقا ؟ .. خيل لها برهة انها شعرت وهى لدى النافذة بانفاس تلفح عنقها ، ويد خشنة تتلمس جسدها فادارت عينيها فيما حول الغرفة بحركة عصبية لكن لم يكن ثمة أحد .

وبعد انتظار خيل اليها انه دهر ، سمعت حفيفا على الباب فجرت وفتحته .. كان جاك حقا ، وقد جاء معه بزجاجة نبيذ وفطيرة ، فطوقت عنقه بذراعيها ابتهاجا .. قائلة :

ــ اواه ياحبيبى ! .. تذكرت الطعام .. اننى اكاد أموت من الجوع .. ان الوقت لم يتسع لنا لتناول الكثير فى روان .

ــ هل انزل وابحث عن دجاجة ؟

ــ لا .. لا .. ربمالا يمكنك احضارها دون ان يبصروك .. ان الفطيرة تكفينا وزيادة !

وجلسا جنبا الى جنب يرفرف عليهما الحب واقتسما الفطيرة .. وكانت ظامئة ، فشربت كأسين من النبيذ احدهما بعد الاخر ، حتى توردت وجنتاها .. ولا تدرى ماالذى جعلها تفكر فى الساعات التى قضتها مع زوجها فى هذه الغرفة .. اليست هذه الفطيرة على نحو ما امتدادا لذلك الغداء مع روبو ؟ ان ذكرياتها عن هذه الغرفة وما حدث فيها هزتها من الاعماق ومرة أخرى وبالحاح اشد تملكتها الرغبة القديمة لكى تقول لعشيقها كل شيء .. لو استطاعت ان تهمس فى سمعه بالقصة كلها وهما متعانقان فان ذلك بالتأكيد سوف يجعل

اندماجهما أكثر واقعية وتصورت بعين الخيال يد روبو وهى تمتد من فوق منك مسك بالمطواة الكبيرة .. ولم تلبث أن سرت فى جـ عدة حينما أحست فجأة بفم جاك وهو يسحق  ، وكأنما يحاول مرة أخرى أن يطبق شفتيها ويحمل على الصمت .

● ● ●

عندما فتحا اعينهما اخيرا كانت الشمعة قد ذوت تماما .. لكنها هزت كتفيها كأنما تريد ان تقول ان الظلام لا يهمها فى شىء مادامت بجانبه .

وفى نشوتها عادت اليها الرغبة الملحة لكى تعترف له تلك الرغبة التى ظلت تعذبهاطويلا .. وفى هذه اللحظة اتسعت رقعة الضوء القرمزية فى السقف وكأنها بقعةمن دم .. ان الاشياء المعهودة فى الغرفة قد تبدأ بين لحظة واخرى فى الكلام فى ان تصيح باعلى صوت تروى القصة كلها .. لقد شعرت بالكلمات تنزلق حتى شفتيها أنها لا تستطيع وقفها بعد الان ..

ـ حبيبى .. ان ما لا تعرفه هو أن ..

كان جاك يعرف ما تريد أن تقوله . فى طوايا جسدها النحيل كان يستطيع ان يستشعر الجريمة المروعة التى ظلا طوال ذلك الوقت يتجاهلان صعودها الى السطح .. الى هذه اللحظة أفلح أن يمنع ذلك من أن يحدث ، ارتياعا من أن يؤدى الكلام عن الدم الىابتعاث رغبته هوالمجنونة فى القتل وسفك الدم .. أما الان فان عذر الحب أعجزه حتى عن اطباق شفتيها بقبلة .. ولهذا كانت أقرب الى الارتياح وهى تقول :

ـ ان ما لا تعرفه يا حبيبى هو أن زوجى يشك فى

ـ هل تظنين هذا ؟ انه يبدو دائما نعم الصديق .. أنه صافحنى صباح اليوم ..

ـ أقول لك أنه يعرف كل شىء .. وربما كان يفكر فى أننا نتبادل الحب فى نفس هذه اللحظة ! . اننى أكرهه ! .. شدما أكرهه ! ..

وهمس جاك . لم تكن ثمة خصومة بينه وبين روبو .. بل بالعكس ، وجده دائما سهل التعامل معه ..

قال لها : ـ لكن لماذا تظنين ذلك ؟ أنه لا يتدخل فى أمرنا ..

وبدلا من أن تجيب ، قالت :

ـ اننى أتعذب عندما أشعر به قريبا منى .. ليتنى أستطيع أن أكون معك على الدوام ! ..

فضمها الى صدره . ولكنها همست فى سمعه :

ـ ان مالا تعرفه يا حبيبى ..

أخيرا كانت الحقيقة آتية .. كان المنزل يلفه أتم السكون .. وفى الخارج كانت باريس كلها مكسوة بغطاء أبيض .. وفى الموقد لم يبق سوى بضع جمرات انعكس وهجها الاحمر فى السقف ، كأنه عين شريرة ..

ـ ان ما لا تعرفه ، يا حبيبى ..

ـ لكنى أعرف .. أعرف أنه فعلها لكى ينال المنزل ..

فانتفضت ، وبدرت منها ضحكة عصبية يسيرة وقالت :

ـ آه . نعم . المنزل ! ..

وعندئذ ، وبكلمات لا تكاد تسمع ، راحت تحدثه عن طفولتها مع جرانموران .. عن الاشياء التى كانا يفعلانها . الخاتم الذى أعطاها اياه .. وقد حاولت اول الامر أن تخفى عنه أسوأ ما فى القصة ، لكن بلا جدوى .. كان لابد أن تخبره ، تخبره بكل شىء ..

وعندما وصلت الى المشهد المروع الذى حدث فى نفس هذه الغرفة ، قالت :

– لا شك أن رو كان يحبنى بطريقته ·· ولابد أن شعوره جرح عند [illegible] الحقيقة ·· وربما كان أكثر أمانة من ناحية [illegible] ى أخبرته قبل زواجنا ·· لكن الموضوع انتهى [illegible] ن وغدا منسيا ·. ان المتوحش وحده هو الذى يجن من الغيرة على تلك الصورة .. انه كاد يقتلنى .. قل لى انك لن تكف عن حبك لى بعد أن أخبرتك ! ..

تمدد جاك ساكنا ، وذراعاها ·· يطوقانه كأفعيين ·· لقد ذهل ·· لم يخطر قط بباله أن يكون هذا هو الدافع للقتل .. انه حقيق بأن يجعل الامور أشد تعقيدا .. ان .. الدافـــع المترتب على الوصـــية كان يفسر الجريمة تفسيرا سهلا ! ومع ذلك ، فربما كان مـــن الانفضـــل أن يعرف أنهما لم يرتكبا جريمة القتل لمجرد الحصول على المال ·· عندما كان يفكر فى أن سبب القتل هو هذا ، كان يخامره أحيانا لون من الاحتقار لسيفرين ، حتى وهى بين ذراعيه ··

أجابها قائلا :

– وما الذى يدعو أن أكف عن حبك ·. ان ما فات قد مات .. أنه شىء لا يعنينى ..

وصمتا برهة ·· وما لبث أن قال :

– ومع ذلك ، فانه لشىء غريب أن يفكر الانسان فى أنك كنت خليلة للرجل العجوز ··

فرفعت وجهها اليه حتى التقت شفتاها بشفتيه ··. وهمست :

– أنت الانسان الوحيد الذى أحبه يا حبيبى ! ·· أنت

الوحيد الذى أحببته فى حيـــاتى كلها ! .. انى ذقت السعادة معك وحدك ·.

وراحت تمدد يديها على وجهه ، بيد أنه أمســك بمعصميها لكفها ·· لابد أن يستمع الى نهاية القصة قبل أن يستسلما للحب من جديد ··

– وهكذا قتلتما الرجل العجوز ؟

– نعم · قتلناه ·

سرت فى جسدها رعدة مخيفة ، اختلطت فيها رغبة الحب بفكرة الموت ·· وبدا لها برهة أنها توشك على الاغماء ، ولكنها لم تلبث ان دفنت وجهها فى عنقه . وأخذت تخبره بقصة رحلة القطار تلك الليلة :

– لقد جلست مكانى فى الركن ، مرتاعة مما يوشك أن يحدث ·· كانت هناك امرأة مرتدية ثوبا أسود جالسة أمامى ·. انها لم تتكلم ، ولكنى شعرت على نحو ما أنها تستطيع أن ، تقرأ أفكارى ، وأنها تعرف ما ســوف نفعله .. وقد أغمضت عينى وتظاهرت بالنعــاس ·· وأخيرا وصلنا الى روان حيث توقف القطــار عشر دقائق ·· وهناك نزلنا الى الرصيف وجعلنى هو أسير الى ناحية مقصورة القاضى ، وكأنه لم يكن يعرف أنه كان فى القطار ·· وعندما أغلقوا أبواب المركبات كان القاضى نفسه هو الذى دعانى الى الدخول فى مقصورته ·. ورفضت أول الامر ، قائلة انى مشغولة من أجــل حقيبتنا ·· لكنه اصر وقال انها لن تسرق ، وانه يمكننا ان نعود الى مقصورتنا عندما نصل الى بارنتان ، حيث ينزل من القطار هناك ·· وهكذا دخلنا عنده وأغلقنا الباب ·· ولم أفهم قط لماذا لم يبصرنا أحد ، واعتقد أن ذلك كان بسبب كثرة المسافرين ··

وتوقفت برهة كمن يعيش المشهد ثم استطردت تقول :

– اننى لن أنسى أبدا تلك اللحظة فى المقصورة عندما بدأ القطار يتحرك ! .. كنت فى أشد ذهول .. كل ما كنت أفكر فيه هو حقيبة ملابسنا .. كان من المؤكد ان تفضح أمرنا اذا تركناها مكانها .. لقد بدا لى الموضوع كله جنونيا : مستحيلا : كابوسا : لا يفكر فى تنفيذه الا طفل .. وحاولت أن أطمئن نفسى بالتظاهر بأن زوجى لن يقدم على هذا العمل اطلاقا .. كان يتكلم بصورة طبيعية : لكن شيئا فى عينيه جعلنى أعتقد أنه سيفعل فعلته .. وفيما بعد ساءلت نفسى لماذا لم أحاول منعه: لماذا لم أطل من النافذة وأصرخ : لماذا لم اجذب حبل الانذار بالخطر .. لكن فى تلك اللحظة كنت مشلولة : ولم أستطع أن أتحرك .. لا أدرى : ربما كان شطر فى كيانى أراد أن يحدث هذا .. الا لو أنك دريت كم كانت مغازلات العجوز القذرة بالنسبة لى ! ؟ .

تمدد جاك مشلولا بتأثير هذه القصة الرهيبة ، قصة القتل ، تحكى همسا بين عاشقين عاريين فى الفراش ..

– جلست فى ركن المقصورة ، وروبو بينى وبين الرجل العجوز ·· راحا يتحدثان عن الانتخابات ·· وكان زوجى يوالى النظر من النافذة ليعرف مكاننا من الطريق ·· كانت ليلة صافية الاديم ، يستطيع الانسان أن يبصر فيها الاشجار وهى تندفع متعاقبة ، بل كنت أسمع صوت العجلات وهى تزداد علوا أكثر من أى وقت مضى ، بطريقة مفزعة ·· وفجأة برقت أضواء محطة ماروم وارتفع هدير الاصداء ونحن نمر بها ·· وعندئذ لم تبق سوى محطة مالونى قبل أن نصل الى بارنتان .. هل كان ينوى الانتظار حتى آخر لحظة ؟ ·· ثم فجأة سطعت الحقيقة أمامى ·· كان ينوى بالطبع أن يفعل فعلته فى أثناء مرور القطار بالنفق على مسافة نصف ميل من

مكاننا ·· تبادلت معه النظرات ·· بقيت دقيقتان ·· ثم مررنا بتقاطع الخطوط عند دييب ، حيث رأيت عامل الاشارة فى الكشك .. كان الدوى يصم الاذان ، كالرعد ، أو كوقع عشرات المطارق الضخمة ··

وجعلت ترتعد ، وقطعت حديثها لكى تقول فى صوت مختلف ، يوشك على حد الضحك :

– أليس بلاهة منى انى ما زلت أشعر بالبرودة تنفذ حتى عظامى ؟ ·· ، ولكن هأنذا ، أشعر بالدفء وأنت معى ، وبسعادة عظمى ! ·· ثم لم يعد هناك شىء يخشاه الانسان ·· ان القضية وضعت على الرف ، وكبار الموظفين فى الحكومة أقل اهتماما منا باعادة فتح ملفاتها ·· وأنت تعرف أنك أفزعتنا فى فترة ما ! ·· قل لى ، كثيرا ما ساءلت نفسى ، ما الذى رأيته بالضبط أنت يا جاك ؟ ··

– هو ما قلته لقاضى التحقيق ·· رجل يذبح رجلا آخر ·· لا أقل ولا أكثر ·· ثم رأيتك أنت وروبو تسلكان نحوى مسلكا غريبا حتى بدأت ارتاب ·· ولكنى لم أتاكد تماما الا فيما بعد ··

فقاطعته قائلة بلهجة المرح :

– نعم ·· فى الحديقة العامة هنا ذلك اليوم ، هل تتذكر ؟ ·· أليس هذا من الطرافة ؟ ·· قلت لك أننا لم نفعل هذه الفعلة ، وأنا أعرف تماما أنك عارف بأننا فعلناها ·· كان الموقف وكأننى اعترفت لك بكل شىء ·· أليس كذلك ؟ ·· كان ذلك هو اليوم الذى وقعت فيه فى غرامك ! ··

زادتها هذه الكلمات عناقا .. وفى خلال ذلك تابعت اعترافاتها قائلة :

– كان القطار يندفع بنا فى جوف النفق .. هو نفق

طويل كما تعرف ، يقطعه القطار فى ثلاث دقائق ، ولكنها بدت لى أكثر من ساعة .. ان القاضى كف عن الكلام بسبب الدوى ٠. وبدا ان زوجى خانته شجاعته ، فانه لم يقم بأية حركة ٠٠ لعله كان ينتظر حتى نصل الى الريف الفسيح ؟ ٠٠ الا ليته يهم بالعملية ! ٠٠ لقد بلغ من شعورى بالخوف والعذاب والقلق حدا جعلنى أفكر فى اختطاف المدية واتمام العملية بنفسى ٠٠ ويظهر أنه قرأ أفكارى ، فانه فجأة هم على القاضى وامسك بكتفيه ٠٠ فتملص منه محاولا الوصول الى حبل الانذار بالخطر ٠٠ وقبل أن يلمسه جذبه زوجى الى الخلف وأوقعه فى مقعده ٠٠ وقد فتح فمه ليصيح مستنجدا ، ولكن ما كان لاحد أن يسمعه بسبب دوى القطار ٠٠ ثم قل الدوى فجأة ٠. فقد خرجنا من النفق واصبحت أرى الاشجار مرة أخرى ٠٠ وكنت جالسة فى ركنى منكمشة على نفسى متباعدة عنهما بأكثر ما يمكننى .. لقد خيل الى أن ذلك الصراع المخيف لن ينتهى ، وان الركاب لابد أن يسمعوا صرخاته ، وان الاشجار ذاتها لابد أن ترانا ٠٠ وكان زوجى رافعا المدية فى يده ، لكنه لم يستطع الاقتراب منه بالدرجة الكافية لكى يستخدمها ٠٠ وفى خلال ذلك كان القاضى يضرب الهواء برجليه ٠. وكان القطار يهتز بعنف ، وأطلقت القاطرة صفيرها عندما أخذنا نقترب من تحويلة (كروا دى موفرا) ٠٠ وفى هذه اللحظة القيت بنفسى على ساقيه وأمسكت بهما ٠٠ ارتميت عليها بكل جسدى وسمرتهما على الارض ٠٠ ولم يكن بوسعى أن أرى ما حدث على الاثر ، ولكن كان بامكانى أن أشعر به ٠٠ شدة الطعنة والمدية تهوى فى رقبته ٠. الرعدة التى سرت فى الجسم كله ٠٠ الشهقات الثلاث المخيفة التى صدرت منه قبل أن يلفظ أنفاسه ٠٠ بوسعى حتى

هذه اللحظة أن أشعر بها كلها فى عظامى ! ٠٠

وحاول جاك أن يقاطعها تعطشا منه للوقوف على كل تفصيل من تفاصيل الجريمة ، ولكنها كانت متعجلة للوصول الى نهاية القصة ، فاستطردت تقول :

— لا ٠. انتظر ٠٠ وعندما قمت كنا نمر فى منطقة (كروا دى موفرا) ٠٠ كان بوسعى أن أبصر بجلاء واجهة المنزل الامامية وكشك عامل الاشارة ٠٠ وبعد خمس دقائق نصل الى بارنتان .. كان القاضى مكوما فى مقعده وحوله بركة كبيرة من الدم ٠٠ ووقف زوجى وهو يميل مع كل اهتزاز للقطار ينظر اليه ويمسح المدية ٠. لقد دام هذا دقيقة كاملة دون أن يحاول أحدنا أن يبتعد ٠٠ لو أننا بقينا فى المكان مع الجثة ، فقد يكتشف كل شىء عندما نقف فى بارنتان ٠٠ وما لبث أن وضع المدية وبدا كأنما أخذ يفيق الى نفسه ٠٠ ورأيته يفتش جيوب القاضى ويأخذ ساعته ونقوده ٠٠ ثم فتح الباب وحاول أن يدفع الجثة الى الشريط ٠. فانحشرت فى الباب ، ولكنه بعد دفعة قوية أفلح أن يقذف بها وراسها فى المقدمة .. وبقى الباب مفتوحا يهتز ، وعندما نزل زوجى على درجة السلم لم أستطع أول الامر أن أفهم ماذا كان يريد أن يفعل ٠٠ قال لى : « اسرعى ! ٠٠ اتبعينى اذا أردت النجاة بحياتك ! » ٠٠ كنت مكانى مشلولة من الفزع ، وبدا حبك ينفذ بالنسبة الى ٠. ثم قال لى مرة أخرى : « هيا بالله ! ٠٠ ان مقصورتنا خالية الان ٠٠ علينا أن نعود اليها ٠٠ » ٠٠ أما كيف فعلت هذا فذلك ما لن أعرفه أبدا ٠. انى نزلت الى درجة السلم وتعلقت بالعمود الحديدى بينما أخذ هو يقفل الباب ٠ ثم جعلت أسير ببطء شديد على امتداد المركبة المهتزة ٠٠ كنت على وشك الاغماء من شدة الدوار ، وشعرت فى كل لحظة أن

قبضتى توشك أن تفلت .. وكنت أقطع مرحلة فى هذه العملية عندما تعين على أن أخطو من مركبة الى أخرى، ولكن أضواء بارنتان لاحت لنا ، فتحاملت على نفسى لعبور الفتحة المهتزة الفاصلة بين المركبات .. أما كيف أن أحدا لم يبصرنا فهذا ما لا أدريه قط ٠٠ وأخيرا فتح باب مقصورتنا ودفعنى مرة وجذبنى من شعرى مرة أخرى ٠٠ وعندما وقف القطار كنت مستلقية فى مقعدى فى حالة نصف اغماء ٠٠ واستطعت أن أسمعه وهو يتحدث مع ناظر المحطة ٠٠ وعندما تحرك القطار من جديد ، تهالك هو أيضا فى مقعده من فرط الاعياء ٠٠ ولم يتكلم أحدنا بكلمة واحدة حتى وصلنا الى الهافر ٠٠ أواه ! ٠٠ اننى أمقته ! ٠٠ اننى أمقته بسبب كل هذه الاشياء الفظيعة ! ٠٠ ولكنى أحبك أنت يا حبيبى ! ٠٠ انت تمنحنى السعادة والنعيم ! ٠٠

كانت صيحتها الاخيرة بعد أن بلغت الذروة من قصتها بمثابة ابتهال له لكى يمنحها من الحب ما يطمس على هذه الذكريات الرهيبة ٠٠ بيد ان جاك الذى انفعل الان أعنف انفعال أراد أن يعرف المزيد ٠٠ فقال :

ـ قلت أنك ارتميت على ساقيه وشعرت به وهو يموت ؟

ان الوانا كريهة من الحنين الى القتل بدأت الان تضطرب فى أعماقه ، حتى مضى يقول :

ـ وشعرت بالمدية وهى تشقه ؟

ـ نعم ٠٠ كأنها صدمة صماء ٠٠

ـ صدمة صماء ! ٠٠ الم تكن أشبه بصوت قطع وتمزيق ؟

ـ لا ٠٠ لا ٠٠ مجرد صدمة ٠٠

ـ ثم صدرت منه رعدة طويلة ٠٠ أشبه برفرفة المذبوح ؟ ٠٠

ـ نعم ٠٠ ثلاث مرات ٠٠ فى كل مرة كنت أشعر بها تسرى فى كيانه .. حتى قدميه ٠٠

ـ وكيف كانت مشاعرك ، وأنت تشعرين به يموت على هذه الصورة ؟

ـ آه يا جاك ٠٠ لا أعرف ! ٠٠

ـ لا تكذبى ٠٠ بل تعرفين ٠٠ أخبرينى بصراحة ٠٠ أكنت تشعرين بالفزع . ؟ بالاسف ٠٠ ؟

ـ لا ٠٠ لم يكن هذا ٠٠

ـ هل شعرت بالسرور اذن ؟

ـ آه ٠٠ لا ٠٠ طبعا لا ٠٠

ـ ماذا كان شعورك اذن يا حبيبتى؟ ٠٠ أرجوك أن تشرحى لى كل شىء ٠٠ليتك تعرفين ما أقصد ٠٠ أخبرينى كيف كان شعورك ؟

ـ لكننى لا أستطيع تصوير هذا بالكلمات ٠٠ انه شىء فظيع ! .. كنت أشعر كأنى فى عالم آخر،بعيد جدا ٠٠ لابد أنى عشت تلك اللحظة أكثر مما عشت فى حياتى كلها ! ٠٠

وعندئذ فقط ، استطاع جاك أن يحتويها بين ذراعيه .. كانا اقرب الى الوحوش ، وقد وجدا النشوة فى ظلمات أشباح الموت والقتل ٠٠

● ● ●

ظل جاك مؤرقا لا يغمض له جفن رغم أن سيفرين استغرقت فى النوم الى جانبه ٠٠ ان قصة القتل استحوذت على كل حواسه ، بكل تفصيلاتها وجزئياتها ٠٠ انه ما عاد يستطيع المقاومة ٠٠ لقد أيقن

الآن أنه لم يشف كما كان يتوهم .. ان رغبته القديمة فى القتل ما زالت كامنة فى أعماقه ، قوية كما كانت أبدا ..

وتوالت الساعات وهو على هذه الحال .. وتلهف لطلوع النهار حتى يطرد عنه هذا الكابوس المخيف .. ولما دقت الساعة السابعة كان بوسعه أن يجدد معالم الغرفة بعد انقشاع الظلام .. ومن عجب أن الضوء تركز فوق المدية التى كانت ملقاة فوق المائدة ، حتى كان انعكاسه يسمر نظراته فيها دون أى شىء آخر فى الغرفة ..

وحانت منه التفاتة الى سيفرين .. كان شعرها الفاحم الغزير منسدلا تحت رأسها كوسادة ، وعنقها المرمرى يبدو وضاء كاللبن .. ان هذا العنق الابيض استهواه .. وفى رعب متزايد أدرك أنه لابد أن يتقدم الى المائدة ويأخذ المدية ويغمدها فى هذا العنق العاجى .. لقد ايقن أن الامر أقوى من كل ارادة لديه .. لو أنه بقى ينظر اليها فان يديه ستكون لهما الغلبة على كل شعور آخر .. فقذف بنفسه من الفراش حتى وقع على الارض ، ثم نهض يترنح كالمخمور .. وكانت الفكرة التى تدور برأسه الان هى أن يرتدى ملابسه ويأخذ المدية ويخرج لقتل أية امرأة يصادفها فى الشارع .. وارتدى ملابسه فعلا وهو يرتعد كالمحموم ، وأخذ المدية ، وأخفاها فى كمه ..

فى هذه اللحظة بدأت سيفرين تستيقظ .. وقالت وهى تحت تأثير النعاس :

ــ ما هذا يا حبيبى ؟ أتخرج الان ؟

فأجاب متلعثما : ــ هى مسألة صغيرة أريد اتمامها .. نامى يا حبيبتى .. سأعود قريبا ..

ــ تعال قبلنى يا حبيبى ..

لم يتحرك من مكانه .. كان يعلم أنه لو تقدم نحوها والمدية فى يده ورآها عارية لتحطمت كل بقية من أراده لديه ، ولاغمد المدية فى عنقها المرمرى .. وهكذا جذب الباب جذبا وجرى الى الخارج ..

كانت الساعة الثامنة .. ولمح فتاة فى الرابعة عشرة تخرج من البيت المواجه .. فتقدم الى ناحيتها والمدية فى كمه .. لكن الفتاة اختفت فى مخبز قريب .

وفى غمرة استعجاله لم يستطع ان ينتظر خروج الفتاة من المخبز .. لم تكن هى نفسه المعهودة الان حتى يسيطر عليها .. كانت النفس الاخرى ، التى طالما شعر بها تختلج فى أعماقه . . النفس التى مارست القتل من قبل ، ربما فى دنيا أخرى ، وهى الآن تتربص للقتل من جديد .. كان يسير كما لو كان فى حلم .. ان دنياه المعهودة لم يعد لها وجود .. ان الذى له الآن وجود وواقع ، هو الحاجة الملحة المتعطشة للقتل ..

ومرت به امرأة تسير بخفة ونشاط متجهة الى المحطة .. كانت شقراء باهرة الحسن فى ربيعها العشرين .. وظل يتعقبها وهى لا تفطن اليه حتى دخلت المحطة وقطعت تذكرة واستقرت فى مقعدها ، وجلس هو فى المقعد المجاور لها والمدية فى كمه ، وهو يتفرس فى ملامحها الجانبية لكى يتخير الموضع المناسب للطعنة ..

ولكن عند وصول القطار الى محطة تروكاديرو صعد أحد رجال السكة الحديدية من معارفه وجلس الى جانبه يجاذبه الحديث فى أحوال العمل .. ومنذ هذه اللحظة ساد الارتباك والتشويش ولم يستطع جاك بعد ذلك أن يدرى ما حدث على وجه التحديد ، هل نزلت الفتاة فى محطة اويتى او نزل هو .. ان الذى يتذكره فقط هو انه كان واقفا قرب النهر يلقى بالمدية من فوق السور .. ولابد انه ذهب بعد ذلك يهيم على وجهه ساعات كاملة .. ولابد

انه تناول طعاما فى مكان ما لانه تذكر رؤية اطباق امامه .. وبعد ذلك كان كل شيء ملموسا لاوضوح فيه لشيء ..

وعندما افاق لنفسه من جديد ، كان فى غرفته الصغيرة بشارع كاردينيه ممددا فى سريره بملابسه ·· وشيئا فشيئا تذكر الليلة التيأمضاها مع سيفرين ، وكيف أنها اعترفت له بجريمة القتل ، وكيف اندفع كالوحش الكاسر بحثا عن الدم ·· وما لبث ان تذكر أنها تنتظره الان ، فنهض مسرعا ونظر الى ساعته كانت الرابعة..وحين شعر الان بالهدوء والتجرد من كل فكر وشعور ، اسرع عائدا الى غرفة العجوز فكتوار ··

ان سيفرين ظلت نائمة حتى الظهر ·· وعندما تضايقت من الوحدة ذهبت الى مطعم قريب وتناولت الغداء ·· وعقب عودتها ظهر جاك أمامها ·

ـ اواه يا حبيبى ! ·· انى قلقت جدا ·· ماذا حدث ؟

ـ لا شيء ·· مسألة صغيرة جدا خاصة بالعمل ··

فقالت وهى تطوقه بساعديها :

ـ الحقيقة أنى جاءتنى فكرة مجنونة .. خطر لى أنه بعد ان قلت لك كل شيء فربما اردت الا ترانى ·· ظننت انك لن تعود ! ··

واخذت تبكى ·· وضمته اليها بعنف وهى تقول بصوت متقطع متهدج ·

ـ أواه يا حبيبى .. لو عرفت كم احتاج الى محبتك، ورقتك ! ·· ان حبك وحده هو الذى يجعلنى انسى ·· اتوسل اليك الان بعد ان اخبرتك بكل شيء ، الا تتركنى ! ··

والواقع ان جاك تأثر باستعطافها ، فقال وقد ذهب عنه التأزم النفسى :

ـ لا تخافى ·· لن اتركك ·· اننى احبك ··

وتذكر مأساته المروعة .. اللوثة الجنونية المعاودة التى لن تتركه بعد الان فبكى بدوره ·· وقال لها :

ـ لابد ان تحبينى انت ايضا ·· انا محتاج الى حبك بقدر احتياجك الى حبى ..

فارتعدت وهى لا تفهم ما يعنيه ، وقالت :

ـ تقصد ان عندك متاعبك انت ايضا يا حبيبى ؟ كلمنى عنها ··

ـ لا ·· ليست متاعب ·· انها اشياء لا يمكن توضيحها ·· انقباضات وكآبة تجعلنى غير سعيد · و ·· واشياء لا يمكننى ان اتحدث عنها ··

وتعلق كلاهما بصاحبه · وكأنما شعرا بأنهما ضحيتان لقوى عمياء تسير امرهما وتوجههما الى قدر محتوم ··

وما لبث جاك ان تخلص منها وقال :

ـ يجب ان نفكر فى العودة ·· لابد ان تعودى الى الهافر الليلة ·

وخيم صمت قصير ، ولاحت فى عينى سيفرين نظرة مهمومة بعيدة ، ثم همست قائلة :

ـ ليتنى كنت حرة..ليت زوجى لم يكن موجودا.. عندئذ كنا ننسى متاعبنا فى الحال ··

فابدى جاك ايماءة سريعة وقال :

ـ هل معنى هذا أنه يمكننا أن نقتله ؟

فحدجته بنظرها طويلا ، وارتعد هو مما اوحت به

كلماته ·· انه شيء لم يفكر فيه من قبل ·· لكن مادام يريد القتل ، فلماذا لا يقتل هذا الرجل الذى يقف فى طريقهما ؟

وعندما افترق عنها لكى يعود ادراجه الى حظيرة القاطرات ، احتوته بين ذراعيها مرة اخرى وقبلته مرارا ·· وقالت :

ـ كل ما اريده فقط هو ان تحبنى يا اعز الناس عندى ! ·· سأحبك الان اكثر من اى وقت مضى ·· اننا سنذوق السعادة معا ، وسوف ترى ··

● ● ●

الفصل التاسع

بعد العودة الى الهافر التزم جاك وسيفرين فى علاقتهما اتم الحذر ، فان روبو بعد أن اصبح يعرف الحقيقة لابد ان يراقبهما عن كثب ، ثم يوجه ضربته ·· وهكذا بقيا شهرا وهما اشد ما يكون الانسان تحوطا ··

وفى خلال ذلك طرأ تحول كبير على أطوار روبو ·· فقد بدأ يكثر من الغياب عن المنزل ·· وبدا لهما اول الامر انه يفعل هذا عامدا ، ربما لكى يأخذهما على غرة ويفاجئهما متلبسين ·

اما الحقيقة فهى ان روبو كان يقضى اكثر وقته فى لعب القمار فى غرفة صغيرة فى (كافيه دى كوميرس) ·· والواقع انه اصبح يفعل هذا عقب مقتل القاضى جرانموران ·· ان القمار غدا وسيلة للهروب من نفسه ، المسكن الذى يواجه به متاعبه ·· وبعد ذلك اصبح لا يعنيه شيء فى الدنيا غير اوراق اللعب ··

وفى تلك الليلة التى أخذ فيها مبلغ الثلاثمائة من الفرنكات الذهبية المخبأة فى أرض مسكنه ، فانما فعل ذلك سدادا لدينه الى مسيو كوش ملاحظ بوليس السكة الحديدية الذى كان بارعا فى اللعب والذى كانت رسالته فى الحياة هى اراحة الناس من اموالهم ··

وبعد ذلك بثلاثة اسابيع كان روبو مدينا لمسيو كوش بمبلغ اربعمائة فرنك اخرى ·· وعندما كان وحده فى

المنزل صباح احد الايام رفع خشب الارضية مرة اخرى واخذ ورقة مالية قيمتها ألف فرنك .. اهتزت يداه ، وشعوره بالخوف كان هذه المرة اشد مما كان فى المرة الاولى ·· لكنه سارع باعادة اللوحة الى مكانها ، واقسم من جديد ليقطعن يده ولا يمدها الى هـــذه النقود مرة اخرى ·· ومهما يكن فان المبلغ يكفى لسداد الدين ، وفى الباقى متسع للعب ··

وتوالت الاسابيع ، وكان المبلغ الباقى فاتحا للشهية ومذكيا لحمى القمار ·· ولكن ماذا يفعل فى الحظ الانكد الذى ظل يلازمه ؟ ·· ان الشهر لم يصل الى نهايته وهو مدين مرة اخرى بمبلغ جسيم ··

لكن ما عليه من هذا ·· هناك تسع ورقات من فئة الالف فرنك لاتزال باقية فى المخبأ ، وفيها كل الفرج ··

وذات مساء عندما اوت سيفرين الى الفراش مبكرة ، يمم روبو شطر المخبأ ودموع القهر والغضب فى عينيه ، ورفع الغطاء وهو موقن انه سوف يأخذها ورقة ورقة حتى يأتى عليها ··

وفى اليوم التالى تصادف أن استرعى نظر سيفرين وجود خدوش فى ارضية الغرفة ·· ولما ركعت فوق المخبأ وتحققت ان ظنونها اضحت يقينا تملكها اشد الغضب ، وواجهته فى المساء قائلة :

ــ ماذا دهاك يا رجــل ؟ ·· اننى اصــبحــت لا افهمك ! ·· كنت فى الماضى رجلا شريفا ولا تقبل سنتيما من احد ! ·· وحتى فعلتك التى فعلتها كان يمكن ان تغتفر ·· فعلتها فى نوبة جنون وجعلتنى وقتها مثلك ·· لكن هذه النقود التى اقسمت من قبل الاتمسها اراك الآن تسرقها شيئا فشيئا لتنفقها على القمار ·· ماذا دهاك ؟ هل يبلغ بك الانحدار الى هذا الحد ؟

لقد انصت اليها وهو يعلم انها تقول الحقيقة ، وقد عجب مثلها فى قرارة نفسه مما دهاه واوصله الى هذا الحضيض ·· لقد ارتكب جريمة قتل ، وبسبب الجريمة تبدلت حياته كلها ·· بيته تهدم ·· وزوجته اصبحت تبادره بالبرود والعداء ، واتخذت لنفسها عشيقا ·· ولكن شعور اللامبالاة الذى اصبح طابعه فى العهد الاخير ما لبث ان تغلب عليه ، ورد عليها قائلا بلهجة السخط :

ــ اذا اصبح الانسان غير سعيد فى بيته ، فانه يحاول ان يجد التسلية فى الخارج ·· الان وقد اصبحت لا تحبيننى ··

فقاطعته قائلة : صدقت فيما قلت .. الحقيقة أننى لا احبك !

فتطلع اليها ولطم المائدة بقبضته قائلا :

ــ اذن دعينى وشأنى ·· هل انا اعترض طريقك وامنعك من ان تفعلى ما تريدين ؟ ·· لو كان احد آخر مكانى لفعل الكثير ·· بامكانى مثلا ان اطردك من هنا ، وعند ذلك قد اكف عن السرقة ··

شعرت بوجهها يمتقع ·· لقد رأت مثله ان رجلا يسمح لزوجته بان يكون لها عشيق ولا يحرك ساكنا هو ولا شك كائن موبوء ازمن معه الداء حتى قتل كل احساس لديه وخنق كل بقية من ضمير فيه ·· لكن لم تكن هذه مسئوليتها الان ، وغمغمت قائلة :

ــ مهما يكن فانى احذرك من لمس هذه النقود

كان قد فرغ من طعامه هذه اللحظة ، فنهض وقال لها ساخرا :

ــ لا بأس · اذا اردت شيئا منها ، فالافضل ان نتقاسم المبلغ !

وانحنى فوق المخبأ ، وكأنه يهم برفع اللــوحة ··

فاندفعت نحوه ووضعت قدمها فوق اللوحة قائلة :

ــ لا ! ·· انت تعرف انى افضل الموت على هذا ! ·· لا تفتح هذا المكان امامى ابدا ! ·· ابدا ! ··

وفى تلك الليلة عندما عادت سيفرين من موعدها مع جاك لم تستطع أن تنزع صورة ذلك المشهد مع زوجها من ذهنها ·· كان زوجها فى نوبته الليلية ، ولا خوف من رجوعه ·· لقد خطرت لها فكرة ظلت تلح عليها طويلاً ·· لماذا لا تأخذ النقود كلها من المخبأ وتضعها فى مكان آخر لا تستطيع يده ان تصل اليه ؟

بهذا العزم حملت المصباح وتقدمت الى غرفة الطعام ··

انها لم تعد ترتعد ، ولم تعد تخاف ·· وقد رفعت اللوحة بقضيب من الحديد ، واجالت المصباح فوق الفتحة للنظر الى داخلها ··

سرعان ما شعرت بجسدها يتصلب ·· ان الفتحة كانت خاوية . . لابد أن روبو انتهز فرصة غيابها مع جاك وعاد الى المنزل واخذ النقود كلها ·

وعندما انحنت مرة اخرى فوق الفتحة لم تجد بداخلها سوى الساعة والسلسلة الذهبية ·

تملكها غضب عنيف سمرها مكانها برهة ·· واخيرا حملت الساعة وركلت اللوحة الى مكانها وعادت الى غرفة نومها وهى تغلى غضبا ··

ثم بدا لها ان تفحص الساعة ·· وجدت الحرفين الاولين من اسم القاضى محفورين على ظهرها ، وفى داخلها قرأت رقم ٢٥١٦ ·· معنى هذا ان الرقم لابد أن يكون معروفا للبوليس ، ومن الخطر ابقاء الساعة فى حوزتها ·· ومع ذلك فان فورة الغضب وخيبة الامل جعلاها اقرب الى الاستهتار ·· وهكذا دست الساعة

تحت وسادتها ، واطفأت المصباح ، واستسلمت للنوم ··

وفى اليوم التالى كان على جاك أن ينتظر الى حين ذهاب روبو الى المقهى قبلما ينضم الى سيفرين لتناول الغداء معها ·· وفى اثناء الطعام اخبرته باختفاء النقود وهى فى اشد النقمة على زوجها ·· ثم اخرجت الساعة واصرت على اعطائها له ، فلم يجد مفرا من القبول على كره منه ··

وبعد ساعة فوجئا وهما جالسان فى الحجرة بدخول روبو ·· فوثبت فى مكانها ، ولكن فات اوان الانكار والتملص . . وجمد جاك فى مكانه مصعوقا عاجزا عن الحركة ·· وبدل ان تعمد سيفرين الى اى تفسير ، فانها اندفعت نحو زوجها وهى تصيح :

ــ يالص ! ·· يالص ! ··

وبدا روبو مترددا لحظة . . ومالبث أن هز كتفيه هزة اللامبالاة التى اصبحت شعاره هذه الايام ، ثم دلف الى غرفة النوم لاخذ مفكرة السكة الحديدية التى نسيها ، وخرج دون ان يعقب بشىء ··

وبعد صمت طويل التفتت سيفرين الى جاك وقالت :

ــ هل تصدق ما رأيت ؟

فنهض جاك الذى ظل صامتا طول هذه الفترة وقال :

ــ اذا سألتنى رايى ، قلت لك أنه انتهى ·

ومنذ ذلك اليوم شعرا بالحرية التامة ، ولم يعد روبو يشغل بالهما ·· انما الذى كان يشغلهما هو مدام لوبليه التى لم تكف لحظة عن تجسسها فى الممشى الكبير ·· وهكذا صممت سيفرين على تجديد حملتها للاستحواذ على مسكن مدام لوبليه ، لا لانه مبهج ، ولكن لان له بابا ثانيا يطل على السلم الخلفى ، وهكذا يستطيع جاك ان يزورها دون خوف من تجسس مدام لوبليه ·· وهكذا

بدأت معركة جديدة حامية الوطيس فى المشى الكبير ··

ومن عجب ان جاك انتابه تبدل غريب هذه الايام ·· لقد سنحت له الفرصة مرتين للقاء سيفرين ، ولكن بدا انه ينتحل الاعذار للتهرب ·· صحيح انه مازال يحبها ، ولكنه بدأ يشعر كلما أصبح بين ذراعيها بعلته القديمة تعود اليه ، وبذلك الدوار والغثيان يتملكانه الى حد يحمله على السعى الى الافلات منها فى أول فرصة ،خوفا من أن يدفعه الوحش الكامن فى داخله الى الانقضاض والفتك ولهذا راح ينكب على عمله فى قاطرته الحبيبة ليزون وفى جوفها كان ينسى كل شىء ·

فطنت سيفرين الى التغير الذى طرأ عليه ، وشعرت بأنها غير سعيدة ، ولامت نفسها لانها اعترفت له بالسر وأطلعته على كل شىء فى حياتها .. ورغم ذلك لم يكن يعنيها الا شىء واحد ·· لقد أسلمت نفسها له قلبا وقالبا ·· انها عشيقته وكفى ·· انها تعيش وجودها كله من خلال حبها له ·· الان وهو يعرف سرها وقد أحلها من كل خطيئة ، فقد أصبح سيدها المطلق ، وصاحب السلطان الاوحد فى حياتها ، وهى لا تتردد أن تتبعه الى أقصى أركان الارض ·

ولهذا كانت رحلاتها الاسبوعية الى باريس فى القطار الذى يقوده جاك مبعث سعادتها الكبرى ·· كانت تقضى معه نهارا كاملا وهى منتشية بحبه ، خاصة وقد كانت تعود اليه بهجته بهذه الرحلات وترده الى سالف بشاشته ·· ولم يكن يضايقها فى الطريق سوى رؤية فلور واقفة لدى المزلقان قرب (كروا دى موفرا) رافعة راية الاشارة وهى تتبع القطار بنظرة يتجلى فيها الحقد الدفين ·

والواقع أن جاك حذرها من هذه الفتاة بعد أن شاهدته

يقبل سيفرين يوم تراكم الثلوج .. أنه تذكر عاطفتها المضطرمة التى ظلت تلاحقه بها منذ الطفولة ، وأيقن أن غيرتها الجنونية يمكن أن تغدو مبعث خطر لهما ·· وفوق ذلك فان فلور تعرف الكثير ·· لقد تذكر تلميحها الى العلاقات بين القاضى وبين فتاة معينة ، وكيف عمل القاضى على الزواج من هذه الفتاة . . وأغلب الظن أن فلور تنبهت الى سر جريمة القتل ، وقد تعمل على الانتقام لنفسها بفضح سيفرين ·

وفى خلال ذلك تزايدت كراهية سيفرين لزوجها حتى أصبحت تتمنى الخلاص منه على أية صورة ·· كانت تحلم أحيانا فى يقظتها بأن يلقى حتفه فى حادث ، وبهذا تسافر مع جاك الى أمريكا بعد أن يتزوجا ويبيعا المنزل فى (كروا دى موفرا) ، وهناك ينعمان بالسعادة الدائمة التى تهفو اليها ، وتنسى الماضى بمآسيه الى الابد ·

ومن عجب أن جاك جاءها ذات ليلة فى شهر مارس بنبأ رأت فيه بشيرا بامكان تحقيق حلمها ·· قال لها أنه صادف فى القطار صديقا من أيام المدرسة أخبره أنه مسافر الى نيويورك لتسويق اختراع له وهو آلة لصنع الزراير ، وأنه محتاج الى شريك يكون ذا دراية ميكانيكية ، واقترح أن يكون جاك هذا الشريك .. أن الفرص المرتقبة من نجاح هذا الاختراع عظيمة ، وهو لا يحتاج الى أكثر من ثلاثين ألف فرنك كنواة لاستغلال المشروع ، وبعد ذلك ستصل الارباح الى ملايين . . وقد اختتم جاك قصته قائلا أنه رفض هذا العرض ، وان كان ذلك على كره منه ، لانه ما من أحد يمكن أن يرفض ثروة كهذه اذا سنحت له الفرصة .

وكانت سيفرين تنصت اليه وفى عينيها نظرة بعيدة ·· أليس هذا حلمها يوشك أن يتحقق ؟

غمغمت أخيرا قائلة : ــ يمكننا أن نسافر غدا ؟
فنظر اليها بدهشة قائلا :
ــ ماذا تعنين بقولك أنه يمكننا السفر غدا ؟
ــ لو مات صاحبنا ··
لم تذكر اسم روبو ، ولكنها وصفته باشارة من يدها ·· فأدرك غرضها ، وأبدى اشارة غامضة مؤداها أن روبو لم يمت مع الاسف ·
فقالت بصوتها الخافت العميق :
ــ بامكاننا أن نذهب . . سوف نكون سعداء هناك . . يمكننى الحصول على ثلاثين ألف فرنك من بيع المنزل، ثم يتبقى بعد ذلك مبلغ آخر لتدبير أمورنا . . ما أعظم السعادة التى تنتظرنا هناك !
وتشابكت ايديهما واستغرقا برهة فى هذا الحلم الوردى ·· وما لبثت سيفرين أن قطعت الصمت قائلة :
ــ اذهب الى صديقك وقل له ألا يتفق مع شريك قبل أن يأخذ رأيك أولا ··
ــ لماذا ؟
ــ لا يدرى أحد ماذا يخبئه المستقبل ·· الحوادث الفاجئة كثيرة ·· وربما لا يكون من المستحيل أن يموت ··
فقال جاك محاولا الابتسام :
ــ هل تحاولين أن تقولى لى أنك تريدين منى أن أقتله ؟
ــ لا ·· لا ·
لئن قالت لا باللسان، فان نظرتها قالت نعم بأجلى بيان ·· ولم لا ؟ ألم يقتل روبو رجلا ؟ ·· فلماذا لا يكون القتل نصيبه هو ؟
فقال جاك وقد زادت ابتسامته تركيزا ، عندما لمح المطواة الكبيرة فوق الخوان ، عن كثب منه :

ــ اذا كنت تريدين أن أقتله ، فلا بد أن تعطينى المطواة ·· ان معى الساعة حتى الان ، وبالاثنين سيكون معى مجموعة لطيفة !
وأرسل ضحكة عالية غير طبيعية، ولكنها أجابت دون أن تضحك :
ــ خذها اذن ·
فوضع المطواة فى جيبه ، ثم احتواها بين ذراعيه وقبلها ، وكأنما يصدق على ما اعتبره حتى الان مزاحا ·
وقولى له أن ينتظر . . وتعالى لمقابلتى يوم السبت اذا لم يكن الطقس ممطرا ·· لكن لا تنزعجى ، فلن يقتل أحد ، وكل ما هناك أنى أمزح ، كما تعرفين ·
ولم يستطع جاك أن ينام هذه الليلة عندما تمدد فى عنبر النوم والى جانبه الوقاد بيكيه فى السرير المجاور ·· ان فكرة القتل استحوذت على عقله ·· ولم لا يقتل روبو ؟ انه العقبة الوحيدة فى طريق سعادته ·· لو أزاحه من الطريق لتزوج سيفرين وأصبحت خالصة له جسدا وروحا دون حاجة الى هذه المخادعة وهذا التخفى . . ان حياته سوف تكون حافلة بالسعادة والى جانبه امرأة متيمة بحبه ، وثروة بالملايين تنتظره فى أمريكا ·
وفجأة استحوذت عليه فكرة أخرى . . أنه كان يتعذب منذ الطفولة بحنين جنونى للقتل ·· ولو أنه قتل روبو فربما ارتوى ظمأه الى الدماء ، واذن لنال الشفاء من هذا الداء الوبيل ! . . وبالشفاء من علته يمكنه أن يمضى فى حبها دون أن يتملكه هذا السعار الجنونى للقتل وسفك الدم ! ·· ومادام هذا القتل سوف يجيئه بالشفاء العقلى ، وبالحرية ، وبالحب ، وبالثروة، فما عليه الا أن يفعل ، ولعله يستطيع أن يطعنه فى احدى دوراته الليلية ،

فتبدو الجريمة وكأنها من فعل لصوص الفحم فى دائرة المحطة .

ولكنه لم يلبث أن شعر بنفور شديد من هذه الفكرة كلها .. ان شيئا عميقا فى نفسه ثار عليها وأبى عليه أن يقوم بتنفيذها..ماكان له أن يقدم على عمل كهذا..ان القتل دفاعا عن النفس شيءوالقتل العمد بدافع المنفعة الذاتية شيء آخر..هذا عمل لايستطيعه..ولن يفعله !

كانت الايام التالية مصدر عذاب وكرب شديدين له .. لقد أرسل الى سيفرين لكيلا تأتى وتقابله هذا السبت .. ولكنهما تقابلا يوم الاثنين، وملأته رؤياها عذابا .. انها لم تذكر له شيئا ، ولكنه شعر طول الوقت بنظـراتها تسائله ، وتستعطفه ، وتعاتبه .. وفى لقاء آخر بعد يومين لم تكلمه ، ولكنها انفجرت باكية وطوقت عنقه بذراعيها .. لقد امتلأت نفسه بالخجل والعار،وأحس أنه لابد أن يضع حدا للأمر .. وتواعدا على اللقاء يوم الخميس .. كانت ليلة مظـلمة كثيرة النجوم تملؤها الرطوبة وضباب البحر .. وسارا مسافة قرب حوش البضائع متخاصرين دون أن يتفوها بكلمة..وبين فينة وأخرى كانا يتبادلان القبلات صامتين .. ومن ناحية المحطة دقت الساعة مؤذنة الواحدة صباحا .. ومع انهما لم يتكلما الا أنه كان بوسع كل منهما أن يشعر بأفكار الآخر وخواطره .. كانت أفكارهما وخواطرهما متطابقة هذه الايام،فعلام الكلام اذن؟..ان ما يحتاجان اليه هو العمل .. وعندما التصقت به شعرت بصلابة المدية فى جيبه .. واذن فهو قد حزم أمره أخيرا ، وقر قـراره ! .

قالت له أخيرا والكلمات تتلاحق من فمها :

ـ انه جاء الى البيت منـذ فترة .. جاء لاخـذ

مسدسه .. ومعنى هذا انه سيقوم بجولته الليلية .

ولم يتكلم جاك الا بعد بضع خطوات ، اذ قال :

ـ فى الليلة الماضية سرق بعض الحديد من هنا،واذن فلابد أن يأتى هذه الليلة .. نعم .. أنه سيأتى ، وعند ذلك تصبحين حرة !

وتعاقبت الدقائق وهما يرهفان السمع وقد اشتد تشابك أيديهما .. وفجأة شدت على يده هامسة :

ـ ها هو ذا آت .

ـ هل تظنين أنه وحده ؟

ـ نعم .. وحده .. أنظر الى خياله على الحائط !

وفى هذه اللحظة الحاسمة طوقت عنقه بساعديها فى عناقة عنيفة ، وضغطت بشفتيها المضطرمتين على شفتيه كأنما تحاول أن تبث فيه بعض شجاعتها .. وما أن رفعت شفتيها وذراعيها حتى استل المطواة الكبيرة وفتحها .

كانا واقفين فى ظلال كوم فحم ، وقد كتما أنفاسهما بينما كان روبو يتقدم الى ناحيتهما بخطى الحارس الليلى الواثق من نفسه..ثلاثون ياردة تفصل بينهما وبينه.. وكل خطوة يخطوها كانت تقصر المسافة وكأنها يد قدر رهيب يوشك أن ينزل ضربته .. عشرون ياردة .. عشر ياردات .. ان الثوانى بدت لا نهائية .. ان الخواطر أخذت تتزاحم فى رأس جاك حتى لقد فقد كل احساس بالزمن .. خمس ياردات .. ان عزمه المشتد الى أقصى حده مازال على صموده .. انه يوشك أن يقتل ، وهو يعلم لماذا يقتل .

خطوتان فقط .. خطوة واحدة هى الباقية .

وعندئذ حدث الانهيار الكامل .. لقد تهاوى عزمه وانهار .. كلا .. انه لن يقدم على القتل .. انه لن يقتل هذا الرجل الاعزل .. انه لم يجد مبررا منطقيا للقتل..

لا يمكن أن يقدم على القتل الا بحركة غريزية ، فى نوب انفعال أعمى . لم يكن يعرف فى هذه اللحظة أن الضمير هو معنى من معانى العدالة ترسب وتشكل بطيئا على مدى القرون والاجيال..كل ماكان يعرفه هو أنه ليس له حق فى القتل ، وما كان لاية حجة أن تقنعه بوجود مثل هذا الحق .

ومر بهما روبو بخطى وئيدة وهو يكاد يلامسهما .. ولو انبعث منهما نفس واحد لفضح وجودهما ، ولكنهما جمدا فى مكانهما كجثتين..لم يرتفع ذراع .. ولم تغمد مدية .. لم يكدر سكون الليل وحلكة الظلام أدنى حفيف .. لقد ذهب روبو .

وفى النهاية بدرت من جاك انتحابة مختنقة ملؤها الحنق والعار وهو يقول :

ـ لا يمكننى أن أفعل هذا .. لا يمكن !

وفى حاجته الى ما يسرى عنه حاول أن يمسك بسيفرين مرة أخرى بين ذراعيه ، ولكنه لم يمسك الا بطرف ثوبها ، أما هى فقد انسلت من بين يديه ، وجرت مبتعدة دون كلمة واحدة .

وقد هم أن يتبعها ، ولكنه رأى عقم هذه المحاولة .. لابد أنها تمقته الان لضعفه .. لابد أنها تحتقره !

وفى القفر الموحش المحيط به من كل مكان،تملكه أشد القهر والكرب واليأس .. وركض مبتعدا عن هذا المكان ، وكل همه أن يدس رأسه فى وسادته ليمحو كراهيته لنفسه واستبشاعه لوجوده كله !

● ● ●

بعد عشرة ايام أو نحوها ، حوالى نهاية شهر مارس ، انتصر آل روبو على آل لوبليه .. فان طلب الاولين

الانتقال الى المسكن المبهج ظفر بموافقة الادارة بعد تأييد ناظر المحطة دباديه .. وهكذا أرغمت مدام لوبليه على الانتقال الى المسكن المقبض ، وظفرت سيفرين بالمسكن المبهج ، فاستراح دباديه من تجسس مدام لوبليه عليه وعلى مدموازين جيشون الموظفة الشقراء ، ونالت فيلومين ماكانت تصبو اليه من الشماتة بمدام لوبليه ، وخلا الجو أمام سيفرين وجاك فى المسكن المبهج ذى الباب الخلفى الذى يستطيع أن يجىء عن طريقه دون خوف من أى تجسس .

لكن ، هل نعم العشيقان حقا بالخلوة التى كانا ينشدانها ؟.. الواقع أن العمل الذى دبراه ولم يتم ، خلق هوة من التباعد بينهما .. ان جاك الذى أصبح يرزح تحت وطأة احساس بالضعف والعار،كان يجدها فى كل زيارة أكثر تبرما وغما بسبب الامل الذى لم يتحقق .. انهما لم يعودا يتبادلان القبلات .. انهما سئما أنصاف الحلول . ان السعادة الكاملة التى يمكن أن تملأ نفسيهما الان هى الابتعاد عن هذا المكان ، والزواج ، واستئناف حياة جديدة لهما عبر المحيط .

وذات ليلة وجدها جاك أغزر دمعا .. وعندما رأته طوقته بذراعيها وأنشأت تنتحب بمرارة فوق صدره .. وكلما حاول أن يضمها مواسيا كلما زادت يأسا .. فخانته أعصابه .. وأمسك رأسها بين يديه ، ونظر فى أعماق عينيها الغارقة فى الدموع ، ثم أقسم ليقومن بما ينبغى أن يقوم به ، وعاجلا ..

وفى الحال أطبقت بشفتيها على شفتيه،وكأنما تسجل هذا العهد ، وبعد برهة شملتها قبلة طويلة اندمجا بها جسدا وروحا ..

● ● ●

الفصل العاشر

ماتت العمة فازى مساء يوم خميس ، وحاول زوجها ميزار الذى كان جالسا الى فراشها أن يغمض عينيها لكنه لم يستطع • فقد بقيت العينان مفتوحتين • ومال راسها يسيرا الى جانب ، وكأنما كانت تراقب الغـرفة وانفرجت شفتاها عن شىء كأنه بسمة سخرية •

ولكى يتخلص ميزار من فلور فقد أرسلها الى دوانفيل للابلاغ عن الوفاة ، وقدر أنها لن تعود قبل ساعتين ، وهكذا تكون أمامه فترة كافية لكى يقلب المكان رأسا على عقب بحثا عن المكان الذى خبأت فيه فازى الالف فرنك ، وهكذا ينتصر عليها ميتة ، بعد أن انتصر عليها حية ، باعتصار حياتها كمدا وقهرا يوما بعد يوم ••

وكانت الساعة الحادية عشرة عندما عادت فلور ووجدت ميزار لايزال منهمكا فى بحثه عن الالف فرنك دون جدوى •• فلا المراتب ، ولا الدولاب ، ولا الادراج ، ولا الارض ، ولا الجدران ، باحت بسر الالف فرنك •• وقد أخبرته فلور ان موعد الجنازة سيكون بعد غد ، ولما رأت آثار المعركة فى الغرفة قالت له بازدراء :

ـ لو كنت مكانك لنفضت يدى •• انك لن تجدها أبدا ••

فتقدم منها وقال من خلال أسنانه المطبقة :

ـ اذن فهى أعطتك المبلغ •• أنت تعـرفين مكان اخفائه .. فهزت كتفيها باستخفاف وقالت :

ـ أعطتنى المبلغ ؟ •• انها أعطته للارض يا حقير ! •• لمـاذا لا تبحث عنه هناك ؟

وشفعت كلماتها باشارة شملت المنطقة المجاورة على سعتها •• ولكن ميزار تجاهل سخريتها ، وتابع تفتيشه بغير كلل ولا حرج فى حضور ابنة المتوفاة .

أما هى فقد وقفت لدى النافذة ترسل البصر الى الغابات والحقول التى تضيئها النجوم اللامعة ، بين حفيف نسائم الربيع الرقيقة التى كانت تذكى حبها المعذب . .وعندما سمعت ميزار يخرج للبحث فى مكان خارج الكوخ عادت الى الفراش وجلست قرب جثة أمها فى ضوء الشمعة الخافت •• وقد شغلها مشهد المتوفاة برهة عن الخواطر التى ظلت تطوف برأسها وتلح عليها طوال الطريق الى دوانفيل وفى عودتها. .أنها عجبت الآن كيف لم تشعر باشتداد الحزن وهى جالسة بقرب جثة أمها •• أن الدموع استعصت على عينيها .. نعم أنها لازمت فراش أمها طوال أيامها الاخيرة ، بل ألحت عليها كثيرا فى استقدام طبيب ، ولكنها لم تجد ازاء اصرارها على الرفض سوى الامتثال ، مكتفية بما هى فيه من هم وحزن. .لابد أن توصد قلبها دون كل حزن آخر لا يرقى الى حزنها القلبى المتعاظم •• وهكذا لم تلبث وهى جالسة الى جانب المتوفاة أن سرحت بأفكارها الى ذلك الحلم الذى استحوذ على عقلها واستبد بكل مشاعرها •• ان تعاقب القطارات المارة كان هو العلاقة الوحيدة لشعورها بالزمن •• بل كان بوسعها الان أن تسمع الدوى البعيد للقطار البطىء القادم من باريس ، وعندما مر غمغمت تقول لنفسها :

ـ الواحدة الا الربع •• بعد سبع ساعات يمـر قطارهما ، فى الثامنة والربع صباحا ..

كانت تعلم انه صباح كل يوم جمعة يمر القطار السريع الذى يقوده جاك ، ويحمله مع سيفرين الى باريس .. كانت فلور تنتظر هذه اللحظة والغيرة تنهش قلبها .. كانت تعلم انهما فى باريس ينفردان معا ، وينعمان بالحب الملتهب .. وقد بلغ من تعاستها انها فكرت ليلة فى الكتابة الى البوليس لعلهم يقبضون على هذه المرأة .. لماذا لا تبلغهم عن الافعال القذرة التى كانت تفعلها مع القاضى جرانموران منذ سنوات؟..لكنها عندما أخذت القلم لم تدر كيف تعبر عما كانت تريد .. وعلى أى حال فهل يستمعون اليها ؟ ان كبار القوم متحالفون بعضهم مع بعض .. وربما تجد نفسها وقد أصبحت هى فى السجن ، كما حدث لكابوش المسكين من قبل .. كلا ! .. اذا أرادت أن تنال الانتقام ، فلتفعل هذا وحدها ، دون مساعدة من أى انسان ..

ان الفكرةخطرت لها فجأة قبل أسبوع من وفاة أمها ، وظلت تراودها حتى رسخت وتأصلت .. لابد أن تقتلهما معـا . .وعندئذ لا تضطر بعد ذلك الى مراقبتهما وهما يمران بهـا ، ولا تتعـذب بالتفـكير فيما يفعـلانه فى باريس .. بوسعها أن تنتزع أحدى الفلنكات أو جزءا من الشريط ، أو أى شىء آخر طالما انه يؤدى فى النهاية الى القضاء عليهما ! .. ان جاك وهو فى القاطرة : وسيفرين وهى دائما فى المركبة الامامية ، لا محالة سوف يسحقان سحقا ويموتان شر ميتة .. أما عن الركاب الآخرين ، المجهولين لها،الذين لا تنتهى رحلاتهم ذهابا وأيابا ، فانها لم تحفل بهم .. من يكونون لديها ؟ انهم لا شىء عندها .. ان دمار القطار كله بجميع من فيه ، أصبح فكرة مسيطرة على حواسها لا تفارقها لحظـة بتدمير القطار ، والتضحية بالحياة البشرية ، يمكن فقط تلطيف

عذابها ..

نعم .. عشر دقائق تكفى لنزع جزء من الشريط .. عشر دقائق قبل موعد القطار السريع القادم الى باريس ، وفى هذه الفترة لا تمر قطارات أخرى .. والان وقد دبرت الامر على هذا النحو فقد شعرت بالقلق يتلاشى من نفسها ، وسرت السكينة الى قلبها ..

على هذا العزم باتت ليلها ساهرة حتى طلع النهار وأشرقت الشمس .. وتوالت الدقائق حتى سمعت بوق ميزار فى كشـك الاشارة يعلن مرور قطـار السابعة والخمسين .. فنهضت واغلقت بوابة المزلقـان ووقفت أمامها رافعة رايتها .. وبعد أن اختفى القطار فى النفق ظلت واقفة مكانها تعد الدقائق .. اذا لم تعط فى خلال عشر دقائق اشارة بمرور قطار بضاعة ، ففى وسعها أن تسرع الى منطقة الجسر وتنتزع جزءا من الشريط .. هكذا أخذت تعد الدقائق .

وتقدمت فى نهاية الفترة المقدرة لانفاذ عزمها ، حين سمعت صرير عجلات عربة فى الطريق .. الآن عليهاأن تفتح بوابة المزلقان ، وربما تتبادل كلمة أو كلمتين مع سائق العربة ، وهكذا تفشل خطتها كلها .. لقد أبدت اشارة مهتاجة ، وأخذت تركض مبتعدة ، تاركة لهم أن يدبروا الامر بأنفسهم ، عندما سمعت فرقعة سوط فى الهواء ، وصوتا مرحا يناديها ..

كان القادم كابوش ، وراح يقول :

ماذا جرى يا فلور؟ .. مازلت نائمة فى يوم جميل كهذا ؟ اسرعى .. دعينى أمر قبل أن يأتى القطـار السريـع ..

ان الصدمة الفجائية لرؤية خطتهـا تفشل كانت مروعة .. بتثاقل ، ونفس قانطة ، وراحت تفتح بوابة

المزلقان المنيفة الصدئة ، وهى تنظر حولها فى استماتة بحثا عن شىء يمكن أن تلقيه على الشريط .. وفى حالتها النفسية هذه ماكانت لتتردد فى القاء جسدها ليكون عقبة فى طريق القطار الوشيك لو كان يكفى لاخراجـــه عن الخط .. وعندئذ حانت منها التفاتة الى العربة الثقيلة المحملة بكتلتين ضخمتين من الاحجار ، والتى كانت تجرها خمسة جياد بصعوبة .. ان الكتلتين الضخمتين ملأتا الطريق ، وبدأتا كأنهما جاءتا الآن خصيصا لانفاذ غرضها .. لقد شعرت بلهفة جنونية مفاجئة لاخذ الكتلتين بين ذراعيها والقائهما على الشريط..وفى هذه اللحظة كانت البوابة مفتوحة على سعتها ، والجياد الخمسة اللاهثة المتصببة عرقا تنتظر ..

قال لها كابوش :

ـــ ماذا بك هذا الصباح ؟ انك لا تبدين على مايرام.

فغمغمت بلهجة جامدة :

ـ أمى ماتت فى الليلة الفائتة .

عندئذ وضع سوطه ، وأمسك بيديها قائلا :

ـــ مسكينة يا فلور !.. أنا أعرف أنك كنت تنتظرين هذا منذ زمن طويل ، ولكن الامر يغدو صعبا مع ذلك .. أود أن ألقى نظرة أخيرة عليها .. ليتنى رأيتها قبل موتها ..

وذهب معها الى الكوخ .. وعند المدخل استدار فى مكانه لينظر الى الخيل ، ولكن فلور سارعت بطمأنته قائـــلة :

ـــ لا خطر من تحركها..ثم ان القطار السريع لايزال بعيدا بمسافة كافية ..

كانت تكذب .. ان صوت القطار وهو يغادر بارنتان وصل الى سمعها المدرب فى النسيم الرقيق ، وان هى الا

خمس دقائق حتى يخرج من النفق ، على مسافة نحو مائة ياردة من التحويلة ... وفى داخل المنزل كان كابوش يفكر فى الماضى ، فى مصرع لويزيت المسكينة ، بينما وقفت فلور فى الخارج تنصت الى الضربات الرتيبة للقطـــار القادم .. ثم تذكرت ميزار..لابد أنه سوف يرى ماهو حادث ويعمل على منع الاصطدام .. لكن لا .. انه ليس فى كشك الاشارة .. لقد تلفتت ورأته عند الطرف الاقصى للبيت يحفر الارض ساخطا مهتاجا قرب البئر..اذن فان القدر حليفها .. وما لبث أحد الجياد أن صهل عندما ارتفع هدير القطار فيما وراء النفق .. فقالت فلور تطمئن كابوش :

ـ لا تقلق ! .. سأذهب لتهدئة الخيل ..

وركضت بسرعة وأمسكت بلجام أول الجياد وجذبته بقوة مصارع .. فاستجمعت الجياد قواها .. وقـــد اهتزت العربة لحظة بحملها الهائل واستعصت على الحركة .. ثم ما لبثت أن تقدمت الى الامام بتثاقل ..

وفى اللحظة التى خرج فيها القطار من النفق على بعد مائة ياردة ، كانت العربة مستقرة بعرض شريط سكة الحديد .. ولكى تمنع فلور العربة من التزحزح من مكانها ، فقد صدت الجياد الى الخلف بقوة جنونيـــة خارقة ..

وأعقب ذلك ثوان من الفزع الاكبر تجلى عن الحساب فى تقدير الزمن .. ان الكتلتين الهائلتين بدتا وكأنهما تملان الافق . وأخذت القاطرة تتقدم فى طريقها باطراد وهيكلها المعدنى يلمع فى ضوء الشمس .. الان ما من قوة على ظهر الارض تستطيع وقف الكارثة الوشيكة..

وأخذ ميزار الذى اندفع راجعا الى مكانه عمله يصرخ ويلوح بيديه فى محاولة فاشلة لوقف القطار..ثم خرج

كابوش من المنزل وركض الى ناحية الخيل وهو يصرخ . ولكن فلور ارتمت جانبا أمسكت به ، وبذلك أنقذت حياته .. وفى اللحظة الخاطفة التى أوشكت فيها مقدمة القاطرة على الاصطدام الرهيب بالاحجار الهائلة ، لمحت جاك ويداه على الفرامل ٠٠ وقد أدار رأسه لحظة ، والتقت عيناه بعينيها فى نظرة خيل اليها أنها استطالت الى الابد ٠٠

كان جاك فى صباح هذا اليوم قد استقبل سيفرين بابتسامة عندماجاءت لركوب القطار السريع الى باريس . لقد رأى من العبث أن يدع هذه الكوابيس التى تتسلط عليه تفسد عليه حياته . لماذا لايأخذ حظه من السعادة المتاحة أمامه موفورا كاملا ؟ ان الامور قد تسوى نفسها فى النهاية .. ومهما يكن من شىء فانه كان مصمما هذا الصباح على الاستمتاع بيومه هذا ، فقد رسم أن يصاحب سيفرين لتناول الغداء فى أحد المطاعم ٠٠ وكانت ابتسامته فى ناحية منها تعمل على تطييب خاطر سيفرين لعدم وجود مركبة درجة أولى أمامية فى قطار اليوم واضطرارها الى الركوب فى المركبة الخلفية .. لكنهما رغم ذلك سوف يصلان الى نهاية الرحلة معا ، ويمكنهما تعويض هذا الفراق اليسير أثناء الرحلة فيما بعد ٠٠ ، بل انه كان من صفاء المزاج الى الحد الذى جعله يمازح هنرى دوفرن حارس القطار ويداعبه وهو يعلم أنه يحب سيفرين ٠٠

كانت الرحلة من الهافر الى بارنتان عادية ٠٠ وكان هنرى ذاته هو أول من لمح العربة رابضة بعرض الشريط وهو جالس فى مرصده فوق سطح مركبة الحراسة فى آخر القطار ٠٠ وقد ظل هنرى برهة مشلولا ، عاجزا عن تصديق عينيه ٠٠ وفى خلال هذه الفترة أضاع ثوانى

بالغة القيمة . كاد القطار يخرج من النفق قبل أن يجذب حبل الانذار بالخطر بجانبه ٠٠

فى تلك اللحظة المستطيرة كان جاك سارحا بأفكاره الى بعيد ٠٠ انه لم يكن يفكر فى شىء معين ، حتى ولا سيفرين ، عندما رده الى حواسه قرع جرس الخطر الفجائى الجنونى مقترنا بصياح بيكيه الوقاد ٠٠ فى طرفة عين رأى كل شىء – وفهم كل شىء ٠٠ العربة المحملة بالكتل الحجرية الضخمة بعرض الشريط . والقاطرة تتقدم بأقصى سرعتها .. التصادم الوشيك .. وفى جنون وعنف أغلق المنظم ، وجذب الفرامل ، ورد الحركة الى الخلف ٠٠ ودون تفكير منه جذب حبل الصفارة وكأن ذلك يمكن أن يحرك العقبة الهائلة التى تسد الطريق ٠٠ ولكن برغم صفير الركاب المدوى فان القاطرة ليزون لم تطع الاوامر .. ان سرعتها لم تقل بأى حال .. ماكان لشىء أن يوقف تقدمها الجبار ٠٠ وبلغ الفزع من بيكيه حدا جعله يلقى بنفسه من القاطرة ٠٠ اما جاك فقد وقف مكانه مسمرا ويده مازالت تجذب حبل الصفارة والثانية ممسكة برافعة الحركة العكسية ، وكأنما ينتظر القضاء المحتوم ٠٠ وهكذا اصطدمت ليزون والدخان يتدفق من مدخلها بعربة الاحجار بقوة الدفع الرهيبة وبحملها الهائل المؤلف من ثلاث عشرة مركبة ٠٠

وعلى مسافة عشرين ياردة شهد ثلاثة أشخاص وقوع الكارثة المخيفة ٠٠ ميزار وكابوش وهما متحجران من الرعب ، وفلور فاغرة الفم ٠٠ ان القطار ارتد على أعقابه ، وتكومت سبع مركبات بعضها فوق بعض ، ثم تهاوت بصوت قاصف مدو رهيب ، واستحالت الى كتلة من الحطام لا قوام لها ولا حدود لابعادها ٠٠ واستقرت القاطرة ليزون فوق العربة مقلوبة على ظهرها ممزقة

الاحشاء بعد أن تحولت الكتلتان الحجريتان الضخمتان الى شظايا صغيرة وكأنما نسفها ديناميت ·· وقتل أربعة من الجياد الخمسة لتوها ·· وبمعجزة من القدر وقفت المركبات الست الباقية حيث هى حتى دون أن تخرج عن الشريط ··

وارتفعت أصوات استغاثة من كل جانب ، تكاد تغرقها صيحات الالم والعذاب والتوجع ·· وكان من المستحيل أن يسمع أو يرى شىء بوضوح ·· وفى غمار الجلبة المدوية والدخان الذى يعمى الابصار،كانت أبواب المركبات التى بقيت سليمة تنزع بعنف ويتواثب منها الركاب المروعون متدافعين بالايدى والارجل فى غمرة ما هم فيه من هول ورعب..وعندما وطئت أقدامهم الارض الصلبة وشاهدوا الريف المكشوف،اندفعوا يركضون فى جنة شديدة مبتعدين بالغريزة العمياء عن هذا الجحيم ·· ولكن سيفرين لم تكن بينهم ·· انها جاهدت لتشق طريقها فى ابان هذا المعمعان وقد تناثر شعرها وتمزقت ملابسها أى ممزق ·· وبدلا من أن تجرى مبتعدة فانها ذهبت تسابق الريح الى مكان القاطرة حيث وقفت وجها لوجه أمام بيكيه ، فصاحت به :

ـ جاك ! ·· هل هو بخير ؟ قل لى انه فى أمان ؟

أن بيكيه الوقاد نجا بمعجزة ولم يصب حتى بكسر ووقف يشعر بتأنيب الضمير لنجاته على هذه الصورة بينما سائق قاطرته ملقى تحت الحطام اجاب متلعثما :

ـ اننى قفزت ·· لا اعرف ماذا حدث ·· تعالى ·· لنسرع !·

وفى طريقهما اصطدما بفلور .. أنها لم تتحرك من مكانها ·· انها وقفت مشدوهة بتأثير مافعلته يداها ، بالمذبحة التى تسببت فيها ·· كل ما عرفته هو ان المسألة

تمت ، وأنها روت ظمأها الجنونى .. لم تشعر برحمة حيال الموتى والجرحى .. لم تشعر حتى بوجودهم .. وعندئذ وقع بصرها على سيفرين هناك اتسعت عيناها ذهولا ، وتقلصت سحنتها المغبرة تقلص الالم الفاتك والعذاب المميت .. ماذا ؟ ان هذه المرأة ما زالت على قيد الحياة بينما هو لا بد أن يكون من الهالكين ! الآن فقط أدركت فظاعة جرمها الاشنع هى التى فعلت هذا. هى التى قتلت كل هؤلاء الناس وقتلت جاك ! ·

لم تلبث ان اطلقت صرخة مريعة واخذت تجرى وهى تقول :

ـ جاك ! ·· جاك ! هو هناك ! ·· انه ارتمى تحت المقطورة !.. أنى رأيته !.. جاك .. جاك .. تعالوا ساعدونى اسرعوا ·

وكان كابوش وميزار قد خفا لنجدة هنرى دوفرن الحارس ، الذى استطاع ايضا ان يقفز فى اللحظة الاخيرة ·· لقد اصيب بكسر فى قدمه ، واجلسوه على الارض مسندا الى السور النباتى ، وجعل يراقب عمليات الانقاذ وهو صامت صمت المذهول ، ولكن دون أن يبدو أنه يشعر بألم شديد ..

وصاحت فلور مرة أخرى :

ــ كابوش .. تعال ساعدنى ·· ان جاك تحت المقطورة هناك ! .

ولكن كابوش لم يسمعها لفرط انهماكه فى انقاذ امراة شابة حملها وهى مكسورة الساقين ليجد لها مكانا مأمونا ·

وكانت سيفرين هى التى اندفعت تلبية لاستغاثة فلور اذ قالت :

ــ جاك جاك ! أين هو ؟ سأساعدك أنا ..

فقالت فلور :

ـ نعم ـ ساعدينى .

وتلامست أصابعهما وهمـا تحاولان رفـع عجلة محطمة .. ولكن يدى سيفرين الدقيقتين لم تكن لهما فائدة فى حين استطاعت فلور بقبضتها القوية أن ترفع أجزاء ضخمة من الحطام قطعة بعد اخرى .

كانت عملية انقاذ الجرحى وانتشال القتلى مريعـة وخطرة .. ان النيران المنبعثة من القاطـرة سرت فى أخشاب العربات المحطمة ، واضطروا أن يهيلوا عليها التراب اكواما لاخمادها وكل من كان قادرا على عمل شىء خف لاداء واجبه ، وشيئا فشيئا امكن تنظيم عملية الانقاذ .. وقد أرسلت بتلغراف السكة الحديدية برقية الى روان ، كما أوفد رسول الى بارنتان لطلب النجدة .. وكثيرون من أولئك الذين فروا يلتمسون النجاة بأنفسهم مالبثوا ان عادوا وقد تولاهم الخجل مما انتابهم من فزع ... وقد صافحت اعينهم مشاهد مروعـة للجرحى والمبتورين وجثث القتلى ممدة صفوفا .

وفى خلال ذلك لم تكف فلور عن ترديد كلماتهـا اليائسة :

ـ أؤكد لكم ان جاك تحت المقطورة . اسمعوا بوسعى أن اسمع استغاثتـه . كانت المقطـورة مدفونة تحت المركبات . وعلى رأس جماعة الانقاذ تقدمت فـلور وأخذت ترفع بذراعيها المفتولتين الالواح المعدنية وتحطم الابواب .. ومن خلفهـا كان كابوش وميزار وبيكيه يساعدون فى رفع الجثث التى يعثر عليها ، بينما عجزت سيفرين عن المشاركة فجلست فوق مقعد محطم .. وقد اسفرت هذه العملية عن اخراج اثنتى عشرة جثة واكثر من ثلاثين جريحا .. وفى النهاية تمكنوا من الوصول الى

مكان بين الحطام بحثا عن جاك .. وفجأة نادت باعلى صوتها :

ـ يمكننى أن أراه .. هو هناك ! .. هذه ذراعه ذات الجرس الصوفى الازرق لكنه لا يتحرك انه لا يتنفس

واستعانت بيديها القويتين فى انتزاع ألواح أرضية احدى المركبات ، ولما استعصت عليها لتشابكها مع بقية الحطام غابت برهة ثم عادت ومعها بلطة اخذت تشق بها الاخشاب فى غير كلال حتى تمكنت بمساعدة الاخـرين من سحب العجلات التى انقذت جاك من موت محقق وقد خفت الى مكانه قبلهم ورفعته بين ذراعيها .

عندئذ اسرعت اليها سيفرين وهى ذاهلة، وحملتاه معا فى مكان السياج النباتى حيث مددتاه الى جانب هنرى دوفرن .. ووقف بيكيه قرب جاك يغالبه الاسى لرؤيته على هذه الصورة المؤثرة .. ومالبثت المرأتان أن ركعتا على جانبيه ورفعتا رأسه وجعلتا تدققان النظر فى وجهه بجزع لتوسم بادرة تنم عن وجود رمق من الحياة به .

واخيرا فتح عينيه .. اخذت نظرته المضطربة تتحرك بين الوجوه القليلة المحيطة به وكأنهم أغراب عنه لا يمتون له بصلة .. ثم وقع نظره على القاطرة ليزون التى لفظت أنفاسها .. حدق فيها برهة وفزع شديدين وعندما سرى الادراك الى عقله فاضت نفسه حزنا وأسى .. وبعودة الوعى اليـه تذكر كل شىء .. تذكر كتلتى الاحجـار الضخمتين عبر الشريط ، والاصطدام المخيف الذى زلزل كيانه وكيان ليزون معا .. وعندما تحقق الان أن ليزون انتهت أغمض عينيه وتمنى لو ينتهى هو الآخر .. وجرت الدموع بطيئة فوق خديه حتى لم يتمـالك بيكيه وهو يشهد على هذه الصورة من الحزن المؤثر لصرع ليزون أن فاضت دموعه هو الاخر وجعل ينتحب محزونا .

وانزعجت سيفرين وفلور لسوء حالة جاك .. فهرعت فلور الى المنزل وعادت بشىء من البراندى وجعلت تدلكه به لانعدام شىء تسعفه به غير هذا .. لكن الذى ضاعف من كربهما هو أصوات الحشرجة الاليمة التى كانت تنبعث من الجواد الخامس الذى ظل على قيد الحياة بعد أن تقطعت قوائمه. فتوسلت المرأتان الى الموجودين لكى يضعوا حدا لعذاب الحيوان المنكود .. وهكذا تقدم منه بيكيه وقضى عليه بضربة من البلطة .. فخيم سكون الموت فوق الدمار والاشلاء .

وبعد ساعتين جاءت النجدة .. كانت المركبات فى اصطدامها قد اندفعت جميعا الى اليمين ، وبدا انه يمكن فى خلال ساعات قليلة اخلاء الطريق امام القطارات القادمة من الناحية القابلة .. وجاء من روان قطار يضم ثلاث مركبات اقلت المهندسين والاطباء وفريقا من كبار الموظفين .. وجاء أيضا ناظر محطة بارنتان على رأس مجموعة من العمال . . وبينما أخذ كبار الموظفين فى اجراء تحرياتهم خف الاطباء لاسعاف الجرحى الذين كان عددهم يتزايد باطراد .

وكان جاك الان فاقد الوعى .. وقد أفلحت سيفرين فى الاستنجاد بطبيب مر بها لفحصه ، فلم يجد به اصابات ضارة . ولكن الدم كان ينزف من فمه مما جعله يظن بوجود نزيف داخلى وان كان لم يجزم بهذا .. وعلى اى حال فقد اوصى بنقله الى الفراش فى مكان قريب باسرع وقت اجتنابا لحدوث مضاعفات تتسبب عن الحركة .

وعند لمس الطبيب له فتح جاك عينيه وتأوه .. وفى هذه المرة عرف سيفرين ورجاها ان تنقله من هنا ..

ثم انحنت فلور فوقه . فاتسعت عيناه كطفل مفزوع ، وادار رأسه مرة أخرى الى ناحية سيفرين قائلا :

— خذينى بعيدا عن هنا ابعدينى بسرعة !

— هل نذهب الى منزل (كروادى موفرا) هو قريب من هنا فى مواجهتنا وفيه سنكون فى بيتنا .

فنظر مرة اخرى الى فلور وارتعد قائلا :

— اى مكان تحبين لكن اسرعى اسرعى .

واما فلور فقد امتقع وجهها امتقاع الموت عندما التقت عيناها بنظرة جاك التى تجلت فيها الكراهية والخوف . . واذن فبعد هذه المذبحة الرهيبة التى حلت بأناس أبرياء لم يمسوها من قبل بأذى لم تفلح فى قتل الاثنين ان سيفرين لم تصب حتى بأقل خدش وجاك سوف يشفى على الارجح ان ما فعلته فى الواقع هو انها التقت بهما معا وحدهما فى ذلك المنزل ... لقد راحت تتصورهما هناك جاك فى دور النقاهة وسيفرين تشرف عليه وترعاه وتتناول مكافأتها قبلات سيكون شهر عسل متصلا بالنسبة اليهما فى عالم لهما وحدهما ثم نظرت الى جثث القتلى وادركت انها قتلت اصحابها بغير جدوى ودون ثمرة .. وعندئذ اطبقت عليها قشعريرة باردة كبرودة الموت .

وعندما رفعت رأسها رأت ميزار وكابوش يجرى استجوابهما ان البوليس كان يحاول ولاشك اكتشاف سبب وقوف العربة على الشريط فى نفس تلك اللحظة المعينة .. اقسم ميزار انه لم يبرح مكان عمله وقال انه لا يستطيع أن يذكر تفصيلات دقيقة لانه كان منهمكا فى ادارة التحويلات فى تلك اللحظات وكان موليا ظهره الى ناحية الشريط .. ودخل كابوش فى قصة طويلة مرتبكة عن غلطته فى ترك الخيل والذهاب لرؤية المرأة المتوفاة وكيف ان الخيل بدأت تتحرك من تلقاء نفسها ولم تستطع فلور وقفها .. ان قصته كانت مشوشة مرتبكة حتى راح يعيدها من البداية دون ان يستطيع ايضاح موقفه .

ان فلور شعرت بحنينها القديم لحرية الحركة والجرى الى احضان التلال لماذا تنتظر حتى يأتى البـوليس لاستجوابها وربما يعتقلها ! ؟ .. وبصرف النظـر عن الحادث فانهاقصرت فى واجبها وستعتبر مسئولة عن ذلك .. لكنها وجدت أنه طالما بقى جاك على كثب منها فانها لا تستطيع ان تبتعد ..

وفى هذه الاثناء كانت سيفرين تلح على بيكيه للبحث عن نقالة ولما جاءت حملوا جاك الى منزل (كروادى موفرا) وقد اقنع الطبيب سيفرين بنقل هنرى ايضا الذى بدأ أنه لم يصب بأضرار أكثر من قدمه الملتوية وهكذا نقل هو ايضا الى المنزل .

وعندما انحنتسيفرين فوقجاكلفك ازرار ياقته حتى لا تضايق انفاسه فانها قبلته علانية .. وقالت له :

— لا تنزعج .. اننا سنكونسعداء رغم كل شىء ..

فرد قبلتها بابتسامة وكان هذا بالنسبة الى فلور هو نهاية الكون كله .. ان جاك قد انتزع منها الى الابد لقد بدأ لها وكان دمها هى أيضا ينزف متدفقا من جرح بها جرح لن يجد الشفاء أبدا وعندما حملوا جاك بعيـدا استدارت فى مكانها بعنف وأخذت تجرى .. أنها تعرف كل ركن وجحر فى الاقليم على مدى اميال .. اذا اراد البوليس ان يتعقبها ففى وسعها ان تتحداه . وبعد فترة توقفت عن الجرى واتجهت الىمخبأ طالما لجأتاليه كلما كانت فى ضيق ، وهو شبه خندق منحوت فى التل الصخرى اعلى النفق .. رأت الشمس تتوسط السماء مؤذنة بانتصاف النهار .. ولما وصلت الى الخندق تمددت فوق أرضه الصخرية وشبكت يديها خلف عنقها وراحت تفكر .. كان فى جوفها خـواء رهيـب وكأنما اصبحت فى عداد الاموات .. لابد ان جـاك

رآهاوهى تصد الخيل الى الخلف .. لقد عرفت هذا عندما رأته ينكمش امامها فى خوف وكراهية .. انه لن ينسى الى الابد .. لقد عرفت ماذا يجب ان تفعل .. لم يبق الان امل يرجى .. لابد ان تقتل نفسها ولولا تعبها الشديد لقامت من فورها وبحثت عن أى سلاح لانفاذ عزمها .. وبتأثير الواقع فانها استغرقت فى نوم عميق لا احلام فيه .

وعندمااستيقظت كان الظلام سائدا .. ولاول وهلة لم تعرف اين هى .. ولكن يدهالامست الصخر فتذكرت كل شىء .. لابد لها ان تموت .. ان الموت هو خلاصها الوحيد .. كيف يمكنها ان تبقى على قيد الحياة بين هذه الذكريات الدامية ، مكروهة ومرهوبة من الرجل الوحيد الذى ارادته ، وهو غارق فى حب امرأة غيرها !؟ لقد ادركت الان ان لديها من القوة مايمكنها من تنفيذ ماعقدت العزم عليه .

وخرجت من مخبئها بين الصخور .. قدرت من نظراتها الى النجوم ان الوقتيناهز التاسعة .. وعندما وصلت الى شريط السكة الحديدية مرق بجانبها قطار كالسهم .. ان هذا قد سرها .. كان معناه ان الخط المقابل على الاقل قد تم اصلاحه .. وراحت تسير الهوينا وكأنها فى نزهة .. لا ضرورة للمجلة .. لن يمر قطار آخر حتى موعد قطار باريس السريع الذى يصل فى التاسعة وخمس وعشرين دقيقة .. وهكذا اجتازت السياج النباتى وتقدمت الى الشريط ومنه الى النفق .. لم تكن لديها الان افكار سوىان تمشى قدما ، حتىتلتقى بالقطار .. لكن لم تبد حتى الان دلالة على قطار ..

خيل اليهاانها لبثت فى النفق ساعات .... هل يستغرق الموت كل هذا الوقت حتى يأتى ؟ .. ان فكرة

عدم مجيء الموت بتاتا ، وانها قد تمشى ساعات طويلةثم ترقد بعرض الشريط وتنتظره حتى يجيء ؟ كلا . ان هذا لا يليق بها .. لابد لها ان تواصل السير الى النهاية .. وبعزم مجدد مضت فى سيرهاوفى هذه اللحظة فقط لمحت من بعيد جدا المصباح الكشاف للقاطرة .. لمحته نجما ضئيلا يلمع فى سماء حالكة السواد .. ان القطار لم يدخل النفق بعد .. لم تنبعث ضجة تعلن اقترابه .. ولم يكن ثمة سوى ذلك النجم البراق الطروب الذى كان يكبر شيئا فشيئا كل لحظة .. عندئذ استحثت خطاها دون ان تجرى ، كانسان يسير فى سعادة للقاء حبيب.

الان حل القطار فى النفق ... ان دويه العاصف زاد تعاليا وهز الارض هزا .. وبرز ضوء الكشاف فى الظلام كعين هائلة متوهجة .. واستجابة لغزيرة غامضة : وربما كانت رغبة فىطمس شخصيتها اخذت فلور تخلى جيوبها نثرت حول الشريط مناديل ومطواة ومفـــاتيح وخيوطا كلها أشياء صغيرة معهودة فى الحياة اليومية .. وما لبثت العين المتوهجة ان استحالت الى مجمرة الى فم اتون يصب اللهب .. وقصف الرعد مدويا يصم اذنيها .. وبلا تردد ما برحت تتقدم .. وحين احتواها الموت فى عناقته بدت وكأنها زادت طولا ، وكأنها فى المرحلة الاخيرة من الصراع تريد ان تمسك بالوحش وتصرعه ارضا .. ان رأسها لطم المصـــباح الكشاف بضربة مباشرة واطفأه .. عثروا عليها بعد اكثر من ساعة .. لقد رأى سائق القطار الجسم الطويل وهو يتقدم فى مواجهة قاطرته ، وعندما انغمر النفق فىظلام مطبق سرت فى جسده رعدة لاحساسه بأن الموت قدم بجناحه منذ برهة .. وقد بلغ ما حدث فى محطة بارنتان وحينما عثر الرجال الذين ارسلوا الى النفق على الجثة،

روعهم بياضها المرمرى .. كانت ملقاة على الشريط المقابل بعد ان طوح بها عنف الصدمة .. كان الرأس مهشما تماما ، اما الاطراف فكانت فى نصف عريها فريدة فى جمالها وقوتها وفى صمت غطوها بكفن .

وعندما انتصف الليل كانت جثة فلور مسجات الى جانب جثة أمها فى الكوخ ..وضعوا لها مرتبة على الارض.. واوقدوا شمعة بينهما .. ان فازى التى كان فمها مازال ملتويا بتلك الابتسامة الرهيبة بدا وكأنها تنظر الى فتاتها .. ذلك وقد تم اصلاح الخطوط ومضت القطارات فى سيرها الهادر كما كان شأنها دائما : غلابة فى قوتها لا تبالى بمأساة أو جريمة على السواء ، مندفعة قدما فى غمار المستقبل ..

• • •

الفصل الحادى عشر

لم يتغير شىء منذ سنوات فى غرفة النوم الكبيرة فى منزل (كروادى موفرا) ذات الستائر الحريرية الحمراء والواجهة المطلة على شريط السكة الحديدية ..

لقد دبرت سيفرين احضار جاك الى المنزل ، ورقد فى السرير العتيق ذى الاعمدة الاربعة المواجه للنافذتين الكبيرتين .. ونقل هنرى دوفرن الى غرفة نوم صغيرة فى الطابق الارضى .. وشغلت سيفرين غرفة فى الردهة المقابلة لجاك .. وقد بعثت ببرقية الى روبو تخبره فيها الا ينتظر عودتها قبل بضعة أيام ، ثم وضعت المريلة فوق ثوبها وتحولت الى ممرضة .

وفى نفس يوم الحادث استطاع الطبيب ان يقرر ان جاك بخير ، وانه ما لم تحدث مضاعفات فسوف يقف على قدميه فى فترة اسبوع .. لقد اصيب ببعض كدمات داخلية يسيرة ، وفيما عدا هذا فقد نجا بمعجزة ، ولكنه يحتاج الى عناية كبيرة وراحة تامة .. وهكذا فانه عندما فتح عينيه وكانت سيفرين تسهر عليه كطفل ، رجته ان يمتثل لكل ما تطلبه ، فوعدها بايماءة من رأسه ومازال فى حال من الضعف ظاهرة .. كان عقله صافيا وقد عرف الغرفة .. انها الغرفة التى وصفتها له تلك الليلة عندما اعترفت له بكل شىء .. الغرفة الحمراء ، التى امتثلت فيها وهى بعد فى السادسة عشرة لرغائب القاضى جرانموران .. انه الان فى المنزل الذى طالما شاهده من

قاطرته .. لقد تذكر القلق الغريب المهدد الذى كان يستشعره دائما ، وكأن هذا المكان قدر له أن يلعب دورا مشئوما فى حياته ..

ولما وجدته سيفرين ذات يوم فى حال تسمح له بأن يعى ما يقال ، همست فى اذنه وهى ترتب الفراش :

ـ لا تقلق .. انى اخليت جيوبك .. انى اخذت الساعة ..

فحدق فيها محاولا ان يتذكر ، وقال :

ـ الساعة .. آه ، نعم .. الساعة !

ـ ربما كانوا يفتشونك .. انى اخفيتها مع اشيائى ، حيث تكون بمأمن فشد على يدها شكرا .. وقبل ذلك بفترة لاحظ المطواة الكبيرة موضوعة فوق المائدة .. انها كانت ايضا فى جيبه .. لكن هذه لا ضرورة لاخفائها فهى مجرد مطواة كغيرها ..

وفى اليوم التالى شعر بتحسن ، وقدر انه ربما لا يموت هنا كما خطر له من قبل .. وكان كابوش يتردد عليه بين وقت وآخر ، وكان جاك يسر دائما برؤية الرجل الضخم المضحك وهو يسير على أطراف اصابعه رغم هيكله الكبير محاولا الا يحدث اقل ضجة .. ان كابوش منذ كارثة القطار لم يكد يفارق سيفرين ، وكأنما شعر هو ايضا بالحاجة الى ان يكرس نفسه لشخص ما .. انه أهمل عمله وجعل يأتى كل يوم لمساعدتها فى العمل .. والواقع انهما اعتادا وجوده الى حد انهما لم يباليا باخفاء حقيقة علاقتهما ، بل كانا يتكلمان فى خصوصياتهما ويتبادلان القبلات وهو موجود عن كثب .. ولم يلبث جاك ان عجب من تكرار غياب سيفرين من غرفته .. وفى اول الامر لم تذكر له شيئا عن وجود هنرى دوفرن فى الغرفة الارضية امتثالا لارشادات

الطبيب وحتى يشعر براحة اتم اذا علم انهما وحدهما معا ..

ولكن عندما سمع فى اليوم التالى اصوات همس وضحك بادرها قائلا :

ـ ماذا يجرى تحت ؟ السنا وحدنا اذن ؟

ـ الحقيقة ، يا حبيبى ان هنرى دوفرن مصاب وموجود فى الدور الارضى .. وقد اضطرينا الى استبقائه عندنا .

ـ آه .. هنرى !

ـ ان شقيقتيه جاءتا لزيارته صباح اليوم .. وما سمعته كان اصوات كلامهما وضحكهما .. لكنه تحسن وستعودان مساء اليوم .. اما هنرى فسيبقى يومين او ثلاثة .. وثب من القطار لكن من حسن حظه انه لم يصب بكسور .. تصور حسن الحظ » .

فتطلع اليها جاك بنظرة معنوية حتى لم تجد بدا من ان تقول له :

ـ الحقيقة انه لو لم يكن معنا لبدأ الناس يتقولون علينا .. ان وجوده هنا يهىء لى مبررا للبقاء .. الا ترى ذلك يا حبيبى ؟

ـ نعم .. نعم .. لا بأس

وفى اليوم الرابع استطاع جاك ان ينهض من فراشه ويجلس فى مقعد قرب النافذة .. كان يستطيع ان يرى الحديقة الصغيرة ذات السور المبنى الواطىء تعلوه الازهار البرية .. ولم يلبث ان تذكر تلك الليلة التى وقف فيها على اطراف اصابعه يطل عبر السور ، وتذكر السور النباتى خلف المنزل حيث فاجأ فلور وهى جالسة على الارض تفك عقد الحبل المسروق .. يالها من ليلة مخيفة تلك الليلة ! .. والواقع انه منذ ان عادت اليه ذاكرته كانت صورة فلور تطوف بخياله ، بقامتها المديدة القوية

كقامة المحارب ، وشعرها الاشقر ، وعينيها المتقدمتين اللتين كانت تسلطهما على عينيه .. انه حتى الان لم يتحدث عن كارثة القطار وقد امسك الجميع عن الاشارة اليها تقديرا لحالته .. لكن كل جزئية من جـزئياتها مازالت محفورة فى ذهنه ، وقد جلس الان قرب النافذة وهو يستعيد كل وقائعها وينتظر كل من ساهم فيها .. ان الذى استرعى انتباهه هو انه لم يبصر فلور واقفة لدى المزلقان والراية فى يدها .. انه اشفق ان يسأل اى انسان .. ولكنه كان اكثر اشفاقا لوجوده حبيسا هنا بعيدا عن معرفة اى شىء ..

واخيرا ، عندما كان كابوش ذات صباح فى الغرفة يساعد سيفرين ، اندفع جاك قائلا :

ـ ماذا جرى لفلور ؟ اهى مريضة ؟

اما كابوش قد اخطأ فهم اشارة سيفرين وحسب انها تريد ان يتكلم ، فقال :

ـ ماتت فلور المسكينة ..

فحدق فيهما جاك وهو يرتعد خوفا ، ولم يجدا بدا من ابلاغه بانتحار فلور .. ان جنازة امها اجلت الى المساء ، لكى تدفن فلور معها .. وهما الان راقدتان جنبا الى جنب فى المقبرة الصغيرة فى دوانفيل ، مع لويزيت التعسة ..

قال جاك لاهثا :

ـ اموات ! .. الثلاثة أموات ! .. يا الهى !

وبعد برهة قال : ـ هل اتهموا فلور بالتسبب فى الحادث ؟

فاجاب كابوش : ـ آه .. لا .. انما الحقيقة انها كانت غلطتها بالطبع

وبعبارات قصيرة مهتزة راح كابوش يسرد كل ما عرفه .. هو نفسه لم ير شيئا .. كان فى داخل الكوخ

عندما اخذت الخيول تجر العربة بعرض الشريط ·· وهو آسف لهذا اكثر من اىشىء آخر .. وقد عنفه الموظفون القائمون بالتحقيق تعنيفا شديدا لهذا السبب ·· قالوا انه ما كان يجب ان يترك الخيل بأى حال، ولو بقى ملازما لها لما وقع هذا الحادث المروع .. وكل ما امكن أن يصل اليه التحقيق هو اثبات الاهمال عليه وعلى فلور ، ونظرا لانها عاقبت نفسها بهذه الكيفية الرهيبة فلم يكن فى نيتهم أن يواصلوا البحث فى الامر أكثر من ذلك .. كما أنهم سمحوا لميزار ان يستمر فى عمله ··

وعندما خرج كابوش من الغرفة اشار جاك الى سيفرين بالبقاء ، وقال لها وهو فى اشد شحوب :

ــ هل تعرفين ان فلور وضعت الخيل والعربة بعرض الشريط عمدا ؟

ــ ماذا تقول يا حبيبى ؟ الا تظن انك محموم ؟ لماذا لا تعود الى الفراش ؟

ــ لا ·· انا جاد ·· انا اعنى ما اقول ·· انى رأيتها ·· رأيتها وهى تشد اللجام لكى تصد الخيل

شعرت سيفرين بتخاذل فى ساقيها ، وغاصت فى المقعد قائلة :

ــ رباه ! يا للفظاعة !

فاستطرد يقول : ــ هذا كله واضح جدا .. انها حاولت قتلنا معا ·· انها كانت تطاردنى منذ زمن طويل ، وكانت غيورة بشكل جنونى .. انها لم تكن سليمة العقل فى الاوقات العادية .. لكن ان تعمل على قتل كل اولئك الناس ·· يا لها من مخلوقة جهنمية !

واتسعت عيناه وارتعشت شفتاه .. وظلا برهة يتبادلان النظر صامتين .. وما لبث ان انتزع نفسه من

هذه الرؤى المروعة التى قامت بينهما ، واستطرد يقول برقة :

ــ هذا اذن سبب ظهورها لى ·· منذ ان عدت الى وعيى وانا افكر فيها ·· هذا الصباح كنت واثقا انها واقفة بجانب فراشى الى حد انى أدرت رأسى للنظر .. لكنها ماتت ونحن احياء ·· لندع الله ان لا تفلح فى نيل انتقامها رغم كل شىء !

ــ اهدأ يا حبيبى ·· ارجوك ان تهدأ ·· لو مضيت هكذا لاصبتنى بالجنون !

وخرجت وسمعها جاك تهبط الى هنرى ··

وذات ليلة دهش جاك اذ رأى كابوش واقفا فى الخارج ذلك الوحش الضخم الواقف هناك كالكلب الوفى ·· لقد تذكر اشياء اخرى عن كابوش ·· تذكر لهفته لمساعدة سيفرين ، وعلائم التفانى الذليل التى تبدو على وجهه عندما ينظر اليها ·· من الجلى انه يحبها ·· فى اليوم التالى رآه يلتقط دبوس شعر سقط منها وهى تسوى الفراش ويخفيه فى قبضة يده !

وفى نهاية الاسبوع تم شفاء الرجلين المصابين كما تنبأ الطبيب واصبحا فى حالة صالحة لاستئناف العمل ··

وذات صباح لمح جاك مساعده بيكيه وهو يمر امام المنزل فى قاطرة جديدة ، ورأى اشارته اليه وكأنه يدعوه للانضمام اليه ·· لكن جاك لم يكن متعجلا ·· كان لديه شعور مسبق بأن شيئا سوف يحدث فى هذا المنزل ، وقد اراد ان يعرف ما هو .. وبعد ساعات سمع الهمس والضحكات صادرة من الدور الارضى فلم يقل شيئا لسيفرين التى ظلت تكثر من مغادرة الغرفة ولا تبقى بها معه اكثر من خمس دقائق ·· وفى المساء خيم على المنزل

صمت القبور المألوف عنه ، وتلكأت سيفرين فى الغرفة وهى شاحبة مشغولة البال ، فقال لها جاك :

ـ هل ذهب هنرى اذن ؟ ٠٠ هل اخذته شقيقتاه ؟

فاجابت بايجاز : ـ نعم ٠ ذهب ٠

ـ اذن فنحن وحدنا اخيرا ؟

ـ نعم ٠ وحدناتماما ٠ لكن لابد ان نفترق غدا ٠٠ لابد ان اعود الى الهافر ٠٠ان شهر عسلنا فى جنة الاحلام قد انتهى ٠٠

استمر جاك ينظر اليها فاحصا مستخبرا ، لكنه كان يبتسم ، وقد قال :

ـ انت حزينة لذهابه ٠٠ اليس كذلك ؟

فانتفضت وهمت ان تحتج ، بيد انه اسكتها قائلا :

ـ ليس فى نيتى ان اخلق شجارا بيننا ٠٠ يمكنك ان ترى اننى غير غيور ٠٠ قلت لى مرة انه يحق لى ان اقتلك اذا لم تكونى مخلصة لى . .فهل ترين فى عاشقا يوشك ان يقتل عشيقته ؟ ومع ذلك فانك امضيت طول الوقت تحت فى الدور الارضى . . اننى لم اكن معك وحدى دقيقة واحدة . .

وهنا لم تتمالك ان انفجرت قائلة :

ـ لا بأس ٠٠ اصغ الى اذن ٠٠ بعد كل ما حدث بيننا لا يمكن ان تكون بيننا اسرار ٠٠ ان هذا الرجل ظل يطاردنى منذ شهور ٠٠ انه كان يعرف انى لك ، وقد خطر له ان من السهل ان اكون له ايضا ٠٠ وكان كلما نزلت عنده للاشراف على حالته يستعطفنى ويكاشفنى بحبه . . لكنه لم ينل منى اكثر من تقبيل يدى . . اقسم لك ان هذا كل ما حدث ٠٠ وكان فى أشد حال من التعاسة الى درجة

انى تظاهرت بأنى قد أقابله يوما فى باريس . .

رأى جاك انها لم تكن كاذبة ٠٠ وقد فكر فيما يكابده هو نفسه من عذاب الحب . . انحبه لها قد استيقظ كما كان وملأ نفسه جزعا لدى التفكير فيما قديفعله بهاوهما الآن وحدهما فى هذا المنزل . . ولكى يفلت من أفكاره قال لها :

ـ لكن هناك رجلا آخر . . ما قولك فى كابوش ؟

ـ انت تعرف هذا ايضا اذن ! ٠٠ نعم ٠٠ هناك كابوش ٠٠ انى لاعجب ماذا دهاكم جميعا ! ٠٠ انه لم يفاتحنى بكلمة واحدة ، ولكنى رأيته يطبق قبضتى يديه كلما رآنا نتبادل القبلات ٠٠ ثم انه يوالى سرقة اشيائى ٠٠ ان قفازى ومناديلى تختفى باستمرار ٠٠ انا متأكدة انه يأخذها معه الى كوخه ويحفظها عنده مثل كنز . . لكن من المؤكد انك لا تقصد انى استسلم لمتوحش كهذا ؟ . . وفضلا عن ذلك فانه لم يطلب منى شيئا قط . . ان اولئك الوحوش الضخام هم دائما خجولون ٠٠ انهم يفضلون ان يموتوا بالحب على أن يكاشفوا احدا ٠٠ من الممكن ان تتركنى معه شهرا دون ان يلمسنى ٠٠ وانا مقتنعة الان انه لم يلمس لويزيت بتاتا ٠٠

وكانت قريبة منه حتى شعر بحرارة انفاسها . . واستطردت تقول :

ـ لا . . انى لم أخنك مع أحد . . وهل أقول لك السبب؟ لانك ملكتنى جسدا وروحا ٠٠ اننى الان ملكك وحدك ، وسوف اظل ملكك وحدك ، حتى ولو لم ترد انت هذا ، حتى ولو لم ارده انا ايضا ٠٠ كلا يا حبيبى ٠٠ لا يمكننى ان احب احدا سواك !

وبسطت ذراعيها لمعانقته . . لكنه أمسك بمعصميها ومنعها ، فقد روعه ان يعاوده الشعور القديم . أحس

نفس الطنين فى أذنيه ، ونفس الضربات فى رأسه ... لقد ظل طويلا وهو لا يستطيع أن يضمها اليه فى ضوء النهار أو فى ضو مصباح ، خوفا من أن يدفعه فشهد جسدها المتجرد الى الجنون ... وكان المصباح مضاء الآن يكشف له عن مفاتنها ... استرسلت فى ابداء مشاعرها قائلة :

ـ لا يهمك ما يأتى به الغد .. فاننى قانعة بساعاتى القليلة معك .. سنعود الى الهافر وندبر أمرنا بقدر ما نستطيع .. هذه ليلتنا الاخيرة هنا .. ونحن بعيدون عن العالم فى هذا المنزل .. لو متنا من الحب ونحن هنا وحدنا فلن يشعر بنا أحد .

ان كلماتها أثارت مشاعره الى درجة الحمى ٠٠ وقد بسط يديه نحوها . وكان يمكن أن يخنقها لو لم تستدر فى تلك اللحظة وتطفىء المصباح ٠٠

وكما فعلت من قبل فى الفراش تلك الليلة فى غرفة العجوز فكتوار ، فانها راحت تهمس فى سمعه قائلة :

ـ أواه يا حبيبى .. لو أمكنك أن تتم ذلك العمل ،لكنا الان أسعد السعداء ٠٠ لا ٠٠ لا ٠٠ أنا لا أطلب منك أن تفعل ما لا يمكنك أن تفعله .. ولكنى آسفة لان حلمنا لم يتحقق .. أصارحك أنى شعرت بالخوف منذ لحظة وكأن شيئا يتهددنى .. أنا أعرف انه خوف صبيانى ، لكنى شعرت كأن شخصا موجود هنا وأنه سيؤذينى .. ليس لى من يحمينى سواك ياحبيبى ٠٠ أنت حبى ، وحياتى !

لم يتكلم ، وانما ضمها اليه بقوة ، وكأنما يشعرها بشدة حبه .. ومع ذلك ، فانه أراد هذه الليلة مرة أخرى أن يقتلها ٠٠ كلا ٠٠ انه لن يشفى قط ٠٠ ان التعطش الى الدم الذى استحوذ عليه هو أقوى مما يستطيع فهمه أو السيطرة عليه ٠٠ ترى لماذا يراوده التعطش هذه الليلة ،

وهى بين ذراعيه ، متفانية فى حبه ؟ ٠٠ أكان ذلك لانه كلما زادته حبا ، كلما زاد هو رغبة فى امتلاكها ، الى حد اهلاكها ؟ ٠٠ أهو تسلط الرجل يمعن فيه الى الغاية القصوى ؟

واستطردت تقول بنفس أسلوبها الهامس المتحبب:

ـ أواه يا حبيبى ٠٠ بالامكان أن تكون كل ليالينا مثل هذه الليلة ٠٠ بامكاننا أن نبيع هذا المنزل وننضم الى صديقك الذى ينتظرك فى أمريكا ، كما اخبرتنى .. سأكون لك وحدك ، وطوع أمرك ! .. لكنى اعرف انك لا تقوى على هذا العمل ٠٠ اذا كنت أقول هذا فان ذلك برغمى ، لان الكلمات تصدر بغير ارادتى !

لم يلبث جاك أن استقر عزمه ، كما استقر من قبل ٠٠ لابد له أن يقتل روبو ٠٠ لانه اذا لم يقتله ، فسوف يقتلها ٠٠ ماكان لشىء أن يثنيه الان عن هذا العزم ٠٠ قال لها :

ـ لم يمكنى أن أفعلها فى المرة السابقة ، ولكن ليس معنى هذا أنى لن افعلها هذه المرة .. سأفعلها .. وهذا وعد منى ٠

ولما آنست منه العزم زادت به التصاقا وهمست تقول له :

ـ لابد أن نستدعيه الى هنا ٠٠ بامكانى أن أفكر فى سبب يدعوه الى المجىء .. وعندئذ يمكنك أن تختبىء فى مكان ما وتنتظره ، والباقى مسألة سهلة ٠٠ لا خطر هنا من أن يزعجنا أحد ٠٠ أليس هذا هو ما يجب أن نفعله ؟

فأجاب وهو يقبلها : ـ نعم ..

ومضت سيفرين تشرح خطتها ، قائلة :

ـ ان أفضل شىء هو أن يبدو الحادث وكأنه انتحار ٠٠ ان أطواره أصبحت غريبة هذه الايام ، ولن يدهش أحد

اذا سمع أنه جاء الى هنا لقتل نفسه ٠٠ فى تصورى أننا اذا ذبحناه وحملنا جثته الى الشريط ، فان أول قطار يمر سوف يفصل رأسه ، ولن يبقى بعد ذلك اى أثر .. ما رأيك فى هذه الخطة ؟

ـ هى خطة محكمة ٠٠

وأعجبتها مقدرتها فى التفكير والتخطيط ، حتى تملكها الابتهاج ، واستمهلت قبلاته قائلة :

ـ صبرا ٠٠ انى فكرت فى شىء آخر ٠٠ انهم اذا وجدوك هنا معى لاخذوا يتساءلون ، ولن يصدقوا ان الحادث انتحار ٠ لا ٠٠ يجب أن تذهب غدا ، على أن يراك ميزار وكابوش وأنت تذهب ٠٠ لابد أن تركب القطار فى محطة بارنتان وتنزل فى روان ٠٠ وبعد حلول الظلام تعود الى هنا ، وسأدخلك أنا من الباب الخلفى ٠٠ يمكنك اتمام هذا كله فى مدى ثلاث ساعات ٠٠ نعم ٠٠ هذه هى الخطة ٠٠ اذا كنت راغبا ، فانها خطة محكمة ٠

ـ نعم ٠٠ أنا راغب ، وسأفعل هذه المرة ٠

وتحركت مشاعرهما ..وغابا عن الوجود فى متاهات الحب ٠٠ حتى اذا عادا الى عالم الواقع قالت له :

ـ لكن ما هى افضل طريقة لاستقدامه الى هنا .. ان أول قطار يمكن أن يستقله هو قطار الثامنة مساء ، بعد أن ينتهى من عمله ، فيصل الى هنا فى العاشرة ٠٠ وما رأيك فى الرجل الذى قال ميزار أنه يريد شراء المنزل ؟ ٠٠ يمكننا أن نقول أنه سيصل بعد غد فى الصباح المبكر ٠٠ سوف أرسل برقية الى روبو حالما أستيقظ وأبلغه أن حضوره أمر ضرورى للغاية ٠٠ وستذهب أنت بعد الظهر ثم تعود قبل ان يصل .. سيكون الوقت ليلا ، والقمر غائب الان ٠٠ ان كل شىء سيتم على أحسن ما يرام !

واستولى عليهما النوم والفجر يرسل خيوطه .. ونام

جاك حتى العاشرة نوما ثقيلا بلا أحلام ٠٠ وعندما فتح عينيه كان وحده .. كانت سيفرين ترتدى ملابسها فى غرفتها فى الطرف الاخر من الممشى ٠٠ وظل برهة منبهرا بضوء الشمس والستائر القرمزية التى بدت فى وهج النار ٠٠ وما لبث أن تذكر ٠٠ لقد استقر الرأى ٠٠ هذه الليلة سوف يقتل روبو ٠

وفى فترة الصباح وبعد الظهر سار كل شىء طبقا لما خططا له ٠٠ ذهبت سيفرين قبل الغداء الى ميزار وطلبت منه أن يبعث بالبرقية الى زوجها من دوانفيل .. وحوالى الساعة الثالثة ، بينما كان كابوش فى المنزل ، أخذ جاك يعد العدة للرحيل ٠٠ والواقع أن كابوش رافقه الى بارنتان لركوب القطار من محطتها ، رافقه لكى يجد عملا يقوم به ، ولكى يكون فى صحبته وكأنما يجد فى العاشق صورة المعشوق ! .. ووصل جاك الى روان فى الخامسة الا ثلثا واستأجر غرفة فى فندق صغير قرب المحطة .. قال انه ذاهب لزيارة بعض الاصدقاء فى اليوم التالى قبل العودة الى باريس لاستئناف عمله . وأشاع انه تعجل النهوض من فراش المرض ، وأنه منهك ، ولذلك أوى الى غرفته فى الساعة السادسة ، تلك الغرفة التى طلب خصيصا أن تكون فى الدور الارضى ، مطلة على شارع ضيق مهجور .. وهكذا ، بعد عشر دقائق ، خرج من نافذة الغرفة بعد أن جعلها بحيث يمكنه الدخول منها فيما بعد ، وعاد أدراجه الى (كروا دى موفرا) .

وصل فى التاسعة والربع ٠٠ كانت ليلة مظلمة ولا يبدو فيها ضوء ٠٠ ولما ألفى نفسه مرة أخرى قرب هذا المنزل الموحش المهجور ، انتابه شعور التطير الذى أحس به من قبل ، وحدثته النفس بوقوع مكروه وشيك ٠٠ وكان قد اتفق مع سيفرين على القاء ثلاث حصوات على نافذة

الغرفة الحمراء ٠٠ ثم ذهب الى خلف المنزل ، ففتح له الباب بهدوء ٠٠ وبعد أن أغلقه خلفه تبع سيفرين فى السلم، ولكنه عندما شاهد فى ضوء المصباح فراشها غير مرتب وملابسها ملقاة فوق مقعد وهى نفسها مرتدية قميص النوم وشعرها معقود فوق رأسها مبديا عنقها المجرد ، وقف مكانه مذهولا ، وقال :

ـ ماذا ؟ ٠٠ هل ذهبت الى النوم فعلا ؟

ـ نعم ٠٠ هذه أفضل طريقة ٠٠ عندما يصل وأنزل اليه وافتح له الباب وأنا بهذه الحالة ، فلن يجد سببا للشك فى شئ ٠٠ سأقول له انى أصبت بالصداع الذى يعاودنى ٠٠ وميزار نفسه يعتقد الان أنى مريضة ٠٠ وعندما يجدون جثته فوق الشريط غدا ، فسيكون بوسعى ان اقول انى لم أبرح هذه الغرفة قط .

لكن جاك كان يرتعد .. وانفجر قائلا فى سورة هياج : تملكته :

ـ لا ٠٠ لا ٠٠ البسى ملابسك حالا ! ٠ لابد أن تكونى مستعدة حينما يصل .. لا يمكن ان تبقى هكذا

ـ لكن لماذا يا حبيبى ؟ لا تقلق ٠٠ أؤكد لك أنى لا أشعر بأى برد ٠٠ أنظر كم أنا دافئة !

وفيما هى تدنو منه لتطوقه بذراعيها العاريتين، انزلق قميص النوم من فوق كتفها وكشف عن صدرها المستدير ٠٠ ولما رأته يتراجع فى غضب محزون ، لم تلبث أن عادت الى الامتثال ، وقالت له :

ـ لا تغضب منى ٠٠ سأعود الى الفراش ٠٠ لا تخف ٠٠ لن أمرض ٠

وعندما رقدت فى الفراش وتغطت بالملاءة حتى ذقنها بدا أنه انحاز الى الهدوء ، واخذت تذكر لــه الترتيبات التى توشك ان تتم ، قائلة :

ـ حالما يطرق روبو الباب سأنزل وأدخله ٠ ـ ٠ وقد فكرت اولا ان أصعد به الى هنا وادعك تتم مهمتك معه ٠٠ ولكن معنى هذا أن نحمله الى تحت مرة اخرى، وهو شئ غير عملى .. ان الارض هنا من الباركيه ، فى حين أنها فى البهو الارضى من البلاط ويمكن غسله بسهولة فى حالة وجود بقع دم ٠٠ انى تذكرت وأنا أخلع ملابسى كتابا قرأته ذات مرة وفيه تجرد القاتل من ملابسه تماما قبل الشروع فى عمليته .. بهذه الكيفية يمكنك ان تنظف نفسك بعد اتمام المهمة ولا تكون هناك فرصة لتلوث ملابسك ٠٠ ما رأيك أن نطبق هذه الطريقة ؟

كانت هذه المرأة ذات العينين الصافيتين كعينى طفل والمظهر الرقيق غير مشغولة الا باتمام عمليتها بالصورة المثلى ٠٠ أما هو فقد حدق فيها مرعوبا ٠٠ ان فكرة وجودهما كليهما عاريين وملطخين بدم روبو قد صعقته الى أبعد حد ، حتى هتف قائلا :

ـ رحمــاك يا ربى! ٠٠ هـل تريدين أن نصبح متوحشين ؟ ! ٠٠ لماذا لا نكون من أكلة لحوم البشر أيضا ونأكل قلبه فى أثناء العملية ؟ ! ٠٠ نعم ٠٠ أنت تكرهينه كراهية ما بعدها كراهية !

تجهم وجه سيفرين ٠٠ ان ما قاله رد اليها حقيقة الواقع وذكرها بأنها لا تبدى هذا الحماس فى عملية منزلية بحتة ، بل فى تدبير جريمة قتل وحشية ٠٠ وهكذا امتلأت عيناها بالدموع وراحت تقول :

ـ أكرهه ؟ ! ٠٠ لا بأس ٠٠ بعد كل ما مر بى لا يمكن أن تنتظر أنى أحبه ! ٠٠ قلت لك مائة مرة أنى أفعل كل شئ ولا أبقى معه أسبوعا آخر ٠٠ ومع ذلك فأنت على حق ٠٠ انه لشئ فظيع أن يسقط الانسان الى هذا الدرك ٠٠ ولكنه يدل على مدى حبنا وحـاجتنا الى

السعادة معا .. وعلى كل حال فان هذا هو ما سوف نفعله .. اننى سأنزل دون أن آخذ المصباح ، وأنت تقف خلف الباب .. سوف أفتح له ، وأنت تتكفل بالباقى .. اننى أريد أن أساعدك بكل طاقتى ، حتى لا تحتمل العبء كله وحدك .. انى رتبت كل شىء على أكمل صورة .. ولمح المطواة الكبيرة فوق المائدة .. المطواة التى استخدمها روبومن قبل .. المطواة التى وضعتها فى هذا المكان لكى يستخدمها هو بدوره .. كانت ملقاة ونصلها يلمع فى ضوء المصباح .. وجعلت تراقبه وهو يتناولها ويفحصها .. ولما وضعها قالت له :

ـ أنا لا أجبرك على هذا العمل يا حبيبى .. هناك وقت للعدول عنه اذا أحببت .

فأبدى اشارة عنيفة تنم عن الرفض ، قائلا :

ـ ماذا تظنيننى ؟ .. جبان ؟ .. لقد أقسمت أن أقوم بهذا العمل ، وسأقوم به .

وفى هذه اللحظة اهتز المنزل من أساسه بدوى قطار فائت ، وكان من القرب بحيث بدا وكأنه فى الغرفة .. فقال جاك :

ـ هذا قطاره .. سيكون هنا فى خلال نصف ساعة .

وانقضت فترة طويلة دون أن ينبس أحدهما بكلام .. وجعل جاك يذرع الغرفة جيئة وذهابا وسيفرين ممددة فى الفراش تراقب حركاته .. ان كل مخاوفه وهواجسه الماضية قد عادت اليه .. هل تراه يقوى على هذا العمل عندما يحين وقته أول الامر كان يشعر بالتصميم الجازم على القتل ثم لا يلبث ان يعروه انقباض فى الصدر وبرودة قارسة فى القدمين واليدين ثم فجأة ينتابه الانهيار والعجز عن جعل عضلاته تطيع ارادته وفى جهد جهيد لبث القوة والشجاعة فى قلبه ، قال لنفسه

ما قاله عديد المرات لابد له ببساطة من قتل هذا الرجل ان الثروة تنتظره فى امريكا وسوف يستحوذ على المرأة التى يحبها الى الابد .

وكانت سيفرين وهى تراقبه عن كثب قد استرعى نظرها شىء غريب فى حانته هذه الليلة .. وكان فكه الاسفل بارزا بصورة شاذة ، وفى خطواته فى الغرفة صوب اليها نظرة خاطفة غريبة رات من خلالها عينيه وقد خالطتهما سحابة وحمرة وما لبث ان انثنى عنها فجأة كأنما يتحاشى النظر اليها لماذا لا يريد أن ينظر اليها ماذا دهاه ؟ هل ينوى ان يتخلى هذه المرة ايضا ودون وعى منها بالخطر الداهم الذى كانت فيه من ناحية جاك فقد عزت احساسها المسبق بالشر الى خوفها من فقده .. تأكدت فجأة انه اذا فشل فى توجيه الضربة هذه المرة فانه سوف يهرب منها ولا يعود ابدا .. واذن فقد صممت على انه لابد من أن يقتل روبو ، واذا لزم الامر فان عليها ان تجد سبيلا لبث القوة فى نفسه .. فى هذه اللحظة مر قطار بضاعة بدت عرباته المتثاقلة وكأنها تستغرق دهرا فى المرور .. وهنا رفعت نفسها واتكأت على مرفقها منتظرة حتى تنتهى الجلبة .. وقال جاك فى هذه اللحظة :

ـ بقى ربع ساعة ! .. لابد أنه يسير فى الغابة الان . ألا ليته يأتى ! .

وبينما هو يستدير فى ذهابه وأوبته رأى سيفرين واقفة عند طرف الفراش فى قميصها الرقيق .. وجعلت تقول له :

ـ لو اخذنا المصباح الى تحت ، لامكنك ان تتأكد من رؤية المكان الذى ستقف فيه بالضبط .. بامكانى أن أريك كيف افتح الباب وستعرف بدقة الحركة التى

تلزمك .

فقال : ـ لا ٠٠ لا ٠٠ لا داعى للمصباح ! .

ـ لكن ياحبيبى سوف نطفئه بعد التجربة فى الحال ٠٠٠ لابد ان نرى كيف نقوم بالعملية ٠

ـ لا ٠٠ لا ٠ ارجعى الى الفراش ٠

وبدلا من أن تطيع ، فانها تقدمت منه بابتسامة المرأة الواثقة من سلطانها الجسدى على رجلها..ما عليها الا ان تطوقه بذراعيها فيمتثل لمشيئتها .. ومضت تقول متحببة :

ـماذا جرى ياحبيبى ؟ يكاد من يراك يظن انك خائف منى ٠٠ انى لا اكاد اقترب منك حتى تحاول ان تبتعد عنى .. آه لو عرفت كم احتاج اليك ، وكم أريد أن اكون بقربك الى الابد !

وشيئا فشيئا ارجعته الى الوراء حتى اعترضته المائدة ، ولم يعد يستطيع الافلات ٠٠ ونظر اليها فى ضوء المصباح الوهاج .. انه لم يشهدها قط من قبل على هذه الصورة ، بشعرها المعقود فوق رأسها ، وقميصها المفتوح على سعة ، الذى كشف تماما عن عنقها وصدرها ٠٠ شعر بقلبه يدق عنيفا ولميكديستطيع التنفس ٠. ثم تذكر المطواة فوق المائدة من خلفه ٠٠ ما عليه الا انيمد يده فيمسك بها وبجهد خارق عالج ان يقول لها :

ـ ارجوك ان تعودى الى الفراش ! ارجوك ان تعودى

كانت تعلم بالطبع ماذا دهاه ٠٠ لاشك ان نشوة الحب هى التى تجعله يرتجف على هذه الصورة ، وقد تملكها الزهو والتيه من قدرتها وسلطانها ٠٠ ما الذى يدعوها لان تطيع امره ؟ انها تريد انيمنحها من الحب هذه الليلة دون الليالى جميعا ما يبلغ حد الجنون ٠٠ وكذلك ضغطت عليه بجسدها وهى تقول:

ـ قبلنى ياحبيبى ٠٠ بين لى انك تحبنى ٠٠ ان هذا سيمنحنا الشجاعة .. اننا فى حاجة اليها .. لكىنفعل ما سوف نفعله ، فلابد ان نحب بعضنا اضعاف مايحب الاخرون ٠٠ قبلنى بكل فؤادك بكل روحك ! ٠

كان يجاهد للتنفس ٠٠ ان دويا هائلا فى اذنيه اصم سمعه ٠. ان تيارات من اللظى كانت تلفح رأسه وتنتشر الى ذراعيه وساقيه ، وكأن شيطانا ناريايطردروحه من جسده لكى يحل محلها الوحش الكاسر ويسيطر ٠ ان الصدر العارى هصره .. ان العنق الابيض اشرأباليه وهو لا يقاوم فى اغرائه .. ان عبيرها الحار المسكر أسكره ، وأيقن أنه لا قبل له بعد ذلك بصمود أو مقاومة .

هكذا امتدت يده من خلفه حتى لمست المدية ٠٠. وظل برهة ممسكا بها وعيناه تقدحان بشرر الجنون ٠٠ وانفتح امامه باب على هوة حالكة سحيقة مالها من قرار ٠٠

ـ قبلنى ! ٠٠ قبلنى !٠٠

قالت هذا وهى تتطلع اليه باستعطاف وقد استقام جيدها المرمرى ٠٠ فارتفعت يده ٠٠ ووقع نظرها على بريق النصل فارتدت الى الخلف تشهق رعبا وذهولا ٠

ـ جاك ! .. جاك ! انا ؟ .. يا الهى لكن لماذا ! لماذا ؟

لم يجب وباسنان مطبقة امسك بها وجذبها الى الفراش وقد اغبر وجهها وتمزق قميصها كل ممزق ٠

ـ بالله ياجاك ! ٠ لماذا ؟

وهوت يده واوقفت السؤال فى حلقها ٠٠ وفى ضربته ادار النصل حتى انغرس بنفس الكيفية وفى نفس الموضع

الذى أصيب فيه القاضى جرانموران ، وكانت الطعنة بنفس القوة الجنونية ..

هل بدرت منها صيحة ؟ لم يعرف هذا قط .. فى هذه اللحظة دوى صوت القطار السريع القادم من باريس وارتجت الارض .. وهوت هى وكأنما طوح بها مرور القاصف العاصف .

ونظر جاك الى جثتها ... كان مجرى احمر يتدفق على صدرها ومنه الى الارض .. لم يكن يظن ان لديها كل هذا الدم .. ان ماسمره فى مكانه هو قناع الرعب الذى لا يوصف والذى مسخ محياها الذى كان مليحا من قبل .. وبدا كأن عينيها الزرقاوين المتسعتين الان ، تسألانه مرة أخرى : « لماذا ؟ . لماذا قتلتنى ؟ » .

وفجأة شعر جاك بصوت مخيف ، كالصوت المرتفع الرنان لتنفس حيوان متوحش . .ثم لم يلبث ان ادرك أنه صوت تنفسه هو .. اذن فقد قتلها اخيرا .. لقد استحوذ عليها كما طالما اشتاق ان يستحوذ عليها .. وبالموت اصبحت له الى الابد .

وايقظه من غيبوبته جلبة مدوية ورجة فى الارض .. هل كانت الابواب تفتح عنوة !؟ .. هل جاءوا للقبض عليه ؟ .. لقد نظر حوله ولكنه لم يجد شيئا .. ثم ادرك انه قطار آخر مر .. ثم لا يلبث ان يجىء ذلك الرجل ويطرق الباب ، الرجل الذى كان يراد ان يقتله .. انه نسى كل شىء عن روبو .. ان سيفرين التى احبها والتى احبته هذا الحب العنيف المضطرم ، ممددة الان على الارض مذبوحة . فى حين أن زوجها ، الذى كان عقبة فى طريق سعادتهما ، كان يقترب الان خطوة خطوة فى صميم الليل .. ان الوحش قد تعجل ضربته .... ان مشهد هذا الوجه المخيف بات

لا يطاق .. ثم بدا له انه يرى وجها ابيض آخر قرب الفراش .. اهى فلور ؟ نعم ، فلور .. عادت لتتلذذ ساعة انتصارها ! .. لقد جن جنونه رعبا .. ماذا هو فاعل بعد ذلك فى هذه الغرفة ... لقد قتل .. لقد أشبع شهوته الى الدم .. لقد ثمل بخمر الموت مرة المذاق .. ماذا ينتظر ؟ وكذلك اندفع فى السلم ، وفتح الباب بقوة ، وجرى فى الظلام دون ان يلقى نظرة الى الخلف على منزل الدمار ..



فى تلك الليلة ككل ليلة ، وقف كابوش تحت نافذة سيفرين متلكئا .. كان يعلم أن روبو سيحضر وأدهشه أن يرى ضوءا ينبعث من شق فى مصراع النافذة .. ولكن فجأة وثب رجل من سلم المنزل وانطلق يعدو فى الليل .. فوجىء كابوش ودهش ان ما حدث تم بسرعة شديدة الى حد أنه لم يجد فائدة من الجرى وراءه .. ووقف امام الباب المفتوح على سعته يتساءل ماذا يفعل .. ماذا يجرى ؟ هل يجب ان يدخل ؟ ان الصمت المطبق الكئيب والسكون المطلق شامل ، مع وجود المصباح مضاءا فى أعلا السلم ، كل ذلك روعة ..

جعل ينتظر .. واخيرا وجد الشجاعة لكى يتسلل الى اعلا السلم ، كان باب غرفة النوم مفتوحا ايضا ، وتوقف مرة أخرى .. وعند طرف الفراش خيل اليه انه يرى كوما من الملابس الداخلية .. لابد ان سيفرين خلعت ملابسها .. ناداها برقة وقلبه يدق .. ثم رأى الدم وفهم .. فاندفع الى داخل الغرفة وهو يصرخ صرخة مخيفة .. خيل اليه انها مازالت تتنفس وان حياتها تنزف وتتسرب منها وهى ملقاة كأنها عارية .. وفى خجل

ويأس رفعها فى ضمة رقيقة ووضعها فوق الفراش ، وجذب الملاءة فوقها . . انها كانت الدلالة الظاهرية للحب التى تهيأت بينهما قط ، وفيها تخضبت يداه وملابسه بالدماء ٠٠ فى هذه اللحظة استدار لكى يرى روبو وميزار فى الغرفة ٠٠ انهما ايضا قد صعدا مباشرة عندما وجدا كل الابواب مفتوحة ان روبو تأخر فى الحضور لانه توقف فى الطريق للتحدث مع ميزار ، وجاء الاثنان الى المنزل معا وهما يتحدثان ٠٠ لقد وقفا الان يحدقان فاغرى الفم الى كابوش ويديه الملطختين بالدماء ٠٠ ومالبث ميزار ان انحنى فوق سيفرين ثم قال :

ــ نفس الجرح الذى اصيب به القاضى ! ٠٠

فأومأ روبو برأسه ولكنه لم يتكلم . . انه لم يستطع ان يرفع نظره عن سيفرين عن قناع الرعب الفظيع ٠ عن حملقة العينين الواسعتين الزرقاوين اللتين مازالتا تتساءلان

ــ لماذا ؟ ٠٠ لماذا ؟ ٠

الفصل الثانى عشر

بعد ثلاثة اشهر ، وفى ليلة حارة من شهر يونيو ، كان جاك يقود قطار السادسة والنصف السريع من باريس الى الهافر ، لقد اعطيت له قاطرة جديدة رقم ٦٠٨ ٠ كانت متقلبة ومتدللة ، كفرس لابد من كبحها قبل أن تسلم قيادها للزمام ٠ كان وهو يقود القاطرة رقم ٦٠٨ يشعر بالاسف لمصرع قاطرته الحبيبة ليزون ، لكن السماء هذه الليلة كانت صافية الاديم والطقس دافئا ، حتى خالطته الرقة نحو فتاته الجديدة وترك لها العنان تجرى على هواها سعيدة بأن يستنشق هواء الصيف العذب .. أنه لم يكن فى حياته اسعد منه الان ، ولا اهنأ بالا ، وأوفر سكينة .

لم يساوره الندم على شىء ٠ ولم يشعر بعذاب الضمير ٠٠ وكان عادة لا يكثر من الكلام اثناء السير ، ولكن هذه الليلة أخذ يمازح بيكيه ، الذى كان الوقاد المساعد له أيضا .

ومن عجب أن بيكيه لم يبادله المزاح ، بل رد عليه بحدة فهم جاك اسبابها ٠٠ ففى الاسبوع الماضى استسلم جاك لغراميات فيلومين التى ظلت تلاحقه بغير حياء . . ولم يكن ذلك لانه أحبها ، بل لانه اراد ان يقوم بتجربة ٠٠ هل تراه قد شفى نهائيا الان بعد ان اشبع شهوته المخيفة للقتل ؟ ٠٠ هل يستطيع فى الواقع ان يحب امرأة أخرى

دون ان تمتد يده الى مديته ؟ لا بأس ٠٠ ان تجربته مع فيلومين لم تسفر عن ظهور الاغراض القديمة .. وهذا هو سبب طمأنينته الآن وثقته .. لقد أيقن الآن أنه طبيعى كأى انسان آخر ..

ومهما يكن فانه تحاشى ان يثير بيكيه ، وانتهت الرحلة الى الهافر دون ان يقع بينهما ما يكدر ٠٠٠ ولكن عندما كانا فى طريقهما الى عنبر النوم لقضاء الليل ، استوقفهما صوت يقول :

ــ لماذا العجلة ؟ .. لماذا لاتأتيان عندى بعض الوقت؟

كانت فيلومين .. ولم يسرها فى الواقع ان ترى بيكيه ولكنها نادت الاثنين لكى تستمتع بالحديث مع عشيقها الجديد ، حتى ولو كان الاول موجودا ٠

ولكن بيكيه قال ساخطا :

ــ اقفلى فمك ودعينا .. اننا نريد أن ننام ٠

فهتفت فيلومين فى مرح :

ــ لا يمنعك احد من النوم ياعزيزى لكن جاك ليس مثلك ٠٠ مارأيك فى كأس من الشراب معى ؟ ٠٠

وقد استصوب جاك ان يرفض وهم ان يقول هذا، ولكن بيكيه قال فجأة انه يريد كأسا من الشراب ٠٠ فقد بدا له ان يراقبهما عن كثب ليعرف ان كان بينهما علاقة حقا ٠٠٠ وهكذا ذهبا الى المطبخ وجلسا الى المائدة بينما جاءت فيلومين بزجاجة وكؤوس ٠٠ وفيما هى تصب الشراب راحت تقول :

ــ هل تعرفان ان مدام لوبليه ماتت صباح اليوم ؟ ٠٠ مسكينة ٠٠ كنت واثقة انها ستموت من القهر عند نقلها الى ذلك المسكن الخلفى المقبض ٠٠ لكننى اعرف السبب الحقيقى لموتها ٠٠ هو عجزها عن التجسس على مدموازيل جيشون ومسيو دبادييه ناظر المحطة ٠٠ كان

التجسس عماد حياتها ! ٠

وسكتت برهة لترتشف جرعة من كأسها ، ثم هتفت فجأة :

ــ اليس الاسبوع القادم هو موعد نظر قضية روبو فى روان ؟ ٠٠

حتى الان كان جاك وبيكيه ينصتان الى ثرثرتها صامتين ٠٠ ومالبث جاك ان قال بهدوء :

ــ نعم ٠٠ انى دعيت كشاهد ٠٠

فقالت فيلومين وهى تميل الى الامام لكى تلصق ذراعها بذراعه :

ــ وسأكون انا ايضا شاهدة . انهم عندما استجوبونى عنك قلت لقاضى التحقيق : « لكنه ياسيدى كان يعبدها .. لا يمكن ان يصدر منه اى اذى لها » .. انى كنت اراكما معا ، وأنا أدرى بالحقيقة ! ٠

فقال جاك وهو يهز منكبه بغير مبالاة :

ــ نعم ٠٠ انى لم انزعج ٠٠ كان بوسعى ان اثبت جميع خطواتى فى ذلك اليوم .. وكون الشركة ابقتنى فى العمل دليلا على أنه ليس هناك شىء ضدى ..

وتوقفوا عن الكلام فترة راحوا اثناءها يحتسون الشراب .. وما لبثت فيلومين أن استرسلت قائلة : انه شىء يقشعر منه البدن ... أعنى ضبط الوحش الكبير كابوش وهو ملطخ بالدم من أعلاه الى أسفله ! هل تصدقون أن رجلا يمكن أن يقتل امرأة لانه أراد أن ينالها ؟ .. وما الفائدة اذا ماتت ؟ يا الهى ! .. ما أشد غفلة بعض الرجال ! ..

لكن ما لا يمكن أن أنساه هو مسيو كوش رئيس بوليس السكة الحديد كما تعرفون ، وهو يتقدم على رصيف

المحطة ويقبض على روبو ! .. كنت هناك ورأيتـه فعلا !.. انه ربت على كتفه وقال ان عنده أوامر بوضعه فى الحبس .. وكان الاثنان يقضيان الساعات الطويلة وهما يلعبان الورق ! .. لكن عندما يكون الانسان من رجال البوليس فانه لايتردد أن يأخـذ أباه او أمه الى المقصلة ! .. وهنا أطبق بيكيه أسـنانه ولطم المـائدة بقبضته قائلا :

— يا الهى لو أنى كنت فى مكان روبو المغفل انت ياجاك تصاحب زوجة ثم يأتى شخص آخر ويقتلها والان هم يتهمون روبو بارتكاب جريمة القتل ! . ان هذا يكفى لكى يجعل الدم يغلى فى العروق

فصاحت به فيلومين :

— لكن يااكبر مغفل ، الا تعرف انه متهم بتحريض كابوش على قتلها من اجل ثروتها ، اوشىء من هذا القبيل !؟ .. الظاهر انهم عندما فتشوا كوخ كابوش عثروا فيه على ساعة جرانموران العجوز .. وهكذا كان عندهم واحد زائد واحد تساوى اثنين ! ..

وما لبث جاك الذى كان لا يكاد ينصت الى هذا الحوار أن غمغم قائلا :

— لماذا نشغل بالنا ؟ .. هذه مسألة لا تهمنا .. اذا كان القانون لا يعرف ما يجب أن يفعله ، فنحن أولى ألا نعرف ..

ثم أضاف وفى نظرته كآبة :

— ان كل ما يهم فى الواقع هو تلك المرأة المسكينة .. المرأة التى قتلت ! ؟ ..

وهنا تدخل بيكيه قائلا بلهجة الغضب :

— ان لى امرأة أيضا ، واذا حاول أحدهم معها أى شىء

فانى أخنق الاثنين .. واذا قطعوا رأسى بعد ذلـك بالجيلوتين فلا يهمنى ! .

وساد الصمت مرة أخرى بينما ملات فيلومين الكؤوس وقد هزت كتفيها وتكلفت ابتسامة مغتصبة .. ولكنها اضطربت رغم ذلك وجعلت تنظر الى بيكيه من زاوية عينيها ان زوجته فيكتوار العجوز فى باريس لم تشف من مرضها وتخلت عن عملها فى استراحة السيدات بمحطة سان لازار ودخلت أحد الملاجىء ، ولذلك أصبح بيكيه أقل عناية بنفسه وملابسه حتى كان الان يثير اشـمئزاز فيلومين كلما قارنت بينه وبين جاك النظيف المنمـق دائما ..

وأراد جاك أن يغير مجرى الحديث ، فقال :

— هل تعرفون أنه ستقوم حرب ؟

فهتفت فيلومين :

— حرب ؟ .. مع من بالله ؟

— مع البروسيين بالطبع .. والسبب هو أن أميرهم يريد أن يجعل نفسه ملكا على أسبانيا .. أنهم أمضوا نهار أمس كله وهم يناقشون هذا الامر فى المجلس ..

قالت فيلومين : — هـــذا شىء بديع ألا تكفينـــا مشاكل الانتخابات ، والاضطرابات ، وكل ذلك ؟ . اذا قامت الحرب ، هل يأخذون جميع الرجال ؟ ..

— سوف نبقى نحن ، لتشغيل السكك الحديدية .. لكننا سنعمل عملا شـــاقا فى نقل الجنود والمعدات .. ومع ذلك ، اذا جاء الواجب ، فسنقوم بنصيبنا من الخدمة ..

ونهض جاك .. ودست فيلومين أحدى ساقيها خلف ساقه ورآها بيكيه ، فقال جاك :

— لا بأس .. حان وقت النوم ..

فغمغم بيكيه : ــ نعم .. هيا بنا .
ولما ذهبا الى عنبر النوم تمدد كلاهما دون كلام .. كان الفراشان متجاورين ، وظلا وقتا طويلا مستيقظين، وكلاهما ينصت الى تنفس الاخر .. ويراقبه ..

• • •

تقرر أن تنظر قضية روبو أمام المحكمة يوم الاثنين . كانت القضية نصرا كبيرا لمسيو دنيزيه قاضى التحقيق . ان الدوائر القضائية فى روان لم يكن لها من حديث سوى الثناء على الكيفية التى عالج بها هذه القضية الغامضة المعقدة . انها اعتبرت احدى الروائع الكبرى للتحليل البارع والتفكير الخلاق

ان دنيزيه حالما وصل الى (كروا دى موفرا) أصدر أمره باعتقال كابوش . ان كل شىء كان يشير اليه .. الدم الذى كان يخضب يديه وجسده ، والشهادة القاطعة لكل من روبو وميزار ، اللذين شاهداه وهو واقف فوق الجثة . وعندما سئل عن سبب وجوده فى غرفة نوم القتيلة رد متلعثما بقصة بادية الغباوة والتفاهة حتى ان قاضى التحقيق أعرض عنها استهانة واستخفافا .. لماذا يتقدمون دائما بالقصة المكررة عن رؤية رجل تسلل خارجا من المنزل وهرب فى ظلام الليل ؟ .. ولما جاء الدور لكى يفسر سبب وجوده فى المنزل فى مثل تلك الساعة غير العادية بدا عليه الارتباك .. وأخيرا قال أنه كان خارجا للتنزه ، وهى قصة صبيانية لا تقوى على التماسك .. كيف يصدق التحقيق قصة رجل غريب ارتكب الجريمة وهرب دون أن يبعثر الاثاث أو يأخذ حتى منديلا ؟ .. وأين الدافع على الجريمة ؟ .. ومع ذلك فان السيد دنيزيه وهو يعلم بموضوع العلاقة بين جاك وسيفرين قام بفحص دقيق لحركات جاك ومكان وجوده وقت

الجريمة .. ان كابوش يؤيد فقط ذهابه مع جاك الى محطة بارنتان لتوديعه وهو يسافر بقطار الرابعة والربع. ولكن صاحب الفندق الصغير فى روان أقسم كذلك أن شابا أوى الى غرفته للنوم عقب تناوله العشاء ولم يبرح غرفته الا فى صباح اليوم التالى .. وعلى أى حال ما كان لعاشق أن يذبح عشيقته المحبوبة ولم يكن بينهما قط حتى شبهة خصام .. كلا .. لم يكن هناك الا قاتل واحد ظاهر كالشمس ، هو ذلك الرجل الوحشى الضخم الذى ضبط متلبسا مخضبا بالدماء ، والذى أمضى فى السجن سنين لجريمة عنف، والذى يصر الان على التمسك بهذه القصص البلهاء الواضحة البطلان ومع ذلك فبرغم تضييق الخناق عليه وبرغم عقله المحدود ، فانهم لم يستطيعوا أن يزحزحوه قيد شعرة .. لقد أصر على قصته اصرارا ، ولم يحد عنها بتفصيل يسير .. وعندما سأله دنيزيه عن مشاعره حيال القتيلة ، احمر وجهه كفتى غض الشباب يفاتح فى قصة أول حب له ، وأنكر بعنف واهتياج أنه كان يريد أن يضاجعها .. ان هذا شىء ماكان ليتحدث فيه قط مع أحد .. ولكن كان هناك أكثر من شاهد على استعداد للشهادة بأنه كان يشتهى سيفرين ، وشعر السيد دنيزيه بأن لديه من الادلة ما يكفى لتوجيه تهمة الاغتصاب والقتل اليه .. عند ذلك جن جنون كابوش .. اغتصاب وقتل لمن كان ينظر اليها كالهة ! ؟ .. أنه لم يستطيع أن يكبح غضبه وأخذ يصيح بأنه لن يهدأ حتى ينشب يديه فى أعناقهم جميعا وقد دعى رجال البوليس ، وكان صراعا شديدا حتى تغلبوا عليه .. لا بأس .. هنا كل الدليل .. هذا رجل وحشى خطر .. ان سورة العنف هذه كانت فى ذاتها كل الدليل ، كانت الاعتراف الصريح بأنه مدان بجريمة

القتل التى يقسم أنه منها برىء ..
وعقب ذلك اتجه التحقيق وجهة أخرى مفاجئة ، ان السيد دنيزيه طالما سمع وهو يقول ان لديه موهبةلشم الحقيقة ، ولذلك قرر فجأة أن يقوم بتفتيش آخر لكوخ كابوش . وهناك ، عثروا فى حفرة خلف أحد الالواح الخشبية على عدة قفازات ومناديل نسائية مخبأة ، ومن تحتها ساعة ذهبية .. ان السيد دنيزيه عرف الساعة وهو فى أتم الرضا والحبور .. أنها ساعة القاضى جرانموران ، تلك الساعة التى جاهد عبثا من قبل للعثور عليها .. ومرة أخرى فان بعد النظر الباهر هذا قد ألقى الضوء على الموقف ، وبدأت الاحداث الماضية فجأة تتشابك مع أحداث الحاضر .. لكن النتائج قد تكون بعيدة الاثر جدا ، حتى اثر السيد دنيزيه أول الامر ان يستجوب كابوش عن القفازات والمناديل .. وقد شعر كابوش لاول وهلة بميل لكى يعترف بأنه كان يعبد سيفرين ، يعبدها الى حد يدفعه الى سرقة أشيائها الصغيرة التى يعثر عليها ويدخرها كما يدخر الانسان كنزا يعتز به .. ثم ما لبث حياؤه الاخرس وخجله الفاجر أن تغلبا عليه .. لم يستطع جوابا .. وهنا قرر قاضى التحقيق أن يبرز له الساعة ، فأخذ كابوش يحملق فيها مذهولا .. لقد تذكر كيف وجدها ملفوفة فى منديل خلف أحد أعمدة المنزل ، فأخذها الى كوخه ، حيث بقيت ريثما يفكر فى طريقة لاعادتها .. لكن ما جدوى أن يقول هذا لقاضى التحقيق ؟ لو فعل لكان فى هذا معترفا بالسرقات الاخرى التى يخجل من المكاشفة بها .. وعلى أى حال فهم لا يصدقون شيئا يقوله .. وكذلك استسلم .. بل أنه عند سماع اتهامهم له بالقتل ما عاد يهتاج .. لقد اشتد به الارتباك ، وراح يجيب على كل سؤال بأنه لا يعرف ..

أنه لا يعرف شيئا عن القفازات والمناديل .. أنه لا يعرف شيئا عن الساعة .. ما فائدة تحاملهم وضغطهم عليه على هذه الصورة ؟ .. لماذا لا يرسلونه الى المقصلة من فوره ويضعون حدا لكل شىء ؟ ..
وفى اليوم التالى قبض على روبو .. ان السيد دنيزيه قد أصدر الامر فى احدى تجليات الالهام التى كانت تهبط عليه ، وكان على تمام اليقين من صدق غريزته ، مهما يكن من عدم توافر الادلة .. كان هناك الكثير من الامور غير الواضحة بعد ، بيد أنه كان مقتنعا بأن روبو هو الشخصية المركزية فى القضية كلها .. وكان أول تأييد لنظريته هو ما اكتشفه من أن روبو وسيفرين قد أوصيا بنصيب كل منهما للاخر فى منزل (كروا دى موفرا) فى خلال أسبوع من تملكهما للمنزل .. ومن هذه البداية فان القضية كلها تجسمت فى عقله بدرجة من الاقناع بدت له كافية الى حد أن الحقيقة لا يمكن أن تكون بعيدة عنها .. ان روبو كان جبانا يخاف أن يقتل بيديه ، ولذلك استخدم هذا الرجل الوحشى ليقوم بالقتل لحسابه .. فى المدة الاولى كان روبو متعجلاللاستيلاء على نقود القاضى ، ولما كان يعلم كراهية رجل المحاجر له ، فانه دس المدية فى يد كابوش فى روان ودفع به الى مقصورة القاضى فى القطار .. وبعد ذلك اقتسما مبلغ العشرة آلاف فرنك ، وكان من الممكن ألا يرى أحدهما الاخر بعد ذلك لولا أن الجريمة الاولى تفضى فى الغالب الى الجريمة الثانية .. وهنا كان المجال فسيحا أمام قاضى التحقيق الفاضل لكى يقيم الدليل على ما يتسم به من فطنة ودراية بالنفس البشرية ، مما يؤثر عنه دائما بمزيد الاعجاب .. قال أنه كان دائما يمد بصره الى كابوش ، مقتنعا بأن الجريمة الاولى لابد أن تتبعها جريمة ثانية .. وبعد ثمانية عشر

شهرا صدق حدسه وصح تقديره .. فان زواج روبو تحطم على صخرة الايام .. ان الزوج بعشرخمسة آلاف فرنك نصيبه على القمـار .. والزوجة ، بعـد أن اهملها ، اتخذت عشيقا .. وليس من شك فى أنهـا رفضت بيع منزل (كروا دى موفرا) خشية أن يبدد روبو هذا المال كذلك .. ولعلها اتجهت فى احدى الخصومات التى كانت تشجر بينهما الى تهـديده بفضـح أمـره للقانون .. هناك شهود عديدون يمكنهم أن يشهدوا بأن الزواج تحطم نهائيا ، وهو ما أدى فى الوقت الملائم الى ارتكاب الجريمة الثانية .. لقد ظهر كابوش على المسرح مدفوعا باشتهائه للزوجة .. ما كان من الزوج ، وهو دائما كامن فى الخفاء ، الا أن دس المدية مرة أخرى فى يده حتى يتهيأ له أن يستحوذ نهائيا على ذلك المنزل الملعون ، الذى تسبب حتى ذلك الوقت فى القضاء على نفس بشرية .. أجل ! .. هذه هى الحقيقة .. الحقيقة الناصعة .. ان كل شىء يشير اليها ويؤيدها .. السـاعة التى وجدت فى كوخ رجل المحاجر .. وفوق كل شىء ، ذبح الجثتين بنفس الكيفية ، وبنفس السلاح ! ..

وأول الامر جعل روبو يجيب بنعم أو بلا مجردتين من أى بيان ، مدفوعا بتلك اللا مبالاة التى اصبحت طابعه الدائم فى هذه الايام .. انه لم يكد يبدو مندهشا عندما قبضوا عليه .. فى هذا الضمور البطىء الذى كان يعترى كيانه كله ، ما عاد يحس بشىء .. ولكن يشجعوه على الكلام ، وضعوا فى زنزانته حارسا وكان يلاعبه الورق من الصباح الى المساء وهو فى أتم سعادة ان روبو كان مقتنعا كل الاقتناع بأن كابوش هو مرتكب الجريمة ، لا يمكن أن يكون سواه .. وعندما سـئل عن جاك لانتييه ، اكتفى بأن هز كتفيه وابتسم ابتسـامة من

يعرف ولكن عندما أطبق عليه السيد دنيزيه محـاولا حمله على الاعتراف بجريمته ، لجـأ الى الاحتراس ... كـلا ... انـه بالطـبيع لم يرتكب هـذه الجريمة .. ان كابوش هو الذى قتل القاضى ، كما قتل سيفرين .. ماذا يقصدون بقولهم أنه مدان رغم ذلك لان كابوش عمل هذا لحسابه ؟ .. كان واضحا لديه أن هذا شرك نصبوه له لكى يعترف بالجريمة الاولى .. كان يعلم أن موضوع هذه الجريمة سوف يثار عاجلا أو آجلا .. ولما واجهوه بكابوش ، أعلن أنه لم يشاهده قط حتى تلك الليلة فى المنزل ، عندما وجده مغطى بالدم وعلى وشك أن يعتدى على ضحيته .. ومن أجل هذا الكلام اهتاج كابوش مرة أخرى ، وأعقب ذلك مشهد عنيف ..

وعلى مدار ثلاثة أيام كاملة ظل قاضى التحقيق يوالى استجوابه ، مقتنعا بأن عداوتهما الظاهرية ما هى الا افتعال القصد منه خداع العدالة .. ثم تلا ذلك أخيرا وقت أضرب فيه روبو عن الاجابة عن أية أسئلة أخرى .. ثم فجأة ، وكأنما أراد أن يضع حدا للموقف كله ، أو ربما استسلاما لضغط داخلى ظل يلح عليه فى الاشهر الاخيرة الحاحا متزايدا ، اذا هو يدلى بالحقيقة كلها كاملة ..

ففى اليوم الثالث ، بينما كان السيد دنيزيه يمعن فى ابداء حذقه ، مستعينا بكل حيلة للتغلب على هذا السجين الذى بدا له موفور الذكاء ، اذا روبو يصيح فجأة بأنه يفضل أن يعترف بكل شىء ، على أن يحتمل هذا العذاب أكثر مما احتمله حتى الآن .. ما داموا يريدونه أن يكون مدانا ، فليكن مدانا على الاقل بالاشياء التى فعلها .. ولكنه عندما سرد قصته ـ كيف أن جرانمورن أغوى زوجته وهى بعد فتاة ، وما كان من غيرته الجنونية عندما علم بكل هذه الاقذار ، وكيف أنه قتله ولماذا أخذ العشرة

آلاف فرنك — عندما سرد هذه القصة كان قاضى التحقيق يبدو كل لحظة وهو لا يصدق ، وهو أكثر من ساخر متهكم .. وما أن فرغ روبو من القصة حتى كان دنيزيه يبتسم ابتسامة صريحة .. لا بأس اذن .. ان هذا الرجل هو خصم أقوى شكيمة مما كان يظن . ولا عجب . فان الاقرار بالجريمة الاولى وتحويلها الى مجرد (جريمة عاطفية) ، وتبرئة نفسه من تهمة السرقة المتعمدة ، وفوق كل شيء من المشاركة فى قتل سيفرين — كل ذلك ولا شك مناورة جريئة تنم عن ذكاء غير عادى وتصميم لا يضارع ! .. لقد نسى روبو أن هذا كله لا يصمد أمام التحقيق والاستجواب .. وهكذا قال له دنيزيه :

— دع عنك هذا يا روبو .. أننا لسنا أطفالا كما تعلم .. تقول أنك قتلت جرانموران بسبب الغيرة ؟ ..

— فعلت هذا مؤكدا ..

اذا كان هذا ، فلابد اذن انك تزوجت زوجتك وأنت لا تعرف شيئا عن علاقاتها السابقة بالقاضى .. هل هذا ممكن ؟ بالعكس ، هناك كل دليل على انك كنت تعرف ، وقبلت الوضع .. هنا امرأة شابة ، ربيت كسيدة ومهرت بدوطة ، وراعيها يصبح راعيا لك .. وأنت تعرف انه رتب أن يترك لها بعض ممتلكاته فى وصيته .. ومع ذلك أنت تدعى انك لم تكن تعرف شيئا قط ! .. كفى الان .. انك كنت تعرف كل شيء .. لا يوجد تفسير آخر لزواجك .. وفضلا عن ذلك ، فهناك حقيقة واحدة بسيطة تكفى لتفنيد قصتك .. أنت لم تكن غيورا .. هل يمكنك أن تنكر هذا ؟ ..

فقال روبو : — انى أقول الحقيقة .. اننى قتلته فى نوبة غيرة ..

— اذن كيف اتفق انك ، بعد أن قتلت القاضى بسبب

مسائل غامضة فى الماضى البعيد ، تسامحت فى اتخاذ زوجتك لعشيق — جاك لانتييه ؟ وهو رجل كان يجب أن يثير عندك أشد الغيرة ؟ .. ان كل انسان كان يعرف هذه المسألة ، وأنت نفسك لم تخف علمك بها أيضا ، ومع ذلك فانك لم تحاول قط التدخل على أى صورة .. لماذا ؟ ..

راح روبو يحدق فى الفضاء بتبلد ، ولكنه لم يوفق الى جواب .. وفى النهاية غمغم قائلا :

— لا أعرف .. اننى قتلته .. ولم اقتلها ..

ومع ذلك تقول لى انك غيور .. غيور الى الحد الذى يحملك على القتل للانتقام .. نصيحتى لك الا تكرر قصة كهذه أمام المحلفين .. لو فعلت لضحكوا منك .. كلا .. لو كنت مكانك لغيرت أسلوبى .. ان الحقيقة وحدها هى التى يمكن أن تنقذك ..

ومنذ ذلك الحين ، كان روبو كلما زاد تمسكا بالحقيقة ، زاد السيد دنيزيه اقتناعا بأنه يكذب .. وما كانت الادلة لتعوزه .. هنا قضية ضخمة الاركان ضد روبو .. منذ الان فان الاتهام قد استقر على أسس صلبة راسخة .. ان القضية واضحة كالشمس فى رائعة النهار ..

ثم ان مما عزز من شهرة السيد دنيزيه ودعم من مكانته ، هو الاسلوب الذى استطاع به فى مزيد من البراعة والصبر أن يميط اللثام عن القضية فى وقت واحد .. فانه منذ أن نجح الاستفتاء العام الاخير ذلك النجاح المدوى ، كانت البلاد فى خضم من التقلبات المستمرة ، كالهستيريا التى تسبق أحيانا وقوع كارثة عظمى ، وقد أنعكس هذا فى الصحافة كانت لهجتها تتزايد افراطا ومغالاة .. وهكذا ، فانه بعد قتل امرأة فى

بيت منعزل ، وبعد أن عرف أن قاضى التحقيق فى روان قد أبدى من البراعة ما أتاح له أن يبعث قضية جرانموران القديمة ويربط بينها وبين هذه الجريمة الجديدة ـ فقد صدرت الصحف الموالية للحكومة وهى طافحة بأنباء هذا الانتصار الكبير .. وقد سبق ذلك اشارات فى صحف المعارضة كانت بين فينة وأخرى تأخذ طابع التهكم والتفكه بذلك القاتل الاسطورى غير المنظور الذى اخترع البوليس قصته للتستر على الافعال الشائنة لافراد معينين من ذوى المقامات العالية .. أما الان فها هو ذا الرد الساحق على كل هذا .. قد تم اعتقال القاتل وشريكه ، ولا تلبث ذكرى القاضى جرانموران أن تخلص نقية من كل ما علق بها فى هذه القضية .. ومرة أخرى امتلأت الصحف بالمناقشات الحامية مؤيدة ومعارضة .. وبتوالى الايام أصبحت الاعصاب مشدودة فى كل من روان وباريس .. والى جانب الطريقة التى كان يهيئها تكشف التفصيلات المروعة للقضية ، فقد بدا وكان العرض النهائى لحقائق القضية سوف يدعم من قوة الدولة وسلطانها ..

وفى خلال ذلك دعى السيد دنيزيه الى باريس وقدم نفسه الى مسيو كامى لاموت سكرتير عام وزارة العدل فى مسكنه لقد استقبله السكرتير العام واقفا فى غرفة مكتبه القاتمة وهو بادى النحول والتعب ، وكأنما كان يحس من خلف الانتصار فى الاستفتاء العام نذيرا بقرب انهيار النظام الذى تفانى فى الولاء له وخدمته .. انه كان طيلة اليومين الماضيين فريسة لصراع داخلى .. انه لم يستطع أن يقرر ماذا يفعل برسالة سيفرين : تلك الرسالة التى من شأنها أن تهدم قضية النيابة العمومية وتؤيد قصة روبو .. ما من أحد آخر غيره كان يعرف بوجود هذه الرسالة ، وانه لم يكن هناك شىء يمنعه من

أعدامها .. ولكن حدث فى اليوم السابق ، ان الامبراطور أبلغه أن العدل يجب ان يأخذ مجراه هذه المرة دون عائق ، حتى ولو تحملت الحكومة بعض الاذى فى هذا السبيل ـ وهى بادرة للامانة والصلاح ربما كان مرجعها الى احساس خرافى بأنه مادامت البلاد قد منحته تأييدها ، فان عملا واحدا من أعمال الظلم قد يؤثر فى مصيره تأثيرا خطرا .. واذا كان السكرتير العام لم يشعر فى ضميره بمثل هذا التحرج ، فانه مع ذلك راح يسائل نفسه : اتراه على حق فى أن يتفانى فى حب مولاه الى حد عصيان أوامره ؟ ..

أما السيد دنيزيه فانه لم يتوان فى الاشادة بانتصاره قائلا :

ـ أنت ترى أن غريزتى لم تخدعنى .. ان ذلك الرجل كابوش هو الذى قتل القاضى .. وأنا أعترف بأن تفرع التحقيق فى الناحية الاخرى كان يشتمل على بعض الحقيقة .. كنت دائما أشعر بأن هناك شيئا مريبا فى أمر روبو .. لكننا الان ، فى النهاية ، قد اقتنصنا الاثنين معا ..

جعل مسيو كامى لاموت ينظر اليه طويلا بعينيه الشاحبتين ، وما لبث أن قال :

ـ اذن فان جميع البيانات المشتمل عليها الملف الذى ارسلته الى ثابتة بالدليل ، واقتناعك لا يزعزعه شىء ..

ـ ليس هناك احتمال للشك .. كل شىء متماسك بعضه ببعض .. ولا أذكر قضية سارت فيها الجريمة ، رغم التعقيدات الواضحة ، بمثل هذا التسلسل المنطقى ..

ـ لكن روبو ، وان كان يعترف بالجريمة الاولى ، يدعى انه ارتكبها فى سورة غضب أعمى .. ان صحف المعارضة مليئة بهذا الكلام ..

— آه .. نعم .. أنهم ينشرون هذا الهراء ، وان كانوا لا يصدقونه هم أنفسهم .. روبو غيور ؟ ! .. فى حين كان هو ذاته يرتب اللقاءات بين زوجته وبين عشيقها ! ؟ لو كان قدم شيئا من الادلة ، لكنه لم يقدم دليلا واحدا .. انه ذكر شيئا بخصوص رسالة حمل زوجته على كتابتها ، وكان يجب أن يعثر عليها بين أوراق جرانموران .. فى اعتقادى يا سيدى انك بحثت بين هذه الاوراق وبالطبع لو انها كانت موجودة .. أليس كذلك ؟ ..

تمهل السيد كامى لاموت قبل أن يجيب .. اذا كانت نظريات دنيزيه سيؤخذ بها ، فانها سوف تضع حدا لفضيحة محزنة .. واذن فلن يصدق أحد كلام روبو ، وسوف تمحى من ذكرى القاضى تلك الشبهات الشائنة ، وتفيد الامبراطورية فى النهاية من رد الاعتبار لواحد من أخلص خدامها .. ومادام روبو قد أقر بجريمته ، فهل يهم من وجهة نظر العدالة اذا هو أدين بجريمة أو أخرى ؟ .. ويبقى بعد ذلك كابوش طبعا .. لكن ، اذا كان بريئا من الجريمة الاولى ، فانه يبدو من المؤكد وكأنه مدان بالجريمة الثانية .. وأما عن العدالة ، فيالها من وهم فى أفضل الظروف ! .. ان البحث عنها جهد مضيع ، عندما تكون الحقيقة خافية فى متاهات كثيفة من الزور والافكار الخاطئة ! .. من الخير أن يكون الانسان عمليا ، وان يدعم نظام الحكم القائم فى كفاحه للدوام والبقاء ! ..

وكرر دنيزيه سؤاله ..

وتلاقت عينا كامى لاموت بعينيه ، وأجاب بهدوء :

— كلا .. لم أجد شيئا على الاطلاق ..

وراح كامى لاموت وهو يبتسم فى مودة يطرى قاضى التحقيق اطراء حارا ويزجى اليه أعطر الثناء ، واذا كان انفراج شفتيه قد نم عن لمسة سخرية فانها لم تكد تدركها

العين .. لم توجد من قبل قضية أديرت بمثل هذه البراعة .. وقد استقر الرأى فى الدوائر العليا على استقدام دنيزيه الى باريس ليأخذ مكانه فى المحكمة بعد هذه الدورة .. وشيع كامى لاموت ضيفه الهمام حتى الردهة وما زال يود التحدث عن مناقبه ! ..

وكان أول شىء فعله كامى لاموت عندما صار وحده هو أن أشعل شمعة .. ثم استخرج من أحد الادراج رسالة سيفرين وبسطها .. والان وهى ميتة فقد بدت له شخصية مشئومة جالبة للكوارث .. من ذا الذى يعرف أى سر أخذته معها الى القبر ؟ .. أجل .. ان الحقيقة والعدالة هما حقا وهم خادع .. وعندما رفع الرسالة فى لهب الشمعة وراقبها وهى تحترق ، كان يشعر بوقر ثقيل وعبء باهظ .. لكن لماذا يحمل ضميره كل هذه الخديعة اذا كانت الامبراطورية كلها توشك أن يطوح بها فى مهب الرياح ، مثل حفنة الرماد الاسود التى أخذت الان تسقط بين أصابعه ؟ ..



فى أقل من أسبوع أتم السيد دنيزيه التحقيق .. لقد كانت شركة السكك الحديدية متعاونة معه الى أقصى حد ، وزودته بكافة الاوراق والمعلومات اللازمة .. كانوا متلهفين لوضع حد للقضية .. كانت صدمة لهم أن يتورط أحد رجالهم فى قضية كهذه ، وكان تشعبها يهدد بأن تمتد الى سائر هيئاتها المتشابكة ، بل تسرى حتى الى هيئة المديرين أنفسهم .. وكلما تم الاسراع ببتر العضو الفاسد الموبوء كان ذلك أدعى لخير الجميع .. وهكذا دعى أفراد محطة الهافر مرة أخرى الى مكتب قاضى التحقيق .. كان أولهم دباديه ناظر المحطة ومساعده رولان ، وكلاهما قدم تقريرا سيئا عن أحوال روبو

المتهورة ٠٠ وأعقبهما بيير ناظر بارنتان وموظفون آخرون من محطة روان ، وكانت شهادتهم حاسمة فى صدد الجريمة الاولى .. ومن بعدهم جاء دور ميزار وهنرى دوفرن ، اللذين أكدا أن روبو كان يتعامى طائعا مختارا عن علاقة زوجته بجاك ٠٠ بل ان هنرى دوفرن ذهب الى حد القول بأنه وهو فى فراش المرض فى منزل (كروادى موفرا) ، سمع كابوش وروبو وهما يتناقشان فى خطة للعمل خارج نافذته ، وهو ما فسر الكثير وجاء نفيا قاطعا لتأكيد الاثنين بأنهما لم يتلاقيا قط ..

ثم ان القضية أذكت من جديد مشاعر قوية فى دوائر أسرة جرانموران ٠٠ كانت بيرت ابنة القاضى وزوجها لاشيناى مبتهجين محبورين ٠٠ لقد أثار سخطهما الشديد عدم ترك منزل (كروا دى موفرا) لهما فى الوصية ، وفى جشعهما المفرط لم يكفا قط عن المجاهرة بأن روبو هو الجانى ، وهكذا فانه عندما أعيد فتح القضية وجدا فيها فرصة مواتية للطعن فى الوصية .. وقد وقعت مشادة عنيفة فى مكتب السيد دنيزيه بين أسرة لاشيناى وبين مدام بونون شقيقة القاضى القتيل ٠٠ ان هذه السيدة التى بدأت بالدفاع عن الزوجين روبو ، اضطرت الان الى التخلى عن الزوج ، ولكنها استمرت فى الوقوف الى جانب سيفرين ٠٠ ولا عجب ، فان مدام بونون كانت تحن دائما الى العشاق ، وقد راق لها الجانب العاطفى الرومانسى الملطخ بالدم فى القضية ٠٠ انها احتقرت الزوجين لاشيناى بسبب جشعهما الحقير ، وواجهتهما بهذا .. قالت ان ابنة اخيها ينبغى أن تخجل من اثارة موضوع الوصية مرة أخرى فى هذه المرحلة من القضية .. اذا كانت سيفرين ضالعة فى الجريمة ، أفلا ترى ابنة الاخ ان معنى هذا هو الاخذ بقصة روبو كاملة ،

وبهذا فانها تعمل على تلطيخ ذكرى أبيها من جديد ؟ ٠٠

وعندما بدأت أخيرا المحاكمة التى اقترنت الان بشهرتها السيئة ، فان القلق الذى اقترن باقتراب شبح الحرب ما لبث أن غطى الى حد ما على الاثر الكبير الواسع المدى الذى كان يمكن أن يكون لها ٠٠ ورغم ذلك فان مدينة روان عاشت ثلاثة ايام فى انفعال محموم ، زاد منه تسابق الناس الى الفوز بدخول المحكمة ٠٠ والواقع ان مقر المحكمة الذى كان من قبل قصرا لدوقات نورماندى ، لم يشهد فى تاريخه مثل هذه الجماهير التى تزاحمت لشهود المحاكمة ٠٠ وحتى قبل أن تبدأ اجراءات المحاكمة ، كان الناس يتنفسون بصعوبة فى حرارة يونيو ٠٠ واشرأبت أعناق النساء لرؤية أدوات الجريمة المعروضة على الخوان : ساعة جرانموران ٠٠ قميص نوم سيفرين المخضب بالدم ٠٠ المدية التى استخدمت فى كلتا الجريمتين ٠٠ كان المحامى عن كابوش ، وهو من باريس ، محل اهتمام خاص من الجمهور ٠٠ وفى مقاعد المحلفين جلس اثنا عشر من مواطنى مدينة روان ، أقوياء البنية ، موفورى الرصانة ، بأرديتهم السوداء ٠٠ وعندما دخل القاضى تعالت موجة هادرة هددت بالعمل على اخلاء قاعة المحكمة ٠٠

وأقسم المحلفون اليمين ، وسرت بين الجمهور موجة انفعال جديدة عند استدعاء أوائل الشهود . قد أديرت جميع الرءوس عندما نوديت أسماء مدام بونون ومسيو لاشيناى ، ولكن جاك وحده هو الذى كان النساء يردن مشاهدته ٠٠

وكان انفعال آخر حين جىء بالمتهمين ٠٠ ان روبو بسترته الرثة وربطة عنقه المهدلة قد أدهش أولئك الذين عرفوه بعد أن رأوا كيف شاخ واستحال الى البدانة ،

وأدهشتهم خاصة تلك النظرة الخاوية المنطبعة على وجهه .. أما كابوش وهو فى ردائه الطويل الازرق فقد كان طبقا لما تصوروه : صورة ناطقة للقاتل ، بقبضتيه الضخمتين ، وفكيه الشبيهين بفكى الذئب ، وكانت طريقة رده على الاسئلة مؤيدة لهذا الانطباع السىء .. على كل سؤال وجه اليه كان يجيب بأنه لا يعرف .. وعندما سئل عما وصفوه (بعاطفته الحيوانية) للمرأة المقتولة ، ما لبث ان استشاط غضبا واشتد اهتياجه الى حد أن الشرطيين القائمين على جانبيه اضطرا للامساك بذراعيه .. كلا .. انه لم يكن يحبها .. انه لم يكن يشتهيها .. ذلك كله أكاذيب .. ما كان له أن يدنسها حتى بمجرد التفكير فيها على هذه الصورة .. انها كانت سيدة عظيمة ، ولم يكن هو الا نزيل السجون يعيش عيشة المتوحشين ! .. ولم يلبث أن انحاز الى الهدوء ، وأخلد الى صمت ساخط متبرم ، ولم يظفروا منه بعد ذلك الا بكلمات موجزة ..

وبالمثل ، فان روبو تمسك بما وصفه الاتهام بأنه الخطة السابق تدبيرها .. لقد تكلم بعبارات موجزة مهتزة لا تكاد تبين فوصف مرة أخرى كيف ولماذا قتل جرانموران وانكر أى ضلع له فى مقتل زوجته وقد أبى أن يضيف الى اقواله شيئا آخر .. ما فائدة الادلاء بالحقيقة اذا كانت الاكاذيب هى وحدها التى تلقى السمع والتصديق ؟! ان هذا المسلك المشوب بالاحتقار للمحكمة قد اساء ابلغ الاساءة الى قضيته و قد لاحظ الجمهور كذلك انه هو وكابوش قد تجاهلا أحدهما الاخر بصورة عامة الى حد أنها بدت مؤيدة لنظرية وجود اتفاق مسبق بينهما وعندما تم الاستجواب كانت القضية شبه منتهية .. وقد تكلم الاتهام ببراعة فائقة وأحكام بلغ حتى لقد بدأ وكأن المتهمين ادانا نفسيهما تماما .. ولم يسمع من الشهود

فى هذا اليوم الاول سوى شاهد أو اثنين ثم اجلت المحاكمة الى اليوم التالى .. ان الحرارة كانت لا تطاق الى درجة انه اغمى على امرأتين .

على ان الانفعال تجدد فى اليوم التالى عند الاستماع الى شهادة بعض الشهود المعنيين . ان مدام بونون نالت الاعجاب الشديد برقتها وحصافتها وهنرى دوفرن ردد شهادته السيئة التى قال فيها انه يكاد يكون موفقا انه استمع وهو فى الفراش الى المتهمين وهما يدبران مؤامرة معينة .. ولما سئل عن سيفرين ابدى أشد التحوط فألمح الى انه احبها ولكن لعلمه بأنها متصلة برجل آخر فأنه لم يحاول اغواءها . وانما بلغ الانفعال اقصى مداه عندما دعى جاك للشهادة فقد نهض الجمهور للنظر اليه عن كثب ، وحتى المحلفون المتبلدون بدوا وقد اصبحوا اكثر انتباها .. كان جاك على تمام الهدوء ووقف مسند ايديه على الحاجز وكأنه يقود قاطرته .. كان المتوقع ان مثوله أمام المحكمة قد يثير انزعاجه ولكن الواقع أنه كان غير مكترث اطلاقا وكان على صفاء ذهنى موفور وكأن القضية كلها لا تعنيه ولا تشغله فى شىء .. لقد أدلى بشهادته كأنه غريب عن القضية بل كطرف برىء كل البراءة .. منذ ارتكاب الجريمة لم يساوره أقل ندم ولا نال من سكينته وهدوئه اى وازع من ضمير .. لقد نظر الى كابوش وروبو بصفاء عجيب .. الى ناحية روبو اومأ برأسه ايماءة يسيرة دون أن يتأثر بالحقيقة الواقعة وهى أنه وصف علنا بأنه عشيق الزوجة . ثم ابتسم الى المتهم الثانى المتهم البرىء الذى كان الحق يقضى بان يحل هو مكانه فى قفص الاتهام مهما يكن فان كابوش كان انسانا طيب القلب تحت مظهره المتجهم المنفر .. وكان يطيب له أن يحييه مصافحا .. ومالبث جاك ان راح يجيب

على أسئلة المحكمة وهو فى أتم راحة اجابات واضحة دقيقة ·· تكلم عن علاقته بالمرأة المتوفاة ورحيله عن (كروادى موفرا) قبل موعد وقوع الجريمة بساعات قلائل ، وكيف استقل القطار من محطة بارنتان وأمضى الليل فى فندق روان ·· وكان كابوش وروبو ينصتان اليه مؤيدين اجابته بصمتهما .. وعندما سأله القاضى اذا كانت لديه أية نظرية عن الرجل المجهول الذى قيل انه اختفى فى الظلام لم يفعل جاك اكثر من انه هز رأسه بحركة غامضة وكأنما يكره ان يضاعف بكلامه من سوء موقف المتهمين ثم حدث شىء حرك مشاعر الذين شهدوه الى ابعد حد .. فان الدموع انبعثت فى عينى جاك واخذت تنحدر على خديه ·· ان صورة سيفرين قد تراءت فى خياله كما شاهدها لاخر مرة ، عيناها الزرقاوان متسعتان أكثر من أى وقت وشعرها الفاحم متناثر ، ومحياها متقلص من فرط الرعب والفزع .. انه مازال يحبها حبا عميقا حتى بكى غافلا عن الزمان والمكان وأخذ بعض النسوة ينتحبن عطفا ورثاء .. ان الاسى من جانب العاشق قد اعتبر شيئا مؤثرا الى أقصى حد ونقيضا ذى دلالة لحالة الزوج ذى العينين الجافتين ولما كان الدفاع فى غير حاجة الى مزيد من الاسئلة للشاهد فان جاك عاد الى مقعده وحوله هالة من العطف العام ..

واستغرقت جلسة اليوم الثالث مرافعة الادعاء ودفاع المحامين عن المتهمين وكان تلخيص القاضى لوقائع القضية صورة للحيدة ولكن خطبته كانت فى الواقع اميل الى جانب الادعاء ومن الناحية الاخرى فان محامى كابوش الباريسى ترك فى النفوس انطباعا طيبا مرجعه الى شخصه وان كان دفاعه لم يبلغ مرتبة الاقتناع .. كما أن الدفاع عن روبو ، وهو محام قدير من روان ، بذل قصارى

الجهد ازاء الوقائع المادية غير الواقعية .. وكانت الساعة تناهز السادسة حينما انسحب المحلفون للمداولة .. وعلى الاثر ارتفع هدير الاصوات فى جو القاعة المذهبة السقف ، وكان الجمهور فى حالة بادية من نفاد الصبر .. وما ان عادت هيئة المحلفين حتى ساد القاعة صمت مطبق . لقد راعى الحكم الظروف المخففة للمتهمين ، وهكذا صدر بالاشغال الشاقة المؤبدة على كل منهما .. ان الحكم المخفف نسبيا قد ادهش اناسا من الحاضرين حتى سمعت دمدمة غاضبة بينهم وفحيح اصوات وكأن المحكمة كانت مسرحا ..

وبينما كان جاك خارجا من قاعة المحكمة اعترضت طريقه فيلومين التى كانت بين الشهود الثانويين .. انها تعلقت بذراعه واستحثته على أن يمضى الليلة معها فى روان · كانت تعرف انه لن يستأنف عمله قبل غد ·· ورغم أنه كان على استعداد لدعوتها الى طعام العشاء فى الفندق الصغير الذى كان مظنونا بأنه أمضى فيه ليلة الجريمة ، الا انه كان عليه ان يستقل قطار منتصف الليل وبذلك يستطيع الافلات منها ··

وبينما هما يسيران اذا قالت له فيلومين فجأة :

أكاد أحلف انى رأيت شخصا نعرفه فى الصفوف الخلفية . نعم هو بيكيه وان كان اخبرنى فى ذلك اليوم بأنه لاينوى الحضور الى روان ..

فبدا على جاك انه لم يصدق وقال لها :

ــ الاغلب أنه يتمتع بوقته فى باريس مستغلا أجازته الى اقصى حد قبل ان اعود وانضم اليه .

فقالت فيلومين : ــ ربما ·· لكن الافضل ان نحترس · انه ينقلب الى انسان حقود شرير عندما يستفزه احد ·

وبعد ان تناولا العشاء حاولت فيلومين استدراجه الى خارج المدينة كانت ليلة مظلمة خانقة الحر ‥ وفى سيرهما تلفتت فيلومين مرتين حولها وهى تظن انهاسمعت وقع اقدام من خلفهما ، لكن الظلمة كانت حالكة ولمتستطع أنتتأكد مما سمعته .. وكانجاك رغمشعوره بتمام الصحة منذ الجريمة قد ساوره الضيق حينما رأى فيلومين وهى تلامسه على مائدة العشاء ، وكأن الخبل القديم يوشك ان يعود اليه ‥ لا بأس ‥ لعله التعب ‥ أو لعله الرعد الذى يهدد به الطقس هذه الليلة .. ما ينبغى له ان يخشى شيئا من استجابته الى فيلومين ‥‥ان مغامرته الماضية معها لم ترد اليه علته ولاشك انه شفى تماما ‥

وجذبته فيلومين الى بقعة منعزلة ‥ وجلست على الارض .. وفجأة استحوذت عليه النوبة الجنونية حتى جعل يتحسس حولهمحموما بحثا عن سلاح أو حجرأوأى شىء .. ثم اضطر أن يستوى قائما .. وفيما هو يتحفز للجرى اذ سمع صوت رجل يصيح ويسب اعقبه صوت اشتباك ·

ـ فاجأتك يافاجرة كنت انتظر لكى أتأكد ! ‥

ـ هذا غير صحيح دعنى ‥

ـ غير صحيح ؟ لا فائدة له من الجرى ‥ انى اعرف من هو .. وسوف الحق به ! .. تجاسرى وقولى مرة ثانية أن هذا غير صحيح !

كان جاك يجرى فى الظلام لا من بيكيه الذى عرف صوته ولكن من نفسه ومن كربه وبلواه ·

اذن فان جريمة قتل واحدة لم تكن كافية ؟ .. اندماء سيفرين لم تكن شافية والجنون عاد مرة ثانية ‥ والجنون عاد مرة ثانية ! ‥ ثانية وثالثة ورابعة لقد بدا

له الان انه لم يكن بحاجة حتى الى رؤية المرأة متجردة لكى تنتابه شهوة القتل المروعة كان يكفيه ان يشعر بالدفء واستجابة عن كثب منه لكى يشتهى القتل وسفك الدماء ‥ ان حياته انتهت لم يبق امامه الان سوى ليل حالك مطبق ، ويأس محيق لا نهائى !

ومرت بضعة أيام ‥ لقد عاد جاك الى عمله لكنه كان اميل الى التحفظ والعصبية واجتناب زملائه ·

ثم أعلنت الحرب بعد جلسات عاصفة فى البرلمان ‥ وقد حدثت حتى الان مناوشات على الحدود ،قيل أنها انتهت بنجاح .. ان نقل الجنود فرض على السكك الحديدية وعلى رجالها عبئا ثقيلا ‥ ان القطارات النظامية بدأت تتأخر وتضطرب مواعيدها بسبب القطارات الاضافية العديدة ، وتجنيد عدد من خيرة السائقين ‥ وذات ليلة وجد جاك أن عليه أن يقود ، لا قطاره السريع المعتاد ، بل قطارا ضخما مؤلفا من ثمانى عشرة مركبة مكتظة بالجنود ..

وفى هذه الليلة وصل بيكيه الى حظيرة القاطرات وهو مخمور تماما ‥ فى اليوم التالى لاكتشافه وجود جاك وفيلومين معا استأنف عملهالمعتاد ، بيد أنه لم يشربشىء الى الحادث ‥ ولكن جاك توسم فى بيكيه تمردا متزايدا ، اذ كانيقابل أوامره اليهبدمدمةساخطة ، حتى أنهما كفا فى النهاية عن تبادل الكلام المعتاد ‥ ان لوحة الوقوف المعدنية الضيقة المهتزة ، التى طالما عملا فوقها متعاونين متآخيين ، قد أصبحت الان رقعة خطرة تشهد منافستهما فى الحب ‥ وعندما رأى جاك أن بيكيه مخمور الى هذا الحد ، فانه اعتزم أن يكون على أتم حذر ‥ كان يعلم بالتجربة أن السكر يحول بيكيه الى شيطان متمرد ‥

كان محددا لرحيل القطار الساعة السادسة ، ولكن الموعد أجل بسبب شحن عرباته بمزيد من الجنود ، حتى اكتظ بهم على سعته ، وتحرك فى النهاية وصوت غنائهم وهم سكارى يعلو على دوى القطار ..

وتطلع جاك الى السماء ، فرأى سحب العاصفة قد حجبت النجوم ·· ولم يكن ثمة نسمة تلطف من الهواء الشديد الحرارة ·· أنها ستكون ليلة مظلمة ·· وكان الضوء الوحيد الذى يبدو فى الافق المظلم هو ضوء الاشارات الحمراء ·· وزاد جاك من الضغط لارتقاء المنطقة المرتفعة فيما بين هارفلير وسان رومان ·· ورغم أنه ظل أسابيع وهو يدرس أحوال قاطرته الجديدة رقم ٦٠٨ ، الا أنه لم يسعه بعد بأنه سيد هذه القاطرة . انها كانت جديدة تماما ، وكان متحيرا من أساليبها اللعوبة ! ·· وفى هذه الليلة بدت له بصفة خاصة مشاكسة عصية ، وكأنما تريد أن تثور لاقل سبب ! ..

وكذلك احتفظ بيده على المنظم ، وبعينه على الوقاد ، الذى كان مسلكه يثير القلق شيئا فشيئا . . ان المصباح الصغير الذى يضىء مؤشر الماء كان يجعل العربة نصف مضيئة ، والباب المتوهج لخزان الوقود كان يحيل هذا الضوء اليسير الى لون قرمزى · ولم يكن يرى بيكيه الا بصعوبة ، ولكنه شعر مرتين بشىء يلامس ساقيه ، وكان أحدا يريد أن يمسك بهما ·· لم يكن شك فى أن هذه هى ألاعيب بيكيه فى سكرته ومن فوق صليل الآلة كان بوسعه أن يسمع بيكيه وهو يكسر الفحم بضربات وحشية من المطرقة ويغمغم كلاما لنفسه ·· وظل يفتح خزان الوقود ويلقى بكميات كبيرة منه جزافا فى النار .. فهتف به جاك :

ـ هذا يكفى ! ..

فتظاهر بيكيه بأنه لم يفهم واستمر فى تكديس الفحم ·· وفى النهاية جذبه جاك من ذراعه ، فاستدار نحوه بغضبة المخمور ، مستعدا للشجار الذى ظل يستعد له ··

وكان القطار الان يمضى بأقصى سرعة ·· وكان مقررا أن يقف فى طريقه مرة واحدة للتزود بالمياه ·· وكانت المركبات الثمانى عشرة تنطلق مرتطمة ببعضها فى أرجاء الريف ولها هدير متصل لم يستطع أن يطغى على غناء الكتل البشرية التى كانت ماضية قدما الى وجهتها ··

وقال جاك وهو يركل باب خزان الوقود بقدمه لاغلاقه ، محاولا أن يهدىء من حدته :

ـ النار عالية جدا ! ·· لماذا لا تنام قليلا اذا كنت سكران ؟

فكان جواب بيكيه أن فتح باب الخزان مرة أخرى وأخذ يكدس فيه مزيدا من الفحم ، وكأنما كان يريد أن تتفجر القاطرة ·· كان هذا تمردا سافرا ·· تمردا يهدد بالخطر حياة من فى القطار جميعا .. فانحنى جاك الى الامام لفتح نافذة الرماد ، وفيما هو يفعل ذلك شعر بيكيه يمسك به من وسطه ويحاول أن يقذف به الى ما تحت القطار ··

عندئذ تعلق جاك بحافة المقطورة ، وتصارع الاثنان بعنف فوق لوحة القدم المهتزة بشدة .. لقد أطبق كلاهما أسنانه ، ولم تبدر من أحدهما كلمة واحدة وهو يحاول ارغام الاخر على التخلى عن قبضته .. وعلى هذه الصورة مر القطار بمحطة بارنتان واندمج فى نفق ماهوانى ومازالا متماسكين على نحو قاتل فتاك ··

ورأى جاك أنه لو استطاع أن ينهض لامكنه أن يغلق المنظم ويوقف القطار ويطلب النجدة للتخلص من هذا

المجنون .. ولكن قواه الان كانت تخونه .. وادرك انه لا أمل له فى تخليص نفسه من قبضة بيكيه القتالة .. ان فكرة السقوط من القطار المندفع ملات نفسه رعبا .. وامتدت يده فى جهد خارق أخير لقطع البخار ، ولكن بيكيه رأى ما هو موشك أن يفعله ، فرفع جاك كانه طفل وهو يقول :

– اذن فأنت تريد وقف القطار ! ؟ .. اذن فقد سلبتنى امرأتى .. لا بأس .. هذا هو ما ينتظرك ! ..

وخرج القطار من النفق وهو يشق طريقه فى الظلام كالشهاب المارق .. ومر مدويا بمحطة ماهونى بسرعة قصوى حتى أن ناظر المحطة الواقف على الرصيف لم يستطع حتى أن يبصر الرجلين المتصارعين فوق لوحة الوقوف ..

وجذب بيكيه بكل قواه جاك الى ناحية الخط ولكن جاك فى اللحظة الاخيرة وحينما شعر بالفراغ السحيق الفاغر فاه من تحته ، تشبث مستميتا بعنق بيكيه وجذبه معه .. فدوت صرختان مخيفتان فى وقت واحد ، ثم تلاشى صداهما فى الظلام .. ان الرجلين اللذين عاشا أمدا طويلا كأخوين ، قد امتصتهما العجلات بتأثير سرعة القطار ، ومزقتهما شر ممزق ، وهما متماسكان فى عناقة مروعة ..

ان القاطرة التى تحررت الان من كل سيطرة ، مضت فى طريقها الجنونى ، مستجيبة لشبابها الوثاب وجدتها الفتية ، منطلقة كجواد غير مروض خلا من فارسه .. لقد امتلات الغلاية بالماء ، وخزان الوقود بالفحم المتقد .. وعلى نصف ساعة أخذ الضغط يتزايد باطراد والسرعة تشتد بصورة مروعة .. والجنود الذين استهوتهم السرعة ما لبثوا أن تعالت أصواتهم بالغناء فى أوج من

الانفعال والحماسة ..

وفى محطة روان كان مقررا أن يقف القطار للتزود بالماء .. لقد تملك الفزع عمال المحطة عندما اندفع القطار مارا بهم مدويا مجلجلا ملفوفا فى سحابة من الدخان واللهب .. ان رجال المحطة وقفوا فاغرى الافواه أو ملوحين بالايدى ، وعندئذ تعالى الصياح من كافة الانحاء .. أن هذا القطار الذى لا سائق له يمكن أن يمر فى محطة سوتفيل الكثيرة الحركة ، حيث تجرى التحويلات فيها على قدم وساق .. وهكذا اندفعوا الى غرفة التلغراف وأبرقوا محذرين فى وقت سمح بالكاد لقطار بضاعة أن يحول الى خط جانبى .. وبسرعة العاصفة وصل القطار الى المحطة ، وشق طريقه فيها دون أن يصيب أحدا ، ثم اندفع الى الظلمات فيما وراءها ..

والان كانت جميع الخطوط البرقية تطن بانباء القطار الشبح ، وكانت جميع القلوب تدق دقات الخوف .. كان ثمة قطار سريع متقدم ، ومن المحقق أنه سوف يصطدم به .. لقد تابع مسيرته كخنزير وحشى يشق طريقه فى غابته ، غير عابىء باشارات ولا علامات .. وفى محطة وازيل كاد يصطدم بقاطرة ارشاد لولا أن انحرفت عن مسارها فى آخر لحظة .. وفى محطة بون دى لارش مرق كالشهاب دون أن تقل سرعته ، ثم اختفى مرة أخرى فى جوف الظلام الى حيث لا يعلم انسان ، غير مكترث بما قد يسحق من أرواح وما يسفك من دماء ، ماضيا فى أطواء المستقبل الملىء بشتى النذر الرهيبة والاحتمالات المروعة .

تمت

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٧٠ / ٤١١٥

مطابع الأهرام التجارية